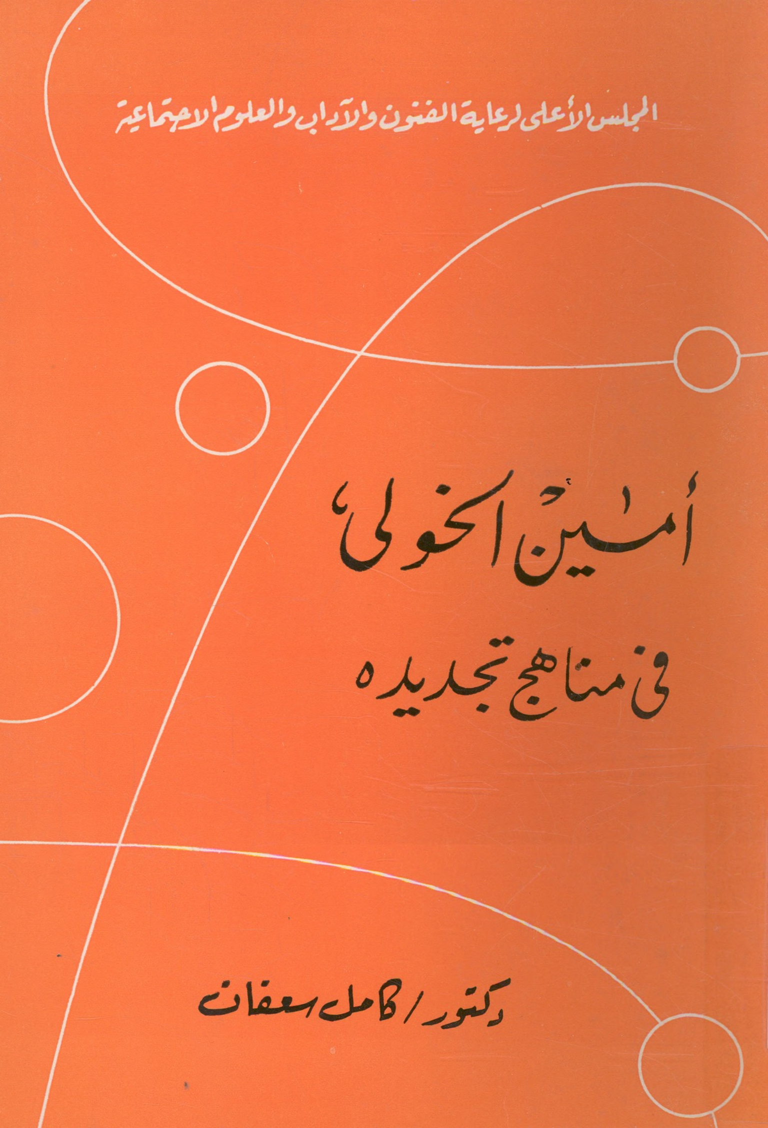

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
أمين الخولى
فى مناهج تجديده
دكتور / كامل سعفان

أمين الخولي

في مناهج تجديده

دكتور / كامل سعفان

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

مناخ فكرى

الليل جاثم لايكاد يتنفس .

ومصر .. أرض الحضارات .. تنوء بأعباء ظل كئيب من حكم المماليك[1] والأتراك ، امتص قواها الروحية والمادية ، أو كاد . ولم يخلف من ماضيها إلا نهبا مستباحا لكل دخيل ، لم يتعرف إليه ذووه ، وإذا عرفوه لم يحرصوا عليه ، ولم يصونوه . . ولم يخلف من حاضرها إلا نعرات بالماضى كاذبة ، وإلا ضربات طائشة مخذولة فى جدار أصم . .

حتى إذا أقبل نابليون تدوى مدافعه فى سمائنا ، لم يفق المماليك من غفلتهم ، على وهم أنهم أقدر من الفرنسيين برا ، وخرج العامة من المصريين بالعصى والسكاكين لملاقاة هذا الطارىء الجديد ، واجتمع المشايخ يرددون الدعوات ، ويقرءون (البخارى) ويتلون (الأورده) . .

وكانت خطا حمراء جالت فى الميدان جولة ، ثم أخذت طريقها إلى الجنوب .

وبقى الشعب وحده يعمل جاهدا من أجل الخلاص . . الخلاص من كل التعاويذ الكاذبة ، التى ألبست عليه الحق بالباطل ، وشوهت معالم وجوده .

وجدت محاولات للكشف عن كيان أصيل .

مصر مثقلة من تاريخها بتجارب وتجارب .

وهؤلاء الغزاة لا يفتئون يحفزون ويبهرون .

ولكن . . بقدر ما كانت البلاد مشدودة إلى الوراء بقيودها الثقيلة كانت حركتها إلى الأمام مجرد اهتزازة ، كأنها تشحن كيانها بانفعالات الحاضر ، لتمضى إلى المستقبل .

---

(١) المقصود المماليك الذين كانوا فى العهد العثمانى .

كانت الحضارة العربية الإسلامية قد وصلت إلى درجة كبيرة من التدهور ، وبخاصة فى عهد قسم السلطة فى البلاد بين ثلاث قوى : قوة الوالى التركى، وقوة الجند المحتلين ، وقوة البكوات المماليك : ولم يكن استقرار لأى من القوى الثلاث ، ومن ثم حرصت على تحقيق أكبر قدر من المكاسب ،مشروعة وغير مشروعة ، متخذة من قوة السيف والاستغلال الغاشم سبيلا إلى أقوات الشعب ، واستنزاف دمه ، وتمزيق كيانه . .

وفى حرص على الأموال والأنفس والحرمات أهملت شئون الزراعة والصناعة والتجارة، وانصرف الناس عن التعليم ، فتهدمت المدارس ، وانحصرت الثقافة بين جدران الازهر فى فرائض دينية ، مشفوعة بتحقير الدنيا والترغيب فى الآخرة،وفى متون مثقلة بحواش وتعليقات وشروح ، وفى معرفة للغة سبيلا إلى فهم النصوص الدينية وكان القول بتحريم العلوم التى تخدم الحياة كالرياضيات وتقويم البلدان والتاريخ والفلسفة ، وترتب على هذا وقف الحياة الادبية وعدم القدرة على التعبير عن خلجات النفوس وإرادة الحياة ، بما يشوق أو يثير، حتى فشت العامية فيما ألف وقتذاك من كتب التاريخ ، كما أصبح الجمود والتقليد فكريا ولفظيا وخياليا آفة ما كتب بعامة :

ولما عرضت الحملة الفرنسية من قدراتها العسكرية والعلمية والفنية إذ اصطحبت معها مجموعة من العلماء والفنانين .: من الأطباء والكيمائيين والفلكيين والجغرافيين والمتخصصين فى الأدب والاقتصاد السياسى والآثار والمعادن وطبقات الأرض والحيوان والنبات ، ومن المستشرقين والمترجمين والطباعين والمصورين والرسامين والمثالين والموسيقيين والممثلين، وبلغ عدد كل هؤلاء مائة وستة وأربعين عالما وخبيرا فنيا ، وكانت طباعة وصحافة ومسرح وتصوير ومعامل وأبحاث فى التربة والمناخ والمساحة والتخطيط والآثار — شعر المصريون بالحضارة الغربية فى شكل من أشكال التحدى لما هم عليه من تخلف كبير ، ، فبان لهم هوان ما كانوا عليه تحت إسار رجال

مالبثوا أن فاتوهم إلى سلطان جديد ، وولوا الأدبار ، وانكشف لهم واقعهم المرير ، وقد وقفوا وحدهم بصدور عارية فى طريق غزاة يملكون من وسائل القتل والتخريب ماليس فى حساب .. لكنهم أحسوا بطاقتهم على البذل والصمود ، وأصبح من الطبيعى البحث عن وسيلة الإثبات وجود حضارى — فى مواجهة هذا الطارىء الجديد — ليحتفظ الشعب بكيانه ، فلا يذوب ولايضيع ..

وكان لنا من تراثنا العربى والإسلامى فى عصره الزاهر مايحيى مواتا ، ويبعث أملا ، ذلك أن هذا التراث هو الذى شحذ قوى هؤلاء الغزاة ، ومكن لهم بما يملكون اليوم من عوامل التفوق ، وماعلينا إلا أن نأخذ بهذه الأسباب ونبدأ من جديد ..

(٢)

لكن مصر لم تلبث أن أعطت مقاليدها داهية جديدا ، أطمعته خصوبة الأرض ، وبساطة الرجال ..

واستطاع أن يستفيد من وجود الفرنسيين فى مصر ، فتطلع إلى جيش قوى يشده ، ويمكن له .. جيش عماده الفنون والخبرات التى يتمتع بها هذا الجيش الفرنسى . .

ومن ثم أنشأ الكليات والمدارس العسكرية والعلمية التى تخدم الجيش القوى ، واستقدم الخبراء والمعلمين ، وأرسل البعثات إلى الخارج ، وغير فى نظم التعليم بالمدارس التى تزود هذه الكليات بطلابها ، واهتم بالصناعة والزراعة ليوفر لجيشه السلاح والمئونة ..

وعادت البعثات من الخارج تمثل خبراء متخصصين فى الطب والصيدلة والرياضة والعلوم الحضارية المختلفة .

وأنشئت مدرسة الألسن لتزويد البلاد باحتياجاتها من المترجمين المهرة الذين زودوا اللغة بمصطلحات علمية جديدة فى مؤلفات ومترجمات طبية وزراعية وطبيعية ورياضية وفى التقويم والمقاييس والفلك . . وفتحت نوافذ مصرية عديدة على آفاق الغرب المشرقة بنور العلوم والمدنية .

لكن الأزهر ظل على حاله ، لايكاد يطل على هذه الحركة الناهضة إلا بعيون أجهدها النعاس ، ورءوس آدها ثقل العمائم .

وكان الظن به أن يظل فى تولى الزعامة الروحية والسياسية بعيون بصيرة ، وعقول متفتحة ، فيرعى هذه الحركة الناشئة ، يزودها بامكانياته العلمية والأدبية ، ويسدد خطاها بوسائله الدينية ، ويستفيد من حيويتها ونشاطها .. لكنه بتسلط بعض رجاله — استعدى عادات الشعب وتقاليده البالية على محاولات البعث والحياة ، وإتخذ جمود نصوصه سوط عذاب فى وجه من تسول له نفسه أن يحطم قيدا ، أو يقول جديدا ، أو يخرج على ما ألف رجاله من صور الحياة . .

وكان أن اتخذه الحاكمون وسيلة قهر وإعنات .

ومالبثت سحائب الغرب أن ملأت سماءنا من جديد .. تحمل من مظاهر التحدى والإغراء مامزق نفوسنابالوهم والأمل ، والخوف والرغبة ..

كانت تجربة قاسية مر بها هذا الشعب الطيب الصابر القانع المستسلم لقضاء الله وقدره .. فشتت به (محمد على) قدرات العرب ، وحطمه فى حرب المورة .. وخرب (عباس) دوره ومعاهده العلمية .. ورهن (سعيد) قوته وشبابه بارادة (سمسار) عالمى .. وجاء (إسماعيل) فعلل وجوده بأحلام طائشة ، ووضع اقتصاده فى (صندوق الدين) .. وباع (توفيق) ميراثه قيداً لتجار الشعوب ..

وانتابنا صراع حاد .

هذا هو الغرب يجلب علينا بخيله ورجله . فهل نتعلم علمه ، ونهتدى بهديه ليكون سبيلنا إلى الخلاص منه ؟

أو يغزو علم الغرب نفوسنا ويقتل معنوياتنا ، فلا نملك إلا أن نسير من خلفه ، ننقل عنه ، ونردد ألفاظه ، ونتعثر فى خطاه ؟

هل نقلب فيما بين أيدينا من تراث .. نتعرف أسباب قوة آبائنا وأجدادنا تجلو صدأ طارئا على جوهرنا ، نعمق وجودنا بقيمنا الروحية ومثلنا التاريخية نروى غرسا جفت أوراقه ، ونقيم بناء تصدعت جدرانه . ويكون منطلقنا من حيث انتهى آباؤنا ، فتكون لنا ركيزة ذاتية أصيلة ، وندعم بناء نملكه فى أرض نملكها ، وننتفع بغرس زرعناه ، وثمار طعمناها ، وجرت فى عروقنا دما وحياة وانتشاء ؟

أو نصبح مثل حفارى القبور . نتاجر بالعظام النخرة ، وندور فى حلقة مفرغة ، فلا نحن تنورنا الحياة ، وتنفسنا عبير الأرض والسماء . ولا نحن وجدنا الكنز ، وقد امتصته عروق الأرض ، لم تترك بقايا ؟

* * *

وزاد من حدة الصراع أن الغرب أطل علينا بنظرة مستعلية ، فلم يتعرف إلينا عن قرب .. ولم يقس إمكانياتنا إلا بمقياس الغالب ، ففرض علينا بضاعته ، وأخذ منا ولم يدفع شيئا ..

كانت حالة الضعف السياسى ، وقد ساق إليها خيانة حاكم ، وممالأة عملاء ، وعدم خبرة ثائرين بوسائل الخداع والكيد والاستهواء ، وثقة شعبية ضائعة بين هؤلاء .

أخذ طائفة من مفكرى الغرب باطلالتهم الأولى على واقعنا ، فربطوا بين ضعفنا السياسى ومقومات وجودنا العربى الإسلامى ، وراقهم أن يتخذوا من هذا الضعف سبيلا إلى الطعن فى العروبة والإسلام .

ونحن بدورنا لم نستطع التمييز بين ثقافة المستعمر ووجوده . فما دام المستعمر استذل بلادنا ، واستغلها ، واستهان بثقافتها وعقائدها ، وأصبح كريها ممقوتا ، فقد صار كل مايتصل بهذا المستعمر عند الغالبية من الشعب كريها ممقوتا كذلك .

وماجت البلاد بتيارات فكرية مختلفة . . تمكن من بعضها الجمود والطيش ، ولعبت بها أصابع الاستعمار فى حذق ومهارة .

فبينما نجد (على مبارك) يدعو إلى تدريس طرق التعليم والعلوم الحديثة[1] . و (عبد الله فكرى) يقترح إنشاء جمعية علمية (تتركب من جهابذة ذوى خبرة وبصيرة ، ومعرفة بقدر الوطن ومحبته ، وحق خدمته ، يعرض عليها كل أحد تأليفه ، فان وجدته حسناً مقبولا قرظته وأذنت بنشره ، وإن كان على خلاف ذلك منعته ، وبينت له وجه فساده وخطأ اجتهاده) ، ويدعو إلى (تأليف المجامع اللغوية للقيام بمهمة وضع ألفاظ عربية جديدة لمستحدثات العلوم مما لم يكن فى ذخيرة المعاجم العربية ، لأنه لم يكن من استعمال العرب ولا مما ألفوه)[2] .. والشيخ (حسن توفيق العدل) يدعو إلى دراسة الأدب على طريقة الفرنجة بدار العلوم .. و (شبلى شميل) يتحدث عن (دارون) ونظرية النشوء والارتقاء . و (فرح أنطون) يتكلم فى الاشتراكية والشيوعية — بينما نجد ذلك إذا الشيخ (عليش) وشيعته من (حملة العمائم وسكنة العباعب) يثورون على السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى لأنه كتب مقالا فى الفقه تناول فيه الاجتهاد والتقليد وذهب إلى ما ذهب إليه أئمة المسلمين ، وقال فى مقال آخر عن الصوفية بأنه مذهب لم ينتفع به الإسلام ، بل قد يكون مما رزىء به ، وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله ، فاتهموه بالمروق من الدين ، والإتيان بالإفك المبين ، ورفعوا أمره إلى الوالى فقبض عليه وألقاه فى السجن .

وحين كتب الشيخ السنوسى — والد صاحب الجغبوب كتابا فى أصول الفقه ، زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء فى كتابه ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى

---

(١) ص ١٣٣ بناة النهضة العربية لجورجى زيدان — كتاب الهلال .

(٢) ص ٢١٣ عبد الله فكرى لمحمد عبد الغنى حسن — أعلام العرب .

مايخالف رأى مجتهد أو مجتهدين — إذا الشيخ عليش يحمل حربة ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين .

وكان هذا الشيخ نفسه ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمدعبده طريقتهما فى تحقيق المسائل الشرعية مع أنها لاتبعد عما أخذ به السلف . وقدكتب بعض شيعة هذا الشيخ المقالات (الطويلة الأذيال الواسعة الأردان) فى استهجان إدخال علم تقويم البلدان بين العلوم التى يتلقاها طلبة الأزهر، معرضين بالشيخ محمد عبده الذى أشار به .

ويعلق الأستاذ الامام على جمود هؤلاء بقوله :

(ألا يتخيل المتأمل أنه يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا وضوضاء وجلبة وهيعات مضطربة، إذا قيل أنه ينبغى لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفا من مبادئ الطبيعية أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعى) ألا تقوم قيامة المثقفين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله المساكين ؟ [١]) .

ويحدث الدكتور محمد حسين هيكل عن أثر اتهام الشيخ محمد عبده وتلاميذه بالإلحاد والكفر والزندقة فى نفوس شباب المسلمين المتعلمين ، بأنهم شعروا(بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق فى نظر جماعة من علماء المسلمين ، وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد ، كما أن الإيمان قرين الجمود ، لذلك جزعت نفوسهم ، وانصرفوا يقرءون كتب الغرب ، يتلمسون فيها الحقيقة، افتناعا منهم بأنهم لم يجدوها فى كتب المسلمين ، وهم لم يفكروا فى كتب المسيحية والتاريخ المسيحى بطبيعة الحال ، إنما فزعوا إلى كتب الفلسفة يتلمسون فى أسلوبها العلمى رى مافى نفوسهم من ظمأ محرق للحق، وفى منطقها ضياء للجذوة المقدسة الكمينة فى النفس الإنسانية، ووسيلة إلى الاتصال بالكون وحقيقته العليا ، وهم واجدون فى كتب الغرب سواء منها كتب الفلسفة وكتب الأدب نفسه، الشئ الكثير مما يغرى الإنسان

---

(١) ص١٣٥ — ١٣٨ الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ط ٧ سنة ١٣٦٧هـ .

بالأخذ به لروعة أسلوبها ودقة منطقها، ومايظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق. . لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير فى الأديان كلها، وفى الرسالة الاسلامية وصاحبها ، حرصا منهم على ألا تثور بينهم وبين الجمود حرب لاثقة لهم بالانتصار فيها ، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحى بين الانسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع به الانسان إلى أرقى مراتب الكمال، وتتضاعف به قوته المعنوية)[1] .

* * *

وتردد سؤال عما إذا كانت ثقافتنا التقليدية تحمل فى طياتها ركيزة العلم والصناعة التى غلب بها المستعمر ؟

وكان لابد أن يختلف الجواب تبعا لاختلاف المنابع الثقافية والأهواء السياسية. فبينما تمسك البعض بالتراث ليضمن مقومات الشخصية العربية المصرية المتميزة ، إذا بآخرين همهم اللحاق بركب الحضارة العصرية ، والأخذ بثقافة الغرب ، التى هى سبيل العلم والصناعة ، وأسلوب الغالبين ..

وتزعم الأفغانى ومحمد عبده وتلاميذهما الدعوة إلى الأخذ بالتراث قاعدة بناء ، فهذا التراث هو الذى أمد الغربيين بوسائل انطلاقهم ، ونحن لم نؤخذ من جانب التراث ، وإنما أخذنا من تهاوننا وضعفنا وجمودنا . .

وحمل راية الثقافة الغربية المهاجرون الشوام الذين سيطروا على كثير من الصحف والمجلات ، ولم يحسوا واقعنا ، ودانوا بدين الغرب ، فاندفعوا لتقديم الثقافة الأوربية دون روية وفهم لاحتياجاتنا، حتى تطرف بعضهم فقدم للبيئة أفكارا غريبة عليها ، لم تثمر إلا ثمارا فجة مريرة ، ولولا ماتمتع به الأفغانى ورفاقه من حكمة وسعة معرفة وعمق إدراك لطاشت السهام ، ولم تتكسر النصال على النصال ، بل تكسرت بها رؤس كثيرة ، وتمزقت أمة .

---

(١) ص ١٥ حياة محمد ط ٣ سنة ١٩٣٨ دار الكتب المصرية .

(٣)

كتب الدكتور شبلى شميل داعيا بدعوة (داروين) ،مترجما (أصل الأنواع) ، متخذا مذهب الطبيعيين مذهبا ، فكتب السيد – جمال الدين الأفغانى :

(الدكتور شميل له فى نشر مذهب داروين، وتحمله أعباء المكفرين له – عن غير علم وتحقيق – ما يعد لشميل فضل . . ولكن لا أرى الدكتور شبلى قد تخلص – مع[1] جرأته الأدبية وبعض رسوخه فى الفلسفة – من وصمة التقليد الأعمى لعلماء الغرب ، وبمعنى أوضح ، إنه أراد أن ينتصر لداروين ، وأن ينشر مذهبه رغم أهل الأديان،وفى ذات الوقت عارض أستاذه ، وصاحب المذهب المنتصر له) .

(وبالاختصار .. إن كل ماجاء فى مذهب الطبيعيين من حصر الأحياء بأنواع قليلة، وتفرع الكثير منها،وعنها كل هذا لايضر التسليم به،كما أنه لايفيدهم أن الحياة وظهور الأحياء نتيجة طبيعية لقوى طبيعية ، نعم إذا أمكنهم إثبات التولد الذاتى ، كان لأقوالهم معنى ، ولمذهبهم مستند) ..

(أما الانتخاب الطبيعى فهو فى جيل البداوة وفى حضارة الإسلام أمر معروف ومعمول به ، سواء أكان فى انتخاب الزوجات، من النساء النجيبات من الأمهات ، فيخطبون بناتهن ، وفى ذلك أقوال مأثورة كالقول (خذ لابنك خالا) أى : وجة يكون لها من الصفات الطيبة وحسن الخلق والمزايا لإخوتها ، حتى إذا جاء الولد يكون فيه من الوراثة عن طريق أمه مايشبه أخواله من موحيات الفخر ، وكذلك عن طريق الأب ، فيشبه الأعمام فيفتخر أو يمتدح ، فيقال : فلان معم مخول . .أوفى تحسين نسل الخيل[2] .

---

(١) فى الاصل (من) .

(٢) ص ٢٥١ – ٢٥٣ الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى –محمد عمارة – دار الكاتب العربى . .

لهجة هادئة غير تلك التي نجدها فى (رسالة الرد على الدهريين) الذين اتخذوا من آراء داروين دليلا على صحة ما ذهبوا إليه .. فقد كان عنيفا بالغ العنف فى هجومه على النيشرية) إذ رأى أن (مقصد أرباب هذه الطريقة) محو الأديان ، ووضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال والأبضاع بين الناس عامة)،ومن أجل هذا كانت (جرثومة الفساد وأرومة الأداد [1] وخراب البلاد ، وبها هلاك العباد)، ولا صلاح للبشرية إلا بالدين ..

ثم بين مافى الدين الإسلامى من تعاليم سامية ترقى بالفرد والجماعة[2] ..

« وبمقارنة سريعة بين الأسلوبين نتبين الحرص الشديد على أن تتوحد الجماعة ، فلايجد المستعمر سبيلا إلى الفرقة التى هى أسلوبه لتدعيم سيادته .. »

وهذا الأسلوب الهادئ فى المناقشة — مع خطورة الموضوعات التى كانت تثار — يبين لنا وعى الافغانى وتلاميذه للدور الذى يلعبه الاستعمار ومن نهجوا نهجه ..

* * *

ألقى المستشرق الفرنسى أرنست رينان فى جامعة السوربون محاضرة تناولت ثلاث نقاط :

(١) أن الإسلام لايشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ..

(٢) خطأ المؤرخين فى قبولهم (علوم العرب ، وفنون العرب ، وتمدن العرب ، وفلسفة العرب) ، مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجا للأمة العربية ..

(٣) ان العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها .

---

(١) جمع أد وأدة الداهية والمنكر ..

(٢) ص ١٢٨/١٢٩ ، ١٣١/١٤١ ، ١٥٢/١٦٧ ، ١٧٩ الأعمال الكاملة ...

• فرد الأفغانى بأنه :

لاريب فى أن قصر الوقت المخصص للمسيورينان قد حال دون جلائه هذه النقطة ، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد كما أعلم ، وهم عاكفون على محاربة مايسمونه بالتدليس والضلال (يعنى العلم والفلسفة) . :

أما أن (الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة . فالكل يعلم أن الشعب العربى خرج من حال الهمجية التى كان عليها ، وأخذ يسير فى طريق التقدم الذهنى والعلمى ، ويغذ السير بسرعة لاتعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن فى خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية ، فتقدمت العلوم تقدما مدهشا بين العرب ، وفى كل البلدان التى خضعت لسيادتهم . . صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم ، كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ، ووضحوها ونسقوها تنسيقا منطقيا ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق ، وتنطوى على التثبت والدقة النادرين) :

ثم ضرب أمثلة بأبى بكر بن بشرون مكتشف الجاذبية والمركز قبل (نيوتن) ، كما اكتشف الفسفور واستحضره من (الأدرار) ، واستحضر الأوكسيجين من حجر المغنيسيا وكذلك الأيدروجين . . وجابر بن حيان اكتشف حامض الأزوت ، وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى اكتشف حامض الكبريت : الخ

أما أن (أكثر الفلاسفة الذين شهرتهم القرون الأولى للاسلام كانوا كتابيهى السياسيين من أصل حرانى أو أندلسى أو فارسى أو من نصارى الشام — فأرجو — أن يسمح لى أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عربا ، وأن اللغة العربية كانت إلى ماقبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهى الصابئة ، ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية

العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا غسانيين اهتدوا بهدى النصرانية أما ابن ماجة وابن رشد وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب ، وخصوصا إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها[1] .

وحين عرض الأستاذ الإمام للرد على (رينان) اتخذ مما أثاره قضية عامة للجمود والتقليد .. تاريخه وأسبابه ، ومفاسده ونتائجه ، وجنايته على العقيدة ، ووجوده فى المدارس النظامية والأهلية والأجنبية ...

وبدأ كلامه بالحكم على ماقال (المسيو رينان الفيلسوف الفرنسى المشهور) بأنه (كلام فيه شية من الحق ولمعة من الصدق)[2] . ومضى فى طريقه دون أدنى إشارة إلى طبيعة الاتهامات الخبيثة التى أوردها هذا الفيلسوف الشهير ..

ونشر (هانوتو) مقالا فى جريدة الجرنال الفرنسية وازن فيه بين المسيحيين والمسلمين والآريين والساميين ليخرج بتفضيل الأولين على الآخرين . . فتصدى له الأستاذ الإمام مفندا ماذهب إليه ، داعيا المسلمين (إلى النظر فى عيوبهم ، والبحث عن الأسباب التى أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم ، وعمت ملوكهم وحكامهم وسوقتهم ودهماءهم ، والجمع بين بيان أسباب الفساد وبيان المخرج منها)[3] ..

وكان أن رجع مسيو هانوتو (إلى موضوع البحث بلسان غير الذى كان ينطق به ، ورأى غير الذى كان يصدر عنه) وكان مما قاله أخيرا سنة ١٩٠٢ (إننا مدينون لهم بالعدل والسلم ، كما أننا مدينون لهم بالتساهل الدينى) ومن (الواجب أن ندرس هذا الدين ، ونبذل جهدنا فى فهمه ، وعلينا أن نتخذ

---

(١) ص ٢٠٨ — ٢١٨ — ٢٠٩ الأعمال الكاملة .

(٢) ص ١٤٢ الاسلام والنصرانية .

(٣) ص ٧٩٩ تاريخ الأستاذ الإمام حـ ١ محمد رشيد رضا .

الكلمة الإسلامية « لا إكراه فى الدين » شعارا لانخرج عن حدود معناها، وأن نحترم الدين الإسلامى ونحميه من كل طارىء سوء) [١]

ومع هذا فقد ترجم (فرح أنطون) لابن رشد الفيلسوف العربى فى مجلته (الجامعة) وقال :

١ — إن الدين المسيحى يتسامح مع العلم وأهله دون الدين الإسلامى، بدليل أن (فولتير وديدرو وروسوورينان قالوا فيما يضاد الدين ماقالوا ولم يصابوا بضرر ، وابن رشد لم يقل شيئا سوى أنه قرر ما قال أرسطو وأوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ، ومع ذلك أهين وبصق على وجهه) ..

٢ — وأن (الحروب والفتن قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية) . .

٣ — واستطرد إلى أن (السلطة الدنيوية فى الإسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع ، لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معا ، وبناء على هذا فإن التسامح يكون فى هذه الطريقة أصعب منه فى الطريقة المسيحية) . . تجعل (ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله) . .

٤ — وأضاف (إن العلم والفلسفة قد تمكنا إلى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحى .. ولذلك نما غرسهما فى تربة أوربا وأينع ،وأثمر التمدن الحديث . ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الإسلامى ، وفى ذلك دليل واضح على أن النصرانية أكثر تسامحا) [٢]

ورد الأستاذ الإمام (إجماليا) بما هو جار من اضطهاد فى أسبانيا لغير المسيحيين ، ومن سماحة فى مصر مع المسيحيين واليهود ، فى التعليم والصحافة والجوار والذبائح والزواج ، مع مالهم من تعصب فى التعليم والصحافة والتعامل .

---

(١) ص ٢١٢ — ٢١٤ الاسلام والنصرانية .

(٢) ص ١٠ — ١١ المصدر السابق .

ونفى الادعاء بأنه كان قتال بين المسلمين لأجل الاعتقاد ، فما جرى بين طوائف المسلمين إنما كان لأسباب سياسية ، على حين إذا (أوردنا من حروب الطوائف المسيحة بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها) استغرق (أجزاء الجامعة بقية هذه السنة إذا أوجزنا ما استطعنا) .. وأشار إلى ما كان بين الأرثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين ، وما كان بين الكاثوليك والبروتستانت (فلتراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عندما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أما)[1] .

ثم تحدث عن تساهل المسلمين مع أهل العلم مع النظر من كل ملة ، مستشهدا بقول (درابر) المؤرخ الفيلسوف الأمريكي (أن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ، ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين) .. وأتبع ذلك بذكر طائفة من الحكماء والعلماء غير المسلمين الذين حظوا عند الخلفاء .

وفصل القول فى طبيعة الدين المسيحى تفصيلا يقطع دابر هذه المحاولات المثيرة ، يرجع إليه من شاء ، ليتعرف طبيعة هذه المعارك التى أشعل نارها هؤلاء الذين اتخذوا من ضعف الأمة بعد كبوة سبيلا للنيل منها ، وتضليلها بمختلف الأفكار المجلوبة لهدف أو لآخر .

وحين ننظر فيما قاله الأفغانى ردا على دعاة الاشتراكية ، أو على محاربى فكرة الجامعة الاسلامية بفكرة القومية ، يتبين لنا سعة أفق هذا الداعية الإسلامى الكبير .. فهو لا يهاجم الاشتراكية ، ولا يهاجم القومية ، لأن (دعوى الاشتراكية ، وإن قل نصراؤها اليوم ، لابد أن تسود العالم ، يوم يعم فيه العلم الصحيح ، ويعرف الانسان أنه وأخاه من طين واحد ، أو نسخة واحدة ، وأن التفاضل إنما يكون بالأنفع من السعى للمجموع)[2] .

---

(١) ص ٤٢ — الإسلام والنصرانية .
(٢) ص ٤٢٣ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى .

ولأن (الأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان مالا يحتاج معه إلى دليل أو برهان[١]) : لكنه لاسبيل إلى الاشتراكية قبل أن تتحرر البلاد وتمسك مقاليدها بيدها ، ودعوى الجامعة لايلتبس بها (أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا : فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجوا أن يكون سلطان جميعهم القرآن : ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه[٢] .. والهدف من وراء ذلك تجميع الصفوف فى مواجهة السعار الغربى الذى اتخذ العلم وسيلة عسف وإذلال ، ووسيلة تمزيق وتوهين وتشكيك ..

* * *

فى عام ١٨٨٠م نشر الدكتور ولهلم سبيتا — مدير دار الكتب المصرية — كتابا بالألمانية فى (قواعد العربية العامة فى مصر) ادعى فيه أن مصير العربية الفصحى إلى الموت ، كما ماتت اللاتينية :

وفى عام ١٨٨١ م ظهرت مجلة المقتطف تدعو إلى كتابة العلوم بالعامية لغة الحديث .

وفى عام ١٨٨٩ م صدر قرار وزارى بأن تكون لغة التعليم فى المدارس المصرية هى اللغة الانجليزية :

وفى عام ١٨٩٣ م ادعى المهندس الانجليزى للرى المصرى (ويلكوكس) أن العربية الفصحى ولاشىء غيرها هى التى أماتت قوة الاختراع فينا ، ولا أمل فى إحيائها إلا إذا اتخذنا العامية لغة كتابة وتأليف ، واتخذ مجلة باسم (الأزهر) منبرا للدعوة إلى العامية وإماته الفصحى[٣] ..

---

(١) ص ٧٠ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى

(٢) ص ٣٤٥ المصدر السابق .

(٣) انظر فصل (العامية والفصحى) من كتاب (لغتنا والحياة) للدكتورة عائشة عبد الرحمن — معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٦٩ .

مؤامرة خبيثة ضدالعروبة والدين والتراث بعامة ،مهد لها الاستعماريون منذ أنشبوا أظفارهم فى جسم مصر ، عن طريق صندوق الدين ، ثم كان الاحتلال الإنجليزى ، وضغوطه العسكرية والسياسية والاقتصاية والثقافية .

ومع ذلك فإن دعاة الاشتراكية والقومية لم يتنبهوا إلى أن قوميتنا فى لغتنا التى تجمع وجودنا العربى وأن أى مذهب اقتصادى إنما نخدم به وجودنا القومى ، وأبوا إلا أن يضربوا فى هذه الطريق الاستعمارية ، فقال (شميل) (من أراد كسبا ماديا وعلميا ، فليتخذ لغة غير العربية ، أية لغة أجنبية ، إن كتبت بها راجت كتابتك وإن طلبت تحصيل علم فيها وجدت كتبا لاتحصى فى غاية الضبط والكمال امتلأت بها خزانتك ، منها كتب أجدادك قد تصفحها أضدادك ونقحوها وشرحوها وزادوا فيها ، ويسروها لك بثمن أرخص من الفجل . فاذا اشتبه عليك معناها وجدت ألوفا يكشفون لك غوامضها ، ويحلون لك عقدها ، نعم إن فى لغة الطفولة لذة ووطنية إلا أن الوطنية الحقة ، ودعنا من الكلام الفارغ ، قائمة فى المعانى لافى الألفاظ أعنى فى صيانة حقوق الأفراد وإحكام العدل والتسوية والالتفات إلى الأمة ولغتها وعدم إعطاء خبز بنيها لغيرهم ، فاذا فعلت هيئتنا ذلك هان علينا كل شيء ، وإلا فأنت تضرب فى حديد بارد ، وكانت الوطنية قولهم : ضرب زيد عمرا ، واشتعل الرأس شيبا)[1] . .

وطنية بلغة مستوردة ، على لسان رجل له (وزنه الثقافى ، ومكانته الأدبية) — كما تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن — دون أن يعى أننا بدون هذه اللغة نصبح أى شيء الا أن نكون عربا ، أى نفقد وجودنا المتميز كله . وماذا يريد المستعمر أكثر من هذا ؟ هذا المستعمر الذى مافتىء يوجه إلينا هجوما بعد آخر من علمائه وفلاسفته ، ليقضى على مقوماتنا الدينية والعربية ، حتى لاتقوم لنا بعد قائمة ...

---

(١) ص ١٤٨ لغتنا والحياة .

ومن عجب أن هذا الانتهاك لحرمة العروبة ظل يعمل فى الوسط الثقافى آنا بعد آخر ، حتى جرى على لسان عبد العزيز فهمى الوطنى والقانونى الشهير ينادى بكتابة العربية بحروف لاتينية ، أسوة بالأتراك ، كأن الأزمة فى الكتابة ، مما يمثل عمق الحيرة التى كان يتخبط فيها المثقفون ، فى محاولة النهوض بالبلاد ، أو فى محاولة لإضعاف قواها ...

* * *

وتهكم (داركور) سنة ١٨٩٣ م على المصريين ، متهما إياهم بالتأخر بسبب حجب النساء عن موارد العلم وميادين الحياة ، ولما كان قد ربط ذلك بالعقيدة الإسلامية — شأن غيره من المتهجمين — فقد تصدى له (قاسم أمين) فى كتابه (المصريون) سنة ١٨٩٤ م ، وفند آراءه ، ودافع عن وطنه وأهله ، معترفا بعيوب ليس مرجعها الاسلام فى شىء ، وإنما هى بسبب الحكم الفاسد الذى أصاب البلاد زمنا طويلا ..

وكانت قضية (السفور والحجاب) التى شغلت الرأى العام أمدا طويلا وتشكلت باسمها جمعيات ، وصدرت صحف ..

يقول السيد الأفغانى :

(عندى لامانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور ..

ولاأظن أن ضجيج بعض الناشئة فى الشرق ، والمتفرنجين منهم ، يقصدون بطلبهم مساواة المرأة مع الرجل فى (التكوين) ، وذلك لأنه ممتنع ، بل مستحيل .

أما عمل المرأة وواجباتها فى بيتها ونحو زوجها ، فأهم بكثير من صناعات الرجل ، مهما دقت وعظمت ، وجل نفعها ، وإن أكبر فاضلة من النساء إذا هى قامت ببعض واجبات المنزل وتدبيره وحسن تربية الطفل ، تكون قد رجحت على أكبر الرجال علما وعملا)[1] ..

---

(١) ص ٥٢٤ — ٥٢٩ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى .

وكأنى بالأفغانى يريد أن يجبه بعض دواعى الانحلال فى الأمة ، فسخر من دعوى السفور ، وإن كان لم يعارض التعليم الذى يؤهل المرأة للدور الأساسى فى المجتمع ، وهو تربية الأجيال ، وتكوين الأسرات ..

وتناول من بعده قاسم أمين هذه القضية بالعرض والتحليل ومناقشة المتطرفين فى الجمود والتحرر ، بكتابيه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) مبينا (سبق المشرع الاسلامى كل شريعة سواه فى تقريره مساواة المرأة للرجل. فأعلن حريتها واستقلالها يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند جميع الأمم، وخولها كل حقوق الإنسان ، واعتبر لها كفاءة شرعية لاتنقص عن كفاءة الرجل فى جميع الأحوال المدنية .. الخ .. الخ[1] ...

* * *

من خلال مامر من قضايا يتبين لنا الدور الذى نهض به السيد الأفغانى وتلاميذه من أجل وحدة الأمة الاسلامية بعامة ، والمصريين بخاصة ، فى مواجهة هذه الحملات المسمومة باسم العلم والمدنية تارة ، وباسم الوطنية والقومية والاشتراكية أخرى ، مدعمة بقوى عسكرية وسياسية وثقافية ، وبعملاء وسماسرة من الداخل والخارج ..فى وقت كانت البلاد فيه لاتمر بمحنة إلا وتصطدم بأخرى ..

جثم جيش الاحتلال على صدر البلاد ، يملأ المدن ، ويحتل القرى ، وزج بالعرابيين فى المنافى والسجون والمقابر .. وجمدت الدول الأوربية إزاء (المسألة المصرية) ، وتركت انجلترا تعبث ماشاءت بحقوق المصريين فرمت بالجيش المصرى فى وجه السودان ، لتمزق الروابط بين أبناء وادى النيل ، ولتقضى على بقية من رمق ، تمهيدا لإلغاء هذا الجيش .. وتألف جيش جديد هزيل قائده وكبار ضباطه من الإنجليز ، وخضعت الحكومة لأوامر القنصل البريطانى العام . وشهدت البلاد استسلام حكامها لإرادة العميد البريطانى لورد كرومر ، يتقربون إليه ، ويلتمسون رضاه ..

---

(١) ص ١٢ وما بعدها = تحرير المرأة ط ٣ .

وكان التعليم – وهو مرآة حالة البلاد – كما صورة الأستاذ الإمام (من المستحيل أن ينهض باعداد عالم أو كاتب أو فيلسوف ، فضلا عن إعداد نابغة ، وكل مالدينا من المدارس التى تمثل التعليم العالى فى مصر إنما هى مدرسة الحقوق والطب والهندسة ، وأما بقية الفروع التى يتألف منها العلم الإنسانى فقدينالالمصرى منها أحيانا صوراً سطحية فىالمدارس الاعدادية[1] ويكاد يكون من المستحيل أن يتقن منها شيئا ، وهو فى الغالب مكره على أن يجهلها جهلاتاما ، ذلك شأن علم الاجتماع وفروعه ، كالتاريخ والأخلاق والاقتصاد، وذلك شأن الفلسفة القديمة والحديثة والآداب العربية والأوربية والفنون الجميلة أيضا ، كل ذلك مجهول لايدرس فى مدرسة مصرية . .

ونتيجة ذلك أن فى مصر قضاة ومحامين وأطباء ومهندسين ، تتفاوت كفاياتهم فى ممارسة مهنهم ، ولكنك لاتجد فى الطبقة المتعلمة الرجل الباحث ، ولاالمفكر ، ولاالفيلسوف ، ولاالعالم ، ولاترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية والشعور الكريم، ذاك الذى يرى حياته كلها فى مثل أعلى يطمع فيه ويسمو إليه ..

والخلاصة أن الخطة التى رسمتها الحكومة ، والتى يبدو أنها مصممة على ألا تحيد عنها ، هى تشجيع التعليم المحصور فى المدارس الصغيرة التى تسمى (كتاتيب) ، حيث يتعلم الأولاد الكتابة والقراءة وقواعد الحساب الأربع ، ثم شدة التضييق فى نشر التعليم الثانوى والعالى)[2] ..

بل لم تقف عند هذا الحد ، فغيرت فى المناهج التعليمية ، وسممت منابع العلم ، وفرضت الانجليزية وآدابها فى المكان الأول ، وأفسحت المجال أمام المدارس الأجنبية : الفرير والليسيه والجزويت وسان مارك وفكتوريا والأمريكان واليونانية و.. و.. مما يخضع لعشرات الأجهزة التبشيرية النشطة : فرنسية وانجليزية وإيطالية ،ولكنها ترمى إلى هدف واحد هو تمزيق الكيان ،

(١) تقابل المدارس الثانوية اليوم .

(٢) ص ٢٨٩ – ٢٩٠ رائد الفكر المصرى – دكتور عثمان أمين ط ٢ سنة ١٩٦٥ – الإنجلو المصرية (عن وصية سياسية لمحمد عبده) . . . . .

وتزييف الصورة ، وخلق وجود ذليل مستسلم ، يستمد وجوده من وجود جلاديه ..

وهذه هى (المسألة) التى شغلت بال الفئة المؤمنة الواعية التى تزعمها جمال الدين ، وعبرت عن أهدافها مجلة (العروة الوثقى) ، متمثلة فى :

١ — خدمة الشرقيين على مافى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك مافات ، والاحتراس من غوائل ماهو آت .

٢ — البحث فى أصول الأسباب ومناشىء العلل التى قصرت بهم ، إلى جانب التفريط والبواعث التى دفعت إلى مهامه حيرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب ..

٣ — كشف الغطاء عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وإزاحة الوساوس التى أخذت بعقول المنعمين ، حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم .

٤ — إشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم .

٥ — الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ..

٦ — التنبيه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية ..

٧ — التنقيب عن المسالك الدقيقة التى يسرى بها الطامعون فى دياجر الغفلات ، والاهتمام بما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التى يوجهها إليهم من لاخبرة له بحالهم ، ولا وقوف له على حقائق أمورهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لايتقدمون إلى المدنية ما داموا على أصولهم التى فاز بها آباؤهم الأولون .

٨ — تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة فى أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينها والسياسات القويمة التى لاتميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين [١].

* * *

لكن جهود (جمال الدين) وتلاميذه لم تقف عند إيقاظ النائمين، وتنبيه الغافلين بالخطبة والمقال ..

فقد أخذ الزعيم الإسلامى الثائر يدرس لتلاميذه طائفة من الكتب العربية القديمة والكتب الأوربية المصرية، فى الفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع، فكان ذلك فتحا جديد فى موضوعات التعليم [٢].

واشترك فى تشكيل الحزب الوطنى — جمعية حلوان — (مطالبا للمصريين بحقهم فى إصلاح أخلاقى، وحقهم فى التعليم وفى حياة سياسية حرة، وحقهم فى أن يساهموا فى حكم البلاد فى ظل نظام دستورى برلمانى ..

وماكان الحزب يريده من إصلاحات إدارية هى بعينها مايزهو لورد كرومر اليوم بأنها إصلاحات إنجليزية، وهى تحرير الفلاح من عبودية للباشوات والأتراك، وإلغاء السخرة، وتطهير العدالة، والاقتصاد فى المالية، والتعليم العام الحديث، وفقا لمبادئ حرية الفكر والمساواة أمام القانون والإخاء فى العبادات) [٣] ..

واتصل بزعماء الثورة العرابية — والثورة لاتزال فى نفوسهم بذور سخط على نظام الترقيات فى الجيش — فملأ نفوسهم ثقة وإيمانا، وألهب مشاعرهم، وزودهم بالكثير من تجاربه.

---

(١) ص ٥٣٣ — ٥٣٤ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى وص ٢٩٦ — ٢٩٧ من تاريخ الأستاذ الإمام.

(٢) ص ٣٩ رائد الفكر المصرى.

(٣) ص ٢١٩ المصدر السابق (عن ولفرد بلنت).

وشجع جماعة(مصر الفتاة)التى كان أكثر أعضائها من الأجانب على تقديم (لائحة إلى الخديو فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار) كما شجع جريدة (مصر الفتاة) التى (كانت تنشر فصولا حادة الانتقاد وشديدة الموعظة)[١] ، كما شمل برعايته جريدتى (مصر) و (التجارة) اللتين كان يتولى تحريرهما النديم وأديب إسحق وسليم النقاش ..

وضرب المثل الأعلى فى مواجهة القياصرة والمستبدين بحقوق الشعوب[٢].

والأستاذ الإمام وقف من الثورة العرابية موقفا منتصرا واعيا ، فقد نصح العرابيين بأن البلاد غير مهيأة للثورة وأن هذا العمل الذى سيقدمون عليه له مابعده من الأخطار :

(ليس من الحكمة أن تعطى الرعية مالم تستعد له ، فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بما له قبل بلوغه سن الرشد ، وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد[٣] .

ولكن بعدما قامت الثورة ، وأصبح الأمر هو الجد ، وقف خلف الثوار مؤيدا ومسددا ..

ولما كان مذهبه الإصلاح ابتداء من القاعدة ، فقد عمل على إصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة به ، ليكون مدرسة إسلامية قادرة على النهوض بالإسلام والمسلمين ، والأخذ بأسباب القوة ، وعلاج عوامل الضعف والخذلان التى تكالبت على الأمة الإسلامية ..وتحمل فى ذلك الاتهامات الباطلة من هنا وهناك ..

وعمل على إصلاح القضاء واشترك فى إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية (للتعاون على تربية أولاد الفقـــراء والمساكين من المسلمين ،

---

(١) ص ١٦٣ تاريخ الأستاذ الإمام .

(٢) انظر ص ٥٣ — ٤٧٥ — ٥٠٥ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى .

(٣) ص ١٤٧ جـ ١ تاريخ الأستاذ الإمام .

وإعانة العاجزين منهم عن الكسب على شقاء الحياة) وانتخب رئيسا لها سنة ١٣١٨ هـ فزاد اجتهاده فى خدمتها[1] .

وقعد للتدريس مفسرا القرآن على أساس (جامع لأصول العمران وسنة الاجتماع ، وموافق لمصلحة الناس فى كل زمان ومكان ، بانطباق عقائده على العقل و آدابه على الفطرة ، وأحكامه على درء المفاسد وحفظ المصالح ورسم منهجا اهتدى بهديه الكثيرون ..

ونشر الكواكبي (أبحاثا علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الأستبعاد) يقول عنها : (منها ما درسته ومنها ما اقتبسته ، غير قاصدبها ظالما بعينه ، ولاحكومة مخصصة ، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين عسى يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه ، فلا يعتبون على الأغيار ، ولاعلى الأقدار ، وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات)[2] ..

وحمل قاسم أمين راية الإصلاح الاجتماعى عن طريق تحرير المرأة وأشرف مع زميله سعد زغلول على إنشاء الجامعة الأهلية (لتحقق الوجود الفكرى للأمة ، وتحرر العقلية المصرية من أغلال الجمود ، وتكون مركزا للقيادة المعنوية ، فى مواجهة الاستعمار الذى ألقى بكل ثقله فى هذا الصراع ، وكانت الأمية العقلية والتصدع الثقافى والغزو الفكرى أسلحته الرهيبة فى المعركة)[3] ::

(٥)

شدت السياسية وجدان الجميع ::

وأدرك الذين وثقوا فى (فرنسا) — بعد اتفاقية فاشوده سنة ١٩٠٤ — أن سبيلنا إلى الغرب محفوف بالمكاره ، وأن صلاح حالنا لايتوفر إلا من أرضنا فى أرضنا ..

---

(١) ص ٧٢٦ — ٧٢٧ تاريخ الأستاذ الإمام ج١ .

(٢) من مقدمة (طبائع الاستبداد) طبعة سنة ١٣٢١ هـ .

(٣) ص ٦٨ من مقال (تطورنا الفكري بعد الثورة) للدكتورة عائشة عبد الرحمن جامعة عين شمس ١٩٦٣ م .

وقوى النزوع إلى (الإسلامية) و (القومية) و (الجلاء) فى (الحزب الوطنى) الذى شكله مصطفى كامل ، بل أصبح الشعار (الجلاء أولا) ؛ حتى يمكن لنا أن نتخلص من أى ضغوط خارجية ، خاصة بعد حادثة (دنشواى) سنة ١٩٠٦ ، التى عمقت سخط المعتدلين والمتطرفين على السواء .

وقوى النزوع إلى (القومية) و (الدستور) ، وترددت أصداء (الجلاء) فى وجدان (حزب الأمة) ، وأصبح الشعار (مصر للمصريين) :. وصدرت « الجريدة » (لتنصر الحق الذى خذله كثير من الكتاب لخدمة لأغراضهم الذاتية ، ولتبين للناس الحقيقة التى يجتهد أغلبهم فى سترها طمعا فى نعمة تتدلى إليهم أو تهيبا من قوة يتوهمونها ، أو جريا على عادة رسخت فيهم ، ولكن توضح أن هناك مصلحة يجب أن تضحى فى سبيلها كل المصالح ، ومقاما يلزم أن يكون أرفع المقامات وأقدسها ، وهى مصلحة الأمة ومقامها[1] .

وتوزعت الأمانى والمحاولات جهود المفكرين والمصلحين . . وبخاصة بعدما تبين أن (المسألة المصرية الحقيقية — كما يقول مصطفى كامل — ليست هى مسألة الاحتلال ، ولكنها مسألة تأخر الأمة المصرية ، واستحكام الشقاق بين أفرادها ، وما مسألة الاحتلال الانجليزى إلا مسألة فرعية بالنسبة لها ، فإن بقاء الأمة متأخرة منحلة الأعضاء يعرضها إلى كافة الأخطار فى سائر الأزمان ، وتقدمها فى طريق العرفان ، واتفاق بنيها على خدمتها ، وتعاضدهم على إسعادها — يحميها من الطوارىء والنوازل ، ويقيها شر الأعداء)[2] .

وهذا ماسبق أن نادى به محمد عبده ، الذى دعا إلى إصلاح أدواء الأمة أولا ، ولعن الساسة والسياسة : ؟

---

(١) عدد ٦ — ٤ سنة ١٩٠٧ من الجريدة .

(٢) ص ٦٦ مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى — كتاب الهلال .

ومن ثم أخذ تلاميذه يقلبون التربة ، وينقون البذور ، ويكسرون القشور الجافة ويزيلون الصدأ المتراكم عن دستور دينى قويم ، ومناهج إنسانية رحبة ، منتقلين بين إصلاح المجتمع من البدع والعادات والتقاليد الدخيلة ، وإصلاح اللسان من اللكنة والعجمة والقيود اللفظية التى غللت الأفكار ، وأرهقت الوجدان . .

فكانت محاولة لتخليص تفسير القرآن من أعباء الفكر اليهودى ، وتأويلات المعتزلة ، وغيبيات المتصوفة والباطنية ، ومماحكات اللغويين والبلاغيين . . وأن يكون تفسير القرآن بالقرآن ، على أساس من مدركات من نزل عليهم (هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان) ، فلا تفسير للظواهر الكونية بالآيات القرآنية ، ولا تبرير لجعل القرآن بين المراجع التاريخية[1] . .

واتسعت المحاولة لإيجاد حلول للمشكلات الجديدة من صميم التعاليم الدينية ، فأقامت الدليل على قدرة هذا الدين القويم على التطور ، وصلاحيته للزمان والمكان دون حدود . .

ونتيجة لهذا كله قويت الدعوة لإصلاح عقول رجال الدين من خلال إصلاح الأزهر ، وتزويد رجاله بالعلوم الحديثة ، وتقريب ما بينهم وبين خريجى المعاهد الأخرى ، بحيث لايتمزق المجتمع من خلال التمزق الفكرى بين هذه المعاهد . .

فكانت دار العلوم أول الطريق لإصهار الثقافة الموروثة إلى الثقافة المجلوبة ، منذ أن تنبه (على مبارك) إلى الازدواج فى الأنظمة التعليمية القائمة بين الأزهر من ناحية وبين المدارس المدنية من ناحية أخرى ، وتحت ضغوط الحاجة إلى مدرسين أكثر تطورا لتدريس اللغة العربية بالمدارس المدنية . .

---

(١) سيرد بيان ذلك عند الحديث عن منهج الأستاذ الخولى فى التفسير ص٩٨ ما بعدها.

وكانت مدرسة القضاء الشرعي على نفس الطريق (تجربة علمية تلتقي فيها الثقافتان القديمة والحديثة ، والشرقية والغربية ، التقاء معتدلا رزينا ، لاتجور فيه واحدة على صاحبتها ، ولا تنكر واحدة منها أختها [1]) .

(تجربة حديثة ، معتزمة أن تقدم المثل الشاهد العملي على الإصلاح الأزهري ، بعدما بدا أن الخطوة الأولى — دار العلوم — لم تعده العدوى الكافية ، ولم تثر انتباهه إلى نفسه إثارة دافعة إلى عمل إيجابي كبير . .

تجربة لاعتداد الشرق بنفسه ، شخصيته وثقافته ، يريد فيها الشرق ليجدد نفسه بنفسه ، مع اعتداده بذاته ، وانتباهه لواجب الدفاع الشخصي [2]

وتخرج في هذين المعهدين رجال عملوا في تحقيق التراث بمناهج (علوم الحديث (وعلوم النقد عند الغربيين ، ورجال اتخذوا من دراسة القديم وتذوقة سبيلا إلى الجديد في الدين والأدب ، وجهدوا في أن يدفعوا عن قديمنا غوائل المستشرقين وتلامذتهم من رجالنا الذين تعبدوا كل ماجاء من الغرب سكسونيا ولاتينيا . . وهذا لاينفي افتتان بعضهم بالمستشرقين ، وترويجهم لنزاعمهم ؟ ؟

وبقوة هذا الاتجاه الإصلاحي المنهجي — دينيا وأدبيا — الذي هو ثمرة من ثمار دعوة الافغاني ومحمد عبده ، والذي هو موقف دفاعي في مواجهة طارىء غريب أخذنا به سياسيا وعلميا ، أو هو تشبث عزيز قوم ذل بما بقي في يديه ، فأصبح كالمفلس الذي يقلب في أوراقة القديمة ، فإذا به يجد بين الخرق القديمة ما بهره من كنوز لاتحتاج في استعمالها والانتفاع بها إلا أن تصب في قوالب جديدة ، وتأخذ طابع العصر : :

بقوة هذا الاتجاه أخذ قاسم أمين طريقة إلى تحرير المرأة ، متخذا من تراثنا — وقد (سبق الشرع الإسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة

---

(١) جريدة المصرى ٢٨ — ٤ — ١٩٥٢ هل أدى الأزهر رسالته الاجتماعية للأستاذ الخولى .

(٢) الأديب — أبريل سنة ١٩٥٩ اتجاه التطور الأدبي للأستاذ الخولى . .

المرأة بالرجل) — سبيلا إلى التوفيق بين ماضينا وحاضرنا ، بل إلى اتخاذ أدواء عللنا الحاضرة من تقاليدنا العريقة التى غطت عليها عهود الاستبداد والجحود والبدع والجهالات ، إذ (لو كملت تربية النساء على مقتضى الدين وقواعد الأدب ، ووقف بالحجاب عند الحد المعروف فى أغلب المذاهب الاسلامية سقطت كل تلك الانتقادات ، وأمكن للأمة أن تنتفع بجميع أفرادها نساء ورجالا)[1] . .

وجرى فى علاجه — على ماذهب إليه الأستاذ الإمام فى إصلاح القضاء — من أن (الضرورة قاضية بأن يؤخذ فى الأحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعى تيسيرا على الناس ، ودفعا للضرر والفساد)[2] — فدعا (أهل النظر فى الشريعة الإسلامية والعارفين بأحكامها إلى مراعاة حاجات الأمة الإسلامية وضروراتها فيما يختص بالنساء ، وألا يقفوا عند تطبيق الأحكام عند قول إمام واحد ، إنما كان اجتهاده موافقا لمصلحة عصره ، وأن يدققوا البحث فيما تغير من الأحوال والشئون ، فإن وجدوا فى قول إمام ما تتعسر معه المحافظة على كرامة الشرع أقاموا مقامه قول إمام آخر يكون فى مذهبه مايسد الحاجة بدون خروج عن أصول الشريعة العامة)[3] . .

وبقوة هذا الاتجاه كتب جورجى زيدان عددا وافرا من القصص التاريخى الإسلامى ، كما كتب فى تاريخ التمدن الإسلامى ، وإن كانت له طريقته وفهمه ، إلا أنه امتداد للتأثر بهذا الجو العام الذى خلفه تلاميذ محمد عبده .

وكتب محمد فريد وجدى كتاباته الإسلامية الغزيرة التى مزج فيها بين العلم والدين والفلسفة : «

---

(١) ص ١٨ تحرير المرأة .

(٢) ص ١٥٧ الاسلام والنصرانية .

(٣) ص ١٨٦ تحرير المرأة .

وألف الحولى والجميل وإبراهيم رمزى والعبادى مسرحيات عربية إسلامية تعبر عن أصالة المدنية العربية الإسلامية وفضلها على أوربا ، وتدعو إلى علاج مشكلاتنا الاجتماعية . .

وانتقل شوقى من التغنى بأمجاد أبى الهول وتوت عنخ أمون والقصور الغرقى فى أسوان ، إلى التغنى بنور الأنبياء واشتراكية الإسلام وأبطال التاريخ العربى ، وحذا حذوه حافظ إبراهيم فى العمرية ، ومحمد عبد المطلب فى العلوية وأحمد محرم فى الإلياذة الإسلامية . .

وكتب الرافعى فى إعجاز القرآن والبلاغة النبوية . .

ونهضت حركة جادة لإحياء التراث وشرح نصوصه ، ولكن أعوزها التحقيق والفحص على الأساس العلمى الصحيح . .

وحاول إسماعيل مظهر أن يؤلف بين الدين ونظرية التطور ، وينفى مفهوم (الدهرية) عن هذه النظرية فى كتابه (ملقى السبيل سنة ١٩٢٤) . .

ولا ريب فى أن الضغوط النفسية التى صنعتها أفاعيل الحرب العالمية الأولى ، وإعلان الحماية والاستيلاء على الأموال والأنفس والثمرات فى خدمة المستعمر المستبد ، وتكميم الأفواه المنادية بحق تقرير المصير — كانت من أكبر العوامل فى هذا الاتجاه ، وإن كانت دفعت بمؤيدى الثقافة الغربية إلى اعتزال الحياة العامة ، فعكف أحمد لطفى السيد على ترجمة أرسطو ، وهيكل على كتابة (زينب) وشكرى على اجترار آلامه ، وطه حسين على دراسته الجامعية عن أبى العلاء فى مصر وابن خلدون فى باريس ، والعقاد والمازنى على نظم القصائد الذاتية وإلباس الأفكار الغربية ملابس عربية . .

(٦)

رغم أن الجامعة الأهلية استقدمت المستشرقين وأساتذة العلوم الإنسانية والأدبية من الغرب ، لتتجاوز دروس (الوسيلة الأدبية)

للشيخ حسين المرصفى الذى أوضح فيها بأسلوب جديد قواعد اللغة والنحو والبلاغة والعروض ، وعرض هذه القواعد فى نماذج مختارة من الأدب القديم . . ولنتجاوز مذهب الشيخ سيد بن على المرصفى (كل قديم . . جيد خليق بالإعجاب لرصانته ومتانته ، وكل جديد . . ردىء سفساف لحضارته وهلهلته ، فاذا كان من المحدثين من أخذ نفسه بمذاهب القدماء فسلك مسالكهم ، وتأثر خطاهم ، فهو حقيق أن نقرأه وننظر فيه ؛ والافدرسه لألسنتنا فساد ، ولمكانتنا كساد ، وعلينا أن نلقى بيننا وبينه من الصد والإعراض حجابا صفيقا) [١] رغم ذلك فقد استمر الحال على (دراسة الادب فى مصر على الاساليب القديمة ، أى على طريقة الكامل للمبرد ، وأمالى أبى على القالى ، والبيان والتبيين للجاحظ . وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وغيرها من كتب الأدب الجامعة لكل شىء : من شعر ونثر وفكاهة — إلى هذه الأيام الأخيرة ، فكانت دراسة الأدب أشبه بمختار من المنظوم والمنثور ، مع شرحها ، وكان أكثر تدريس الأدب فى الجامع الأزهر وغيره من المعاهد الدينية يأتى عرضا لمناسبة شاهد نحوى ، أو لإثبات قاعدة بلاغية ، فجمعت الكتب فى ذلك ، وبعضها احتوى على فوائد كثيرة ، مثل معاهد التنصيص ، وخزانة الادب ، وغيرهما . .

وكان المدرسون أنفسهم يشرحون ذلك بدون فهم لروح الأدب . لأن غرضهم إثبات الشواهد وروايته ، فكان إذا حفظ أحدهم شعرا حفظه لإثبات قاعدة ، أو للاستدلال بلغته .

(وظهر كثير من الادباء الذين كان همهم حفظ الأشعار وأنساب الشعراء عن ظهر قلب ، أو رواية الحوادث والأمثال) [٢] . .

ولم تتغير طريقة للشيخ المهدى وغيره ممن شاركوا فى البناء الفكرى لهذه الجامعة التى كان يختلف إليها طلاب من الأزهر وغيره ، ليتعرفوا

---

(١) ص ٦ تجديد ذكرى أبى العلاء — طه حسين — دار المعارف .

(٢) حاشية ص ٢١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف ط سنة ١٩٢١ — القاهرة .

إلى الحديد ، ويتألفوه بالمناقشة والفهم والتذوق ، مع أنه كان إلى جوارهم جلة الأساتذة من المستشرقين ، فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا ، يقدمون ألوانا من الدروس ، وفنونا من النقد ، لم يعرفها طلابنا من قبل — كما يقول طه حسين (وإذا دارس الأدب لنفسه ينبغي أن يدرس جيده ورديئه ، وأن يتقن غثه وسمينه على السواء ، من غير تفاوت ولا تفريق وإذا الباحث عن تاريخ الآداب ليس عليه أن يتقن علوم اللغة وآدابها فحسب بل لا بد له أن يلم إلماما بعلوم الفلسفة والدين ولا بد له من أن يدرس التاريخ وتقويم البلدان درسا مفصلا . وإذا الباحث عن تاريخ الآداب لا يكفيه من درس اللغة حسن البحث عما فى القاموس واللسان وما فى المخصص والمحكم ، وما فى التكملة والعباب . بل لا بد له مع ذلك من أن يدرس أصول اللغة القديمة ، ومصادرها الأولى . وإذا الباحث عن تاريخ الآداب أن يدرس علم النفس للأفراد والجماعات ، إذا أراد أن يتقن الفهم لما ترك الكاتب أو الشاعر من الآثار . وإذا اللغة العربية وحدها لا تكفى لمن أراد أن يكون أديبا أو مؤرخا للآداب حقا ، إذ لا بد له من درس الآداب الحديثة فى أوربا ، ودرس مناهج البحث عند الفرنج ، بل ما كتب الأساتذة الأوربيون فى لغاتهم المختلفة عما للعرب من أدب وفلسفة ومن حضارة ودين)[1] . .

وكان يمكن أن يؤتى وجود هؤلاء إلى جوار أولئك ثمارا طيبة ، برغم ما ذهب إليه (العامة من أساتذة الآداب فى مدارس مصر ، لا يتعمقون فى درس الآداب على المذهب القديم ، فيصقلوا ذوق الطالب ويقووا ميله إلى النقد اللغوى ، ولا يذهبون مذهب العلماء من الفرنج فى تحليل الآداب وردها إلى مصادرها الأولى من المؤثرات فى الحياة النفسية وغير النفسية فى الأفراد والجماعات)[2] . .

---

(١) ص ٧ تجديد ذكرى أبى العلاء .

(٢) ص ٨ المصدر السابق .

لكن ظلال الحرب السوداء عاقت ظهور هذه الثمار ، وإن ظل الغرس الطيب ينمو فى النفوس والعقول . . فلما انجلت غمرة السنوات التى مرت بالعالم فى صراع مرير ، ضاعت فيه امبراطوريات ، ونشأت وصايات وحمايات ، ودخلت أمريكا المعترك الدولى بمبادىء ويلسن الدعائية الكاذبة ، و(إذا كثير جدا من شئونه — العالم — يتغير فى الحياة العقلية والاقتصادية والسياسية ، وإذا مصر خاصة يصيبها من هذا التطور طرف لا بأس به، وإذا الجذوة المصرية تتوهج فترسل ضوءها وشررها إلى ما حولها من البلاد العربية ، وإذا الأدب العربى يحيا فى ذلك الوقت حياة عنيفة خصبة مختلفة ، لم يعرفها منذ زمن . .

وقد ظفرت مصر منذ ثورتها فى أعقاب الحرب بحظ من حرية التفكير والتعبير لم تعرفه من قبل ،واشتدت فيها الخصومات حول المثل العليا فى السياسة والأخلاق والاقتصاد والأدب والفن . .

وهذه الخصومات السياسية دفعت صحف الأحزاب المختصمة إلى التنافس ، فافتنت فيما جعلت تنشر من الفصول ، وإذا الأدباء يستعرضون الأدب القديم ، يحيونه حياة جديدة بالنقد والتحليل ، وإذا هم يستعرضون الآداب الأوربية الحديثة يذيعونها ناقدين ومحللين ومترجمين ، وإذا هم بعد هذا كله يرقون إلى إنشاء الدراسات التى تطول حتى تصبح كتبا تستقل بنفسها وتقصر حتى تصبح فصولا تنشر فى الصحف والمجلات ، ثم يجمعها بعضها إلى بعض ، فإذا هى أسفار قيمة يجد فيها القارىء نفعا ولذة ومتاعا[1] ..

حاول العقاد والمازنى أن يقولا جديدا فى (الديوان) الذى أخرجاه سنة ١٩٢١—ولكنهما لم يفلحا فى صنع مدرسة نقدية ،لأنهما سارا فيه—كما يقول الرافعى . (كالذى يرى الماء العذب وعمله فى إثبات الروض وتوشيته وتلوينه، فيذهب يعيبه للناس بأنه ليس هو البنزين الذى يحرك السيارات والطيارات[2]) .

(١) ص ٢٤ — ٢٥ — ٢٨ ألوان طه حسين ج ٣ دار المعارف.

(٢) ص ٣٦٩ ج ٣ وحى القلم .

وإن كانا قد نجحا فى التنبيه والإثارة نحو ذاتية الشاعر وحريته وصدقه ووحدة موضوع قصيدته، ودعوا إلى (مذهب إنسانى مصرى عربى: إنسانى، لأنه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة، ولأنه من ناحية أخرى ثمرة كفاح القرائح الإنسانية عامة ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة، ومصرى لان دعاته مصريون، تؤثر فيهم الحياة المصرية، وعربى لأن لغته العربية، فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت فى لغة العرب منذ وجدت، إذ لم يكن أدبنا الموروث فى أهم مظاهره إلا عربيا بحتا، يدير بصره إلى عصر الجاهلية [١]..

ذلك فى الوقت الذى نشطت فنون أدبية أخرى كالقصة والمسرحية على أيدى محمود عزى ومحمد ومحمود تيمور ومحمود طاهر لاشين وعيسى وشحاته عبيد ومحمد لطفى جمعه وإبراهيم المصرى وخيرى سعيد وتوفيق الحكيم وغيرهم وغيرهم، واتجه شوقى إلى المسرحية الشعرية يبدع فيها جديدا ..

ودافع إسماعيل مظهر فى (ملقى السبيل) سنة ١٩٢٤، وسلامة موسى فى (نظرية التطور) سنة ١٩٥٢ عن نظرية النشوء والارتقاء، متخذين من المنهجية العلمية أساسا للفكر، وإن كانت المبالغة فى الأخذ بها دفعتهما إلى افتعال حروب على التراث والقيم الموروثة ..

ثم طلع طه حسين بتطبيق مبدأ الشك الديكارتى على الأدب العربى، فطعن فى الرواة، وشك فيما وصلنا من تراث، وأعلن حربا اصطلى بنارها، واضطر إلى العدول عن (الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٥ إلى (الأدب الجاهلى) سنة ١٩٢٦، بعد أن هاج الرأى العام على جميع المستويات: الوزارة والبرلمان والأزهر والصحافة ورجل الشارع، وسكنت الضجة المثارة حول (الشعر الجاهلى).. ولكن الكتاب

---

(١) ص ٢٥ — ٢٦ الديوان فى الادب والنقد ط ٢ — القاهرة. وانظر ص ٤ ط٣ دار الشعب.

ترك أثره فى هز الثقة بالدراسة الأدبية القديمة، وتحرير منهجها من أغلال الجمود ..

اضطرمت معارك بين القديم والجديد .. بين الأفكار الغربية الوافدة وإرادة المحافظة على التراث ..بين التحرر الفكرى فى مناهج الدراسة الأدبية والتاريخية والوقوف فى وجه هـذا التحرر حتى لا يمس مقدساتنا من القرآن والسنة ومواقف رجالنا الذين قادوا خطواتنا إلى المجد ، فصنعوا أرقى حضارة وأعظم تاريخ ..

وخاض الرافعى هذه المعارك (تحت راية القرآن) فى مواجهة سلامة موسى وطه حسين والعقاد ، الذين صوروها معركة باسم أدب الصنعة وأدب الفكرة ، أو أدب التقليد وأدب التجديد ، وإن كان سلامة موسى قد تطرف واشتدت حملته على (الأحافير اللغوية) أو اللغة الفصحى التى يرى أن (تحنط وتصان ، كما تصان لغة الكهنة فى المعابد عند المتوحشين) [١] ذلك لأن (التعامل القائم الآن بين لغتنا ومجتمعنا ليس تفاعلا صحيا ، فإن هناك انفصالا يحول دون إيجاد الدورة اللغوية كاملة به ، ولذلك حدث المرض من هذا الانفصال وهو الجهل لنحو مائة علم وفن لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا ونطقنا بلغة أخرى[٢] .

وهذا ماسبق أن نادى به (شبلى شميل) وهيأت لمثله (الهلال) بتشكيكها فى قيمة اللغة العربية عن طريق استفتاء طائفة من الأدباء والكتاب من عرب ومستعربين ، عن مستقبل اللغة العربية ، وأثر التمدين الأوربى والروح الغربية فيها ، وهل يعم انتشارها فى المدارس العالية وغير العالية، وتعلم بها جميع العلوم ، وهل تتغلب على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها وما خير الوسائل لإحيائها ؟

---

(١) ص ٢٧ (البلاغة المصرية واللغة العربية) لسلامة موسى ط ٢ المطبعة العصرية

(٢) ص ٢٣ المصدر السابق .

ومع أن الكثير من المستشرقين فى هذا الاستفتاء عبروا عن ثقتهم بمستقبل اللغة العربية ، لأنه ليس من سبب (يمنع جعل) العربية فى كل تلك الأمصار لغة التعليم فيها ، ولأن (لين اللغة العربية ومرونتها تمكنانها من التكيف وفقا لمقتضيات هذا العصر) إلا أن الفرصة سنحت لمن يقول بأن فلسطين (حين تصبح وطنا سياسيا لليهود ستكون العبرانية لغة التعليم فيها)ومن يقول :(إذا طما التمدن الأوربى على البلاد العربية ، فى المستقبل القريب ، وهوطام كما تشير إلى ذلك كل الظواهر ، طمت معه لغة أهله على اللغة العربية) : ومن يقول:(لما كانت اللغة العربية لغة المسلمين خاصة ، وعليهم دون سواهم انعاشها فجوابى على سؤالكم أن:

فى فمى ماء وهل ينطق من فى فيه ماء ؟[1]) .

وجاء إسماعيل مظهر ليشجب جهود المسلمين فى العلوم والفنون ، مدعيا أنك (إذا نظرت فيما أبرز العرب من نتائج الفكر من علم أو أدب أو فلسفة أو فن ، وجدت أن فيها من آثار التخلخل والتشعب ما هو جدير بأن يبرز فى عصر عكف فيه الفكر على طريقة الشك الغيبى لم يعدُها إلى طريقة التحليل والنقد ، ذاعت بينهم مذاهب فلسفية نقلها المترجمون ، وجلهم من النساطرة واليهود ووثنيى حران عن اليونانية ولكنك لا تجد عندهم مدارس فلسفية ينسب إليهم ابتكارها . . . وإنك لو نظرت نظرة أخرى فى المؤلفات العلمية الصرفة عند العرب لوجدتها قليلة إلا بعضا منها فى الطب والكيمياء وخصائص النباتات ، وهى مؤلفات وسمت بطابع لا تراه يختلف كثيراً عن الطابع الذى وسمت به مؤلفاتهم فى فروع المعرفة التى كانت ذائعة لعهدهم) : .

وزاد فشجب المصريين الذين (وطئت أقدام الجيش الفرنسوى مصر وتركتها وأهل مصر فى فجوة من كهف الزمان ، بل فى أعمق

---

(١) الهلال — أكتوبر سنة ١٩١٩ وما بعدها .

هجواته ، ما تحركت فيهم شاعرية ، ولا انفجر فيهم انفعال ، ولا اهتزت لهم مشاعر) . .

وأمسك بتلابيب الأفغانى الذى هو (صورة مصغرة أو مكبرة لعصر من العصور البائدة فى تاريخ الفكر ، وهو بنزعته السياسية أشبه الأشياء فى عصره بالهياكل الحفرية التى تعيش بيننا بجثمانها ، وإن رجعت فى تاريخها إلى أبعد العصور إيغالا فى أحشاء الزمان) . .

و (نظرة واحدة فى الثورة العرابية كافية لأن تثبت لنا أن هذه الثورة كثورة سنة ١٩١٩ لم تمس من الحياة الكامنة فى الأمة شيئا ، وإنها لم تتناول إلا ظاهر الحياة بآثار سريعة الزوال كتلك الآثار التى تخطها يد الصبى فوق الرمال على شاطىء البحر ،يكفى للذهاب بآثارها مد موجة واحدة من موجاته) [١] . .

سيل من الاتهامات والادعاءات جدد بها دعاوى رينان وهانوتو داركور وفرح أنطون جميعا وزاد عليها ما وسعه خياله الخلاق أن يفعل فى مقالة واحدة . .

وحين تصدى للرد عليه الأستاذ أمين الخولى والأمير مصطفى الشهابى [٢] لم تبلغ من هواه لغة المنطق والاحصاء مبلغا ، فعاد ليقول :

(مهما كان يقينى فيما كتبت ثابتا ، ومهما كان اعتقادى فى صحة ما أرى فى أسلوب الفكر العلمى عند العرب راسخا،فإنى لا أتوقع مطلقا أن أقنع به رجالا عكفوا على أساليب المدرسة القديمة) [٣]

---

(١) المقتطف — فبراير سنة ١٩٢٦

(٢) المقتطف — أبريل سنة ١٩٢٦ وما بعدها .

(٣) المقتطف — مايو سنة ١٩٢٦ .

وما كادت معركة القديم والجديد تخمد أوارها حتى شبت معركة أخرى على نار هادئة، تخفف من حدتها الحذر وإرادة السلامة، والخوف من أن تصل بالناقدين الكبيرين إلى (السفود) . .

كانت بين ثقافتين واردتين . . بين طريقة اللاتينيين فى النقد الأدبى يمثلها طه حسين ، وطريقة السكسونيين يمثلها العقاد .

العقاد يرى أن الأولين ينقدون الأدب نقدا هينا لينا ، كأنهم يتحدثون حديثاً ظريفا فى صالون ، والآخرين ينقدون نقدا موضوعيا ، يعمد إلى لباب الموضوع دون اصطناع الظرف الاجتماعى الواجب اصطناعه فى ندوات الأصدقاء . .

وطه حسين يرى أنه (ليس هناك نقد لاتينى ونقد سكسونى ، وإنما هناك نقد فحسب ، فقد يعتمد على هذا الذوق الفنى العالى الذى أحدثته الثقافة اليونانية واللاتينية ، وورثته عنهما الأمم الحديثة على اختلاف أجناسها وبيئاتها ، فكل النقاد من الفرنسيين والإيطاليين والألمان والإنجليز قد قرءوا آيات البيان اليونانى واللاتينى ؛ وذاقوا آيات الفن اليونانى والرومانى لانفسهم أو كونت لهم هذه القراءة ذوقا عاما مشتركا بينهم جميعاً ، يختلف فى ظاهره ، ولكنه لا يختلف فى جوهره ، لأن هذا الجوهر واحد مستمد من هوميروس وبندار وسوفوكل وأرستوفان وأفلاطون[١]) .

وعلى هذا الفهم للتكوين الثقافى كانت دعوة عميد الأدب العربى إلى الثقافة اليونانية بعد حملته على الأدب الجاهلى ، واكتفائه بتفسير بعض نصوصه ، فترجم لقادة الفكر اليونانى ، وترجم التمثيليات اليونانية . .

---

(١) ص ٥٦ وجهة نظر — د . زكى نجيب محمود .

واتسع مجال الترجمة والنقول عن الآداب والدراسات الغربية لكن مع ذلك ظلت قوة (التراث) تفرض وجودها .. ذلك أن الذين أخذوا عن الغرب استغرقهم الاقتباس ، وشغلهم عن أنفسهم وأصبحوا كما قال طه حسين :

(كان هذا السعي يفني شخصيتنا أو يكاد يفنيها ، فإذا نحن غربيون في تفكيرنا وتعبيرنا وحياة عقولنا وقلوبنا ، وإذا حظوظنا تختلف من هذه الغربية قوة وضعفا ، منا من يحسن التقليد ، ومنا من يسيئه) [1] .

هذا إلى أن كلية الآداب بالجامعة الأهلية ، فالمصرية ، كان معظم أساتذة القسم العربي فيها من خريجي دار العلوم والقضاء الشرعي :

الخضري والمهدي ومحمود فهمي ، ثم أحمد أمين والعبادي وعزام . وإبراهيم مصطفى والخولي .. وغيرهم ، وجلهم أفرغ جهده في خدمة التراث بشكل أو بآخر ، واستفادوا من دراسات المستشرقين ومن ثقافتهم الأجنبية في تطوير البحث والدرس ، فمزجوا بين علوم الحديث — في نقد السند والمتن وآداب البحث والمناظرة وبين علوم الغرب النقدية، وخرجوا بأسلوب جديد في نقد الخبر وتحقيق النص والترجمة والتاريخ الأدبي ، بل أصبح القرآن الكريم موضع دراسة أدبية ، وسبيلا إلى ظهور مدرسة متكاملة المنهج محددة الاتجاه على أساس من (الفن والحياة) ..

بل أكاد أقول إن قوة التراث هذه دفعت بمعظم أدباء (الاقتباس الغربي) إلى العدول عن التجني على الأدب العربي والقيم الموروثة ، واتجهوا إلى دراسات جادة عن أبي العلاء وابن الرومي وبشار والمتنبي وأبي نواس و .... و .... ثم كانت نقلة أخرى (على هامش السيرة) (في منزل الوحي) للدراسة (العبقريات) الاسلامية ، التي هيأت المجتمع الإنساني خلال تاريخ طويل لازدهار حضارة رائعة خصيبة ظلت تعمل وستظل إلى ما شاء الله .

(١) في النقد — الرسالة ١٥ — ٥ — ١٩٣٣ .

منهج تفكير الأستاذ الخولى

فى هذا الإطار الفكرى امتدت جذور الأستاذ الخولى (١٨٩٥–١٩٦٦م) وطالت ساقة ، وتنوعت مشاربه ، وتعددت آفاقة ..

ربطت (مدرسة القضاء الشرعى) بينه وبين أصولنا الحضارية ومصادرنا الثقافية..

وربطت ثقافته الإيطالية الألمانية [1] بينه وبين الروافد الأوربية والاهتمامات الاستشراقية ..

وكان له من معاصريه وأساتذة معاصريه ، ومن تدريسه بالجامعة المصرية (١٨٢٨–١٩٥٢م) — الزاد الذى يمتد ويمتد ، مااتسعت تطلعاته ، وانفسحت قراءاته ، وعمقت تأملاته ..

هذا إلى ماوهبه الله من قدرة على البحث والتحرى ، ومهارة فى الحوار والجدل ، وملكة فنية مرهفة، تستشعر و تتذوق وتبدع ماوسعها.

ولقد كان منطلقة المصرى العربى الإسلامى ماحدد مسيرته ، بحيث صارت كل جهوده تخدم منهجا واحدا ، وإن اختلفت سماته . .

أحب مصر ، فعاش حياته كلها.. تاريخها ، مشكلاتها ، هموم فلاحيها .. وأحب لغته ، فذاد عنها ، وكشف عن جمالها ، مؤكدا صلتها بالحياة ، داعيه إلى تيسيرها . .

وأحب دينه عن إدراك عميق ووعى ناضج ، ومن ثم كانت دعوته إلى التجديد الدينى دعوة إلى الخلاص من كل القيود المادية التى غلفت هذا الدين ، وكانت دعوته إلى التفسير الأدبى للقرآن الكريم ، توصلا إلى تحرير الشريعة الإسلامية من كل ماليس منها ..وإلى تربية الذوق الإسلامى

---

(١) راجع مايتصل بحياته فى كتابى (أمين الخولى – حياته وأعماله) .

واللسان العربى ، بحيث يتهيأ لرواد كتاب العربية الأكبر أن ينهلوا خير زاد،وأن يقدموا للبشرية سبيل الهداية والرشاد . .

* * *

وقبل أن ننظر فى مناهج تجديد الأستاذ الخولى ، ينبغى لنا أن نتعرف إلى فهمه للمنهج ، وفهمه للتجديد ، حتى لانبعد عما هدف إليه ..

ذلك أن المناهج تختلف باختلاف أصحابها ، فلكل فكره ، وثقافته المكونة لهذا الفكر ، وطريقه فى التعبير والاستدلال ، والتأثير والاقتناع

وإذا كان مفهوم التجديد يتأثر بطابع الثقافة التى أحرزها صاحبها فإنا نجد ماهو جديد عند هذا قديما عند ذاك ، وماهو قوى الدلالة هنا ليس بشىء هناك ..

وجديد الأستاذ الخولى امتاز بأنه ليس مجرد إرادة تغيير ، ولامجرد قول ، لكنه طريقة تعديل وتطوير وإبداع . وعمل جاد فى هذه السبيل ..

لذلك لانستطيع التعرف على هذا الجديد إلا من خلال نظرة إلى الحياة والناس . وجهاده الفكرى فى سبيل الإصلاح والبناء ، فنتعرف على حدود هذه النظرة . ومعالم هذا الفكر ، وتهتدى إلى القيم الانسانية والأدبية والفنية التى آمن بها ، وعمل على تقريرها ، وتمكين وجودها عقول وقلوب أبناء وطنه ، وتلاميذه ومريديه وقرائه ، من قبل أن نحدد الخطوط الرئيسية التى نحن بسبيل أن ننطلق منها إلى رسم صورة كاملة لما حقق فى هذا الميدان ..

* * *

ولقد جالت جولة طويلة سريعة ، مع فكر الأستاذ الخولى ، من خلال علاقته بالجماهير [١] تعرفت فيها على طبيعة خصبة ، صادقة ، صريحة ،

---

(١) انظر فصل (مواطن يتكلم) من كتابى (أمين الخولى — حياته وأعماله) .

شجاعة ، صلبة ، قادرة على المواجهة ، عاملة على (بناء مجد عملى واستقلال قوى ، وحرية صحيحة) ..

ومن ثم أبرز عيوبنا فى (إرادة منحلة ، وخبرية ناضبة ، وتقدير للمسئولية معدوم ، وشعور بالوحدة مفقود ، وأنانية غالبة ، ورجعية سائدة) .. وهى عيوب يتصدرها المصلح الغيور الذى تغلبه حماسته لبناء بلاده ، فيجبه بها مواطنيه ، مع إيمان بصميم مايملكون من عناصر الخلود .

وقد رأى العلاج فى القيادة الرشيدة ، والبطولة السخية ، والعظمة النفسية ، والصلابة فى الحق ، وتحدى الطغاة والعمل على التوازن الاجتماعى ، وكفر الشباب بالسياسة ، وإيمانه بالوطن ، وأن تكون رسالة العلم (تحقيق الحرية ، وتوفير السعادة) وأن يكون كلا الأديب والفنان سيدا غير منازع ، يقوم بدوره القيادى ، ليمكن القضاء على ميكروب الوثنية الذى يتسرب إلى نفوسنا بين الحين والحين ، ويصلح من شأن الصحافة ، لسان الجماهير ومرآتها ، فلاتكون (صحافة الملالة والجهالة والضلالة) ويقف فى وجه الانحراف فى الموازين على أعلى المستويات فى الدرجات الجامعية ، وفى جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية ، لأن أخطر الفساد يتسرب من الأعلى للأدنى . . .

ونادى بعصبة الأديان فى وجه المذاهب العنصرية والاستغلالية والتوسعية حتى تنعم البشرية بالراحة والسلام والمحبة . . وإن كانت الأديان تمر اليوم بأزمة ، فالواجب التعرف على أسباب هذه الأزمة ، ولاريب فى أنها ترجع إلى جمود رجال الدين أمام طبيعة التطور ، لأن جوهر الأديان لايتنافى مع العلم واحتياجات البشرية النامية . . .

والإسلام — وهو رسالة المعرفة ، ودعوة شاملة ، بقدرته على العموم والشمول وإيمانه بالعقل والحرية الفكرية ، وبيسره وقربة من الحياة والناس — وبمكن دعاته — عن وعى وبصيرة — من تخليص ماطرأ عليه من جمود رجاله ، وفلسفات جيرانه ،

وتنطع رياضاته .. ومن ثم ينهض بعبء قيادة البشرية إلى خيرها وسلامها .

لكن هذا العلاج العام لأمراضنا النفسية لم يكن تعبيرا كافيا عن طبيعة المصلح العالم المستأنى الحريص الصادق مع نفسه وواقعه الاجتماعى . .

لذلك اتجه إلى الريف (وهو مصر كلها) ...

رأى مسكنه وغذاء وكساءه ، فآلمه الواقع المرير لآبائنا وإخواننا .

وشرع فى رسم الطريق إلى العلاج المادى .. كون (جماعة حياة القرية) ورجا أن يكون إصلاح (شوشاى) خطوة لإصلاح أربعة آلاف قرية . هى مصر كلها ..

ورسم مشروع القرية الجديدة .. دائرة ذات مركز ، هو ميدان عام تحده أبنية المنافع العامة .. ومنازل القرية موجات متتابعة يربطها شوارع تلتقى فى هذا الميدان .. الأبنية مبسطة تكفل الراحة والنظافة والأمان ...

تقام أبراج الحمام وخلايا العسل ، وتزرع البرك بسمك المبروك الذى يتغذى بالبعوض ويتكاثر ، فيجد الفلاح غذاءه الشهى الميسر . .

ويشجع على توسيع الصناعات الريفية وبخاصة أنوال النسيج ، فيجد الفلاح لباسه ورخاءه وأمنه ويعنى بالماشية عناية طبية ، فتوفر العون والطعام والاستقرار ..

وتشجر جوانب الطرق والسكك الحديدية ، فيكون ظل وثروة ونظافة وجمال ، قبل أن نشجر صحارى لاندرى ماتخبئ بطونها . . .

ويتوسع فى الرعاية الطبية لأبناء الريف ، وهم عصب الأمة ، صانعو خيرها ، وبناة مجدها ، وحماتها ..

ويتخذ من المواسم الدينية مواسم خير ، بالعمل على (تعلية الغريزة) عن طريق البذل ، فى سهولة ويسر .. ومن حصيلة هذا البذل تعالج أمراض اجتماعية واقتصادية وثقافية عديدة فى القرية ..

وحبذا أن يتخذ من المولد النبوى عيد لليتيم ، يجد فيه من سخاء النفوس وبرها حنان الأم ورعاية الأب ومشاعر الأسرة . .

* * *

بهذا التصوير العام لمشكلاتنا وعلاجها على المستويين العام والخاص المعنوى والمادى — يتبين لنا منهج تفكير هذا الرائد ، وطريقة تجديده ..

منهج أساسه الإيمان بالانسان حريته وسعادته .

وطريقة تطور القديم ، وتصلح منه ، وتضيف إليه ما يزيد فى قدراته .

منهج يقوم على الدراسة الواعية البصيرة غير المحدودة .

وطريقة تعتمد التجريب والبناء ، على أساس الواقع وإمكانياته

لكن مع ذلك فلابد من تناول خاص ، يرسم صورة رجل أغرم بالمنهج وعاشه خلال نشاطاته الفكرية المتعددة .

مفهوم المنهج

اللغة تقول : إن المنهج هو الطريق الواضح ، ونهج كمنع وضح وأوضح ، والطريق سلكه . .

والعرف الأدبي والفكرى بوجه عام لا يكاد يبعد كثيرا . .

يقول ديكارت : المنهج (قواعد وثيقة سهلة ، تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق ، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي تستطيع إدراكها ، دون أن تضيع فى جهود غير نافعة بل وهى تزيد فى ماللنفس من علم بالتدريخ)[1] . .

ويقول الأستاذ الخولى : (فنهج تفكير الرجل ، أو الجيل ، هو دستور حياتهما الفكرية ، يقرر أصول الحق ، وقواعد التعقل عندهما ومعيار النفى والإثبات ، والقبول والرفض . .

وتاريخ منهج التفكير الإنسانى هو الخلاصة الصحيحة لتاريخ الفلسفة فليس الدور من أدوار حياة الفلسفة ، والعصر من عصورها ، إلا ضربا من المنهج الفكرى يسود ويتغلب)[2]

إذا . . بقدر ما تتضح معالم الحياة ، ويتكون فهم خاص ، وأسلوب محدد ، وقيم متميزة ، تكون فلسفة الرجل ، ومنهجه ، وطريقه إلى الناس عالما ، وأديبا ، ومؤرخا ، وزعيما الخ . .

لكن هذه المعالم لا تتضح إلا بعد معاناة ، وجهود ملهمة سخية . .

وقليل هم أولئك الذين يرتادون الطريق ، ويتسلقون الجبال ويركزون أعلامهم على مشارف الحياة . .

---

(١) ص ٩٥ مقال عن المنهج ترجمة محمود الخضيرى ط ٢ دار الكتاب العربى .

(٢) عن ٣٣٩ مناهج تجديد — للأستاذ الخولى .

وإذا ما كانت إمكانية الوصول قائمة . . وإذا ما كانت المعرفة ممكنة فما وسائلها ؟

أهى العقل ، أم النقل ، أم هما ، وغيرهما ؟

وإذا ما كانت للمعرفة وسيلة ما ، فما منطقها ، وما ميزانها ؟

وتلك هى الأمور التى دار ويدور فيها البحث ، منذ طمح البشر إلى عرفان ، حتى الآن .

وهى قضية (المعرفة) ، شطر الفلسفة ، وحولها اختلفت المدارس الفلسفية ، وتعددت المذاهب ، فسفسطائى ، وعقلى ، وإثباتى ، وإشراقى . . و . . و . . وكان للناس منطق قديم وحديث ، ودار فى هذا أو ذاك البحث عن أساليب الوصول إلى الحقائق ، واختلاف تلك الأساليب باختلاف الحقيقة المطلوبة ، والمعرفة المرجوة . فكانت مناهج الدرس المتعددة ، بعد مناهج التفكير المتخالفة ، فعقلى ، ونقلى ، ورياضى ، وعلمى . . و . . و . . وتلك وما إليها من شئون البحث الميزانى المنطقى ، هى جزع شجرة الفلسفة ، ودستور قضية المعرفة ، وبقدر سلامة الأساس فى هاتيك النواحى العليا ، تكون قيمة التفكير ، أو حظه من الصواب ، أو هوانه وترديه فى الخطأ ، حسبما يقدر المقدر ، ويشهد ميزانه . .

ومن هنا يبدو لك أن جملة ما نعنيه من قولنا (منهج التفكير) هو : الرأى فى مسألة المعرفة ، والخطة فى منهج المادة)[1] . . .

والخطة التى اختطها الأستاذ الخولى مزيج من النقل والعقل قتل ما خلف السابقون بحثاً ، ونخله نخلا أميناً ، وأخذ ما أدركوا من ناضج الثمار ، وتناوله على روية ، وهضمه ، وتمثله ، بجهاز هضمى جديد ، وثقافة جديدة ، تضيف أكثر مما تأخذ ، وتطوع القديم لقدرات الحديث ، فتكسبه

(١) ص ٤٥٢ — ٤٥٣ مالك بن أنس للأستاذ الخولى .

ظلالا جديدة ، وأبعادا لم تكن له ، بحيث يصبح قادرا على أن يتطور ، ويؤدى دورا فى بيئة غير بيئته ، وزمان غير زمانه .

وإيمان الأستاذ الخولى بالتطور تؤيده (حقائق وتجارب فى الحياة لا يذهب بها المتفلسفون وحدهم ، ولا المتعلمون دون سواهم ، بل إن التجارب الشعبية تؤكد هذا الإيمان وتقرره بمختلف أساليبها الفنية ، وأساطيرها السائرة بخلاصات ممارستها الحيوية . .

ومن ذلك أسطورتهم التى تقول : إن طاغيا عاتيا متجبرا سام الناس الخسف وتتابع قهره الظالم للناس ، فكان من ضحايا هذا الظلم من سيق إليه ، فحمل له معه مسمارا كبيرا ومدقا . . ولما مثل أمامه بادأه بتقديم المسمار والمدق إليه ، فسأله فى غطرسة : ما هذا يا رجل؟ فأجابه : هذا ما يسمّر به الفلك حتى لا يسير ، فسمر الفلك أولا ، ثم افعل ما بدالك . .

ولا يزال من عباراتهم فى وجوب التغيير :(هوه الفلك اتسمر) .

وهوكما نحس — تجسيم بارز لعبث من ينكر التطور ، ويقف فى وجهه[1]
وهذا الإيمان بالتطور تزوده ببصيرة نفاذة ، وعقل (دأب على ألا ينظر من شئون الحياة إلا إلى الآفاق البعيدة، بل المترامية البعد إلى حد البصر ،ولا يلتمس من الاسباب والمؤثرات إلا الأسس العميقة الأساسية إلى حد الطاقة ، ولا تشخص له فى الخلاف أفراد وأنا سى، بل مبادئ وأصول)[2]. .

ومن وراء الإيمان العميق ، والبصيرة النافذة ،دأب على التحصيل، وقدرة على البحث . :

يقول فى مقدمة (تاريخ العقيدة الإسلامية)[3]

---

(١) هكذا قال الأمناء — الأدب — يناير سنة ١٩٦٥ .
(٢) بين الثقافات قديما وحديثا — الأدب — اكتوبر ونوفبر سنة ١٩٦٢
(٣) مخطوط بمكتبته .

(هذا بحث لم يمهد له طريق ، ولم يعبر إليه سبيل ، بل هو بدد فى كتب التاريخ والعقائد ، وطوايا الأبحاث الفلسفية ، وأنا — بعون الله — باذل فيه جهد المستطاع ، ومؤثره بمطالعات ومراجعات ، آمل أن تخطط أساسه ، وترسم طريقه) . .

ويقول فى (رأى فى أبى العلاء) . .

(قرأت كل ما أحسب أن قد رأى الشمس من آثار أبى العلاء ، نثرا أو نظما ، كاملا أو منقوصا)[1] . .

ونستطيع أن نتعرف على قدرته فى ذلك من ثبت المراجع التى يرجع إليها ، حين يعرض لبحث موضوع ما . . وحسبك من هذا مراجعة فى (السياحات الاسلامية) أول أبحاثه ، وفى (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية) أول لقائه بالمستشرقين فى مؤتمر دولى[2] . .

وهذا الجهد المضاعف الذى كان يبذله ، يرجع إلى اعتداد بالنفس إلى حد الإدلال — فى مواجهة من خاصموا فكره، كما جاء فى مقدمة (مالك بن أنس — ترجمة محررة) . .

(أبرأتها من آفات التراجم عند القدماء والمحدثين . . ومن هجيراى المسيطرة أن أضع الكتاب مثالا للمنهج ، وأصلا فيه) . .

وقد تولد عن هذا إيمانه بالقوة، (لا أطيق الضعف فى أى صورة من صوره) . .

وفى حياته كان يتمسك بما يراه حقا ، وإن بلغ حدا يستهان به فى نظر الآخرين . .

يقول الشيخ السنهورى : كان يساوم على القليل ، وينفق الكثير دون مبالاة ، فلما حدثته فى ذلك، قال: أليست لك أسوة فى عبد الله بن جعفر

---

(١) ص ٦ رأى فى أبى العلاء .

(٢) يراجع فى هذا كتابه (أمين الخولى — حياته وأعماله)

إذ قال : أنا رجل أسخو عن طيب خاطر ، ولا أرضى أن أغلب لأحد . . »[1]

منطق قوامه أن الذى يفرط فى القليل يفرط فى الكثير . . ونحن لم نؤخذ إلا من هذا الجانب ! !

ما أكثر ما ضيعنا التهاون فى وجودنا الكريم جزءا بعد جزء ، حتى هُنا على أنفسنا ، وفرطنا فى أغلى ما يملك الإنسان . . حريتنا ! !

لذلك نجده على مدى تاريخه السّرىّ الرحب أقرب إلى العنف والصرامة ، مع كونه وديع الطبع سخيا . . فقد أحس بوجود الناس من حوله إحساسا أثقل كاهله ، لأنه حمّل نفسه مسئولية رفض هذا الوجود التعس ، وعمل على تغييره . .

ومن هنا كانت دعوته إلى الحرية ، فى تشدد وإصرار ، ذلك أن الحرية وسيلة الحياة الكريمة ، ومن أولى بالحرية من قادة الوجود الحى بين الناس ؟

(إن الفنان العبد لا يمثل مجتمعاً حرا . .

وإن الفنان الذليل لا يمد مجتمعا كريما . .

وإن الفنان الأسير لا يحدو مجتمعا مستغلا . .

وإن الفنان القديم لا يترجم مجتمعا جادا . .

وإن التحرر الفنى أساس النهضات الصادقة جميعا)[2] . .

---

(١) وعن إبائه للغلبة تقول زوجه الدكتورة عائشة عبد الرحمن : اشترى ثمرات مانجو من وسط القاهرة ، فلما وصل بيته فى مصر الجديدة وجد أن العدد ينقص واحدة . . وكان أن استأجر عربة كلفته جنيها ليحصل من التاجر على حقه فى هذه الثمرة .

(٢) التحرر الفنى — الأدب — يناير سنة ١٩٥٧

وهذا كله كان منهجه مميزا عن تكوين آمر ، أوتى قوة منطقية بارعة ، درّبها ، وخففت من حدتها ممارسة آداب البحث والمناظرة وعلوم الحديث . .

وفى هذا يقول الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر : (الأستاذ الخولى رجل يحب الجدل، ولا يقتنع إلا حيث يصح الاقتناع)[1].

وكانت قواعد المنهج التى أخذ نفسه بها ودعا إليها :

١ – (الدارس إنما يبتغى الحقيقة كما تكون ، وكما ينتهى إليها ، وكما تجىء ، لا كما يريدها ، أو يتمناها ، أو يتعصب لها . .)

لذلك كان (من الجور على المنهج سبق الدراسة بالنتيجة . والتقدم بالنهاية على البداية) . .

وقد ضرب لذلك مثلا :(أن وجود أدب مصرى ، أو عدم وجود ذلك الأدب، إنما يثبته درس قصد لذلك، يجمع الآثار المصرية الأدبية، أو قل يعرف هذه الآثار المصرية ومواطنها ، ويتصل بها فيعرف أن فيها ما يكافئ هذا المشهور الشائع من الآداب التى هيىء لها أن تسير وتروج أو ليس فيها ما يكافئ هذا المشتهر . .

ذلك أن الباحث لا يبحث عن شيء يريده أو يفضله، ولكنما يبحث عن شيء يصححه أو يصدقه . .)[2]

٢ – وبسبيل هذا البحث لابد : من (الجمع المستقصى لآثار وأخبار المدروس ، جدية كانت أو هزلية، خلقية كانت أو انحرافية، فردية كانت أو اجتماعية ، يسيرة أقرب إلى اليسر ، أو خطيرة أبعد الخطر ، بطولية كانت أو انهزامية ، لحظية كانت أو دائمة . . وعد فى صنوف هذه الأخبار كل ما تستطيع أن تعد ، لأنها خطوط – لا محالة – فى الصورة ، وأضواء تلتقط عليها الصورة الدقيقة المعبرة . .

---

(١) ص ١٤ صلة الإسلام بإصلاح المسيحية للأستاذ الخولى .

(٢) ص ٧٢ – ٧٣ فى الأدب المصرى .

والفحص الناقد لهذا الجمع الحاشد ، ينقيه من أوهام المفتونين ، وأحقاد الكارهين ، وأكاذيب الملفقين ، ولا سيما فى حياة العصريين ، التى تصطخب فيها الأهواء ، وتتجسم آفات المعاصرة ..

ثم التفسير النفسى والاجتماعى الدقيق الذى يستشف التيارات الخفية والنوايا الباطنية ، يقدم عليها المفسر لأحداث حياة المترجم إقدام عشيره المختلى به ، المتفرغ له ، فيرى من خفى أمره ما ربما لا ينتبه هو نفسه له ولا يشعر به الشعور الواعى ، ويجمع المتفرق المتكامل ، على بعد الزمن والمناسبة)[1] ..

٣ — وقد ركز الأستاذ الخولى على المعاصرة بقوله :

(الواجب على من يتعرض لدراسة معاصر أن يعلم أن المعاصرة صعبة) وقديما قال الأولون :(يؤخذ بقول العلماء والقراء فى كل شىء إلا قول بعضهم فى بعض) . كما تبينوا ما يكون بينهم من تبادل الغيرة أى التغاير — وشبهوه فى ذلك أقسى التشبيهات فقالوا :(إنه كتغاير التيوس فى الزريبة) ..

وهذا هو أقرب الأسباب لتأخير درس المعاصرين إلى ما بعد تبدد الضجيج الصاخب لحياة العصرى فى قومه ، وما تثيره شخصيته من افتتان به ،أو الخداع فيه ، أو مجاملة له ، أو حقد عليه ، أو مناقشة فى ميدانه ، أو صلات خاصة توجب مجاملته ، أو مجاملة من يحملون اسمه أو من يتعصبون له بوجه ما . لكن هذا التأخير إن حرر درسا حقا فإنه ليعرضه كذلك ،لخسارة حقه ، هى ضياع بعض مواد الدراسة على تمادى الزمن ، بل ضياع معالم الفهم للموجود من تلك المواد ، بذهاب ملابساتها ، وتغير ظروفها ، بتطور الحياة السريع ، وبصمت ألسنة كانت تقول فيها قول المشاهد المشارك ، وتسجل ما رأت الأعين ،

(١) هذا العدد منهج — الادب . يناير سنة ١٩٦٣ .

وسمعت الآذان ، من شفهى الكلام ، وأضواء الأحداث التى تبدد ما تنشر الأهواء حول تفسير الوقائع وتعليلها ، حتى ليبقى بدونها الحدث هيكلا عظما أشوه ، تذهب الظنون فى تفسيره مع كل احتمال ، وإنها لخسارة بالغة أن تذهب مواد الدرس ، وتضيع شواهدالموجودمن مواده ، ويستعجم تفسيرها ، ويصير إلى ظن مظنون لا يعرف مبلغه من دقة وصواب !!)[١]

وفى هذا أكد القوم وقرروا :

وجوب معرفة الرجال بالحق ، وعدم معرفة الحق بالرجال ..

٤ — وبين مفهوم (العصر) فى حديث الدارسين من الأدباء أو مؤرخى الثقافات ، بأنه :

(نسيج متداخل السدى واللحمة ، وليس هذا السدى واللحمة فى نسيج العصر إلا أفرادا من أهله ، ورجالا من أصحاب النشاط المختلف ، معنويا وعمليا . فلاسبيل للقول بشئ عن العصر إلا لمن استطاع أن يرى هذه الخيوط ، واضحة متميزة ، مفهومة المادة ، مقدرة القوة ، جلية الصبغ واللون ، وما إلى ذلك — ليقول شيئا عن هذا النسيج المتداخل المتماسك ، واصفا له ، أو معقبا عليه ، أو ناقدا إياه ، أو مقارنا بينه وبين غيره . والذى يستطيع هذا هو من هيئت له الدراسة ، بل الدراسات المفردة ، لكل خيط من هذه الخيوط ، أى لرجال العصر المشاركين فى نشاطه ، على اختلاف جوانبه وظواهره ، فالحديث عن العصر ، فى فن أوعلم أوغيرهما ، لا يكون إلا بعد الدرس الكامل المصحح لأهله فردا فردا[٢]) .

٥ — لكن دراسة العصر لا تتناول بعيدا عن بيئة المعاصرين ، الوعاء الذى تصطبغ بلونه الأحداث ، وتتشكل الحياة فيه بمقدار ماتجد من قدرات ..

(البيئة المادية أضبط ما تضبط به ألوان النشاط الإنسانى ، سواء أكان النشاط أثر هبة فطرية ، ووراثة متلقاة من السلف ، أم كان نتيجة

---

(١) هذا العدد منهج — الأدب — يناير سنة ١٩٦٣ م

(٢) ص ٤٧٠ — ٤٧٩ مالك بن أنس .

عمل كسبي للبشر ،إذ إن الوراثة مرهونة بالبيئة التي ينمو فيها الوارث المتلقى والعمل الكسبي محدود بطرق البيئة المادية ، قدر ما تهيئ ، وتعين ، وتدفع ، وتساعد . بل إن ما ينتقل إلى الناس بجوار أو فتح أو دعوة أوإلى أى مؤثر خارجى ،إنما يصل إليهم وهو كذلك مرهون بتقبل بيئتهم المادية له ، وصلاحيته للمعيشة فيها ، فهى التى تقبل منه ما تقبل ، وتنفى منه ما تنفى)[1] . .

٦ — ولما كان للبيئة طابعها القوى فى نفوس البشر ، ولما كانت (الحقائق النفسية هى الأصول القوية لتفسير التاريخ تفسيرا صحيحا صادقا)، والتاريخ هو الوجود البشرى الذى لا يملك الناس تغييره ، وهو المرآة التى تعكس الملامح الصادقة — وجب علينا — إلى جانب دراسة البيئة — أن نهتم بالدراسة النفسية أساسا لكل الجهود الإنسانية . وفى هذا يقول الأستاذ الخولى بصدد الدراسة الأدبية :

(وبدون الفهم النفسى ، والتصحيح الضرورى لمنهج درس الأدب على هذا الفهم — لن نتذوق هذا الأدب ولن يصح لنا حكم ناقد ولن نكتب مع ذلك التاريخ الصحيح للأدب)[٣] . .

٧ — ومع العناية بالدراسات النفسية يجب ألا تخضع الأبحاث العلمية للانفعالات التى لا تحدها حدود ،ولا تضبطها ضوابط ، فالبحث العلمى — وإن استفاد من العوامل النفسية باعتبارها عوامل صهر ، ودواعى حفز وإثارة — إنما تحكمه تجارب إنسانية متتابعة ، لخصها فكر مركز سليم وأصبحت قواعد ملتزمة حتى تطالعنا الحياة بتجارب جديدة . .

(فأن نكون بحيث نناضل عن فخار ،ونذودعن عصبيةلإقليم أو ندعى فضلا لوطن ، فذلك مما لا ينبغى أن يكون له فى حساب العلم ودستور

---

(١) ص ٦٠٣ مالك بن أنس .

(٢) مقال (مشهد ومكة) الرسالة ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٤ .

(٣) ص ١٧٩ رأى فى أبى العلاء .

البحث، أثر ولا شبه أثر ، مهما تكن الأمنية المفاخرة قوية والرغبة الوطنية متملكة[١] .

ومن هنا .. عاب الأستاذ الخولى الرجل الذى غلبه وجدانه وأسرته عاطفته ، سواء أكانت عاطفة وجدان عميق ، أم نزعة إنكار مسرف ، كلاهما سواء ، مهما يظهر بينهما التقابل والتخالف .. مثل هذا الرجل يعيب غيره أبدا ، وتغره نفسه دائما ، والحق كله له ،والباطل كله عند غيره [٢]

كما عاب الرجل هادئ الوجدان ، معتقل العاطفة ، سواء كانت عاطفة تدين هاد ، أم حركة إنكار متوان ، صاحبها — فى كل حال — قد وقف عند مسلمات لايسهل عليه أن يعدوها إلى ماوراءها ، ولاتثور فيه الرغبة فى بحث يعدو ماركن إليه ، وانتهى إليه استسلامه ،من عقيدة ملقنة ، أو تردد فاتر ، أو صورة إنكار .

ذلك أن من لم تدفعه عاطفة جامحة ، ولم يقعده استسلام مريح، يكون قد فرق بين وجدانه ، كيفما كانت حاله ، وبين عقله حين يبحث ويدرس وميز بين عاطفته وفكرته ، وأخيرا لم يعد دينه على علمه، للدين عنده مجاله ومنهجه ، وللعلم مع ذلك ميدانه ومسلكه[٣] .

٨ — ثم بين لنا الأستاذ الخولى الأثر النفس فى كثير من الحقائق الحيوية التى لاتخضع لقوانين تجريبية أو عقلية ، ويكون الاقتناع بها والاطمئنان إليها عن الطريق النفسى فحسب ، فقال :

(إن مالا يعقل قد يعتقد ، وإن العقل ومنطقه شىء ، والاعتقاد وسلطانه شىء آخر [٤] .

---

(١) ص ٧٢ — ٧٤ رأى فى أبى العلاء .

(٢) ومن ثم كان مأخذه على الزمخشرى نحو مخالفيه (ص ٨٩ تراث الإنسانية ٢ م ٤) .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية — مادة تحريف — المجلد الرابع ص ٦٠٢

(٤) مقال (مشهد ومكة) الرسالة ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٤ .

ولهذا يضع الباحث فى اعتباره هذا الواقع فى تناوله بعض الظواهر الإنسانية ..

٩ — على أن يرعى العدالة والضبط فيما يمارس من الدراسات النقلية ، ويعنى أشد العناية بالخلقية العلمية التى تطمئن إلى حماية الحقيقة(١) ..

١٠ — ومن الخلقية العلمية أن يتحرى الصواب فى الحكم ، وأن يكون دقيقا فى اختيار الكلمة الدالة ، وعلى سبيل المثال (لايقال لنا قل الخبر إنك خاطئ ، بل يقال إنه كاذب ، أو غافل ، أوغير متحر . أو ماإلى ذلك)(٢) .

١١ — والاهتمام بدقة العبارة طبيعة الرجل الذى يخشى كلمة الآخرين فيه ، طبيعة من يغار على سمعته ، ويغار على الحقيقة .

وكثيرا ماكان الأستاذ الخولى يردد قول أرسطو لتلاميذه حددوا الألفاظ التى تستعملونها ، ويقول بقول السلف عن وجوب (تحرير المراد) من اللفظ ..

ويورد خطأ فى نقل كلمة (المتواتر) بدلا من كلمة (المتداول) ، فإذا بهذا الخطأ (يحدث الأثر الكبير فى التفكير اللغوى ، ويمتد إلى الحياة اللغوية فيجمدها تجميدا تتخلف به ، ويشقى به أهلها وينتج عنه ما نتج من تصدع اجتماعى وتعويق للنهوض ، بسبب هذه الحال اللغوية ، التى يشق عليها بسببها أن تكتسب المرونة والمطاوعة التى تمكنها من التطور المستجيب) فقد زعموا (أن النصوص اللغوية بعضها وصل إلينا عن طريق التواتر ، وبعضها وصل إلينا بطريق الآحاد ، والمتواتر له حرمته . . الخ .... الخ) مما انساق إليه بعض المعاصرين تبعا لخطأ النقل عن الفخر الرازى(٣) .

* * *

(١) الأدب — فبراير سنة ١٩٦٣ .

(٢) رد على الدكتور عبد الوهاب عزام — الرسالة ١٧ سبتمبر ١٩٣٤ .

(٣) انظر الكتاب بلا مؤلف — المجلة — يناير سنة ١٩٦٢ م .

هذه هي الخطوط الرئيسية لمفهوم المنهج عند رجل أغرم بالمنهج وتصحيحه فيما تناول من دراسات ومقالات ..

ولعل غرامه بالمنهج وتصحيحه بالإضافة إلى طبيعته العلمية ، واشتغاله بتدريس قواعد البحث والمناظرة وعلوم مصطلح الحديث ، واعتماده الدراسات النقلية قاعدة لما وصل إليه من تجديد — لعل ذلك يرجع أيضا إلى أن الفترة التي نحياها الآن فترة تأسيس للنهوض والتجدد ، وألزم مايلزم فيها ، وأحوج ما نحتاج إليه : هو تمحيص أسلوب التفكير وتحرير منطقه ، أعني تصحيح المنهج الذي نتبعه في تلقي الحقائق ، وقبولها ، وتعليمها . .

وبهذا التحرير والتصحيح ندرك مايختلف فيه أساس تفكيرنا عن التفكير قبلنا ، أو مايجب أن يختلف به تفكيرنا اليوم عن تفكير الأمس . .

ولن يوفر وقتنا ، ويبارك جهدنا ، ويكثر نتاجنا ، إلا السير على المنهج المصحح ، الذي هو وليد الإدراك السليم لطبيعة القضايا والأبحاث التي نشتغل بها . .

فإذا ماعرفنا ماتقتضيه الحقيقة التي نبتغيها طلبناها بالوسائل الملائمة لفطرتها ، المناسبة لطبيعتها . . فلا تستوى عندنا الحقيقة الفنية والحقيقة العلمية ، ولاتختلط عندنا الحقيقة النظرية بالحقيقة العلمية ، ولانطلب الواقعي عن طريق غيبي ، ولانقلد حيث يجب أن نفكر ، ولانسلم حيث يجب أن أن نعترض[1] ..

(١) انظر الأدب يصنع التاريخ — محاضرة بالكويت سنة ١٩٥٧ م

مفهوم التجديد

لاريب فى أن مفهوم المنهج يوحى بمفهوم التجديد ، لأن التجديد ناشىء عن طبيعة المنهج . .

ولما كان منهج الأستاذ الخولى يقوم على دراسة تراثنا — فى العلوم الإنسانية — دراسة علمية مستوعبة فاحصة مستأنية ، على أساس الفهم الواعى للبيئتين المادية والمعنوية ، فهما مرتبطا بأحدث الدراسات العلمية ، والنفسية بوجه خاص — فان جديد الأستاذ الخولى لا يبعد كثيرا عما وصل إليه قديمنا لأنه (تخلية) للقديم مما لايسغه الفهم الحديث ، و(تحلية) للقديم بما وصل إليه الفكر المتمتع بانتصارات الإنسانية ، فى مجال الكشف والاختراع ، ماديا ومعنويا . .

وفى ذلك يقول :

(التجديد — فيما أومن به — ليس إلا متابعة الحياة من حيث عاقتها غفوة اجتماعية ، ومواصلة النماء من حيث وقفته عوامل جمود . .

وليس يستبين المجدد طريقه ، ولايدرى من أين يبدأ جهاده ، إلا إذا استجلى تاريخ ما يعانى تنميته ، وعرف كيف ، ومن أين بدأت حياته ؟ ومتى ولم وقف به الجمود ؟

فإذا ماتبين المجدد طريق غده بتجارب أمسه ، عرف مايدع ومايأخذ ، وإذ ذاك ينفى ويثبت عن بصيرة ، ويبتر مظاهر الجمود فى هدى وثقة ، كالطبيب كشفت له الأشعة عن دبيب العلة .. أما إذا مضى برغبة فى التجديد مبهمة ، وتقدم بجهالة للماضى ، وغفلة عنه ، يهدم ويحطم ، ويشمئز ويتهكم ، فذلك — وقيتم شره — تبديد لاتجديد[1] . .

---

(١) ص ١٤٣ مناهج تجديد .

والطبيب الذى تكشف له الأشعة عن دبيب العلة، لايصف الدواء إلا مجتهدا ، وبقدر مايملك من تجارب — له أو للآخرين — تكون قدرته على العلاج ..

وقد فسر لنا الأستاذ الخولى الاجتهاد بمعنييه : اللغوى والاصطلاحى، وهو بصدد الدراسات اللغوية ، فقال :

(أما الاجتهاد بمعناه اللغوى ، فهو الجد الدائب فى تأصيل الدراسة اللغوية ، واستكمالها ، والاعتماد عليها وحدها فى فهم خصائص العربية ، وتقديم التفسير اللغوى الصحيح ، لظواهرها الصرفية والنحوية ، بدل تلك التعلات النظرية ، والتفسيرات المخترعة ، والمتوهمة ، لتلك الظواهر ، كما تسجل الكثير منها الصيغ الإعرابية التقليدية .

وأما الاجتهاد بمعناه الأصولى الاصطلاحى ، فما أحسبه إلا الخطوة الضرورية بعد الإيمان بعدم سلامة المنهج القديم، وبعد الجهد فى سبيل الظفر بالتعليل النفسى ، أو الاجتماعى ، أو العملى ، للظواهر الصرفية والنحوية فى العربية ، فلا يكون وراء ذلك إلا النظر المجتهد فيما خلف المنهج القديم من قواعد العربية تقديرا لصحة هذه القواعد وسلامتها[1] .

أى أن الاجتهاد يقوم على تقييم صحيح للتراث ، فى ضوء الحاجات النفسية أو الاجتماعية أو العملية ، وعلى أساس من منهج سليم ، مدعم بكل ما وصل إليه العلم الحديث ، وتخلية هذا التراث من كل دخيل، بحيث يبين الجوهر الخالص ، وتتجلى الروح العربية الإسلامية ، كما عاش بها أهلها الأولون — قبل أن نضيف جديدا . . على أن يكون هذا الجديد نماء سليما للقديم ، وثمرة لقدرته على التطور ، لاأن يكون مجرد رقعة فى ثوب ، أو قلادة فى عنق ، قد تشوه ، أو تزين ، لكنها لا تذوب فى الكيان ، بل تظل محتفظة بوجودها الخاص ، وحدودها المنفصلة :

---

(١) ص ٨٣ مناهج تجديد .

وبديهى أن الإجتهاد يختلف باختلاف قدرات المجتهدين عقليا وثقافيا .

وتناول أكثر من مجتهد لفكرة واحدة لابد وأن يكون تناولا مرحليا وإلا أصبح اجتهاد بعض المجتهدين صورة زائفة ، لأنه تقليد أو مجرد تعبير عن موافقة ، مهما بذل من جهد فى الوصول إلى الحكم ، لأن هذا الجهد لا يتجاوز مرحلة الدراسة الواجبة كخطوة أولى للمجتهد .

وبهذا التناول المرحلى للفكرة يمكن تقدير الجهد الذى بذله الأستاذ الخولى فى ميدان الاجتهاد والتجديد .

وقد أشار إلى هذا المعنى حين تناول العرض التاريخى والفنى للقصص القرآنى فى أقوال السابقين ، فقال :

(إنهم وإن دلت أقوالهم هذه على شىء من الاستشراف للتفرقة بين العرضين : التاريخى والفنى ، وأنهم كانوا بحيث لو عرض عليهم هذا القول لقبلوه ، بل لوجدوا فيه التقدير الأدبى والعلمى الذى يوصل فكرتهم ، ويخرجها حقيقة واضحة ، بل يجعلها أصلا مقررا .

ولكن ..هل ما يحس أو يظن من استعدادهم لهذا كاف للقول بأنهم تمثلوا تلك الفكرة تمثلا يكفى لعدهم من مؤيديها ، والملتزمين لها ؟ أحسب أن هذه الثانية ليست يسيرة ولا مسلمة ، وإن سلمت الأولى ، وهى استعداهم للفكرة ، أو استشرافهم لها ، أو إمكان قبولها ، لو كانت قد عرضت عليهم فى عصرهم[1] .

وبهذا يوضح لنا الأستاذ الخولى مدى الخطوة التى خطاها فى هذه السبيل ، ويدفع فى وجه النظرة العجلى إلى ما قدم للانسانية من دراسات وأبحاث ، فأسرع بها الوهم إلى تصور أنه لم يزد على أن وضع يده على ما فى التراث من أفكار ناضجة ، كادت تختنق تحت ركام من التقليد والحشو

---

(١) الفن والتاريخ — الأدب — أبريل سنة ١٩٦١ م

والتفلسف والاستطراد والتفسير والجدل والعقم ليصوغها صياغة جديدة ويحسن عرضها .

ومع أن هذا ليس أمرا ميسورا ، ولا يستطيعه إلا كل قادر أصيل لأن الحكم ينضج هذه الأفكار — دون سواها — لا يتأتى إلا لمن فى وسعه أن يبدع هذه الأفكار لو لم تكن ، لأنها تلتقى مع اتجاهه الفكرى ، ولولا علمه بالتراث لقالها ، وعدت فى باب توارد الخواطر ، وكذلك لولا أنها تلتقى مع التيار الفكرى الذى تصنعه مكوناته الخاصة لما أعارها التفاتا .

مع هذا كله . فإن الأستاذ الخولى لم يقدم هذه الأفكار تقديما جديدا فقط ، بل مذهب هذه الأفكار وقنها ، وربطها بجديد الإنسانية فى ميدانها ، وصارع بها ما خالفها من رأى ، وأقام أكثر من دليل على أنها دون سواها هى حاجة اليوم ومن ثم كان التجديد التجديد الذى لا يمكن أن ينفصل عما نريد تجديده ..

.. ولمزيد من الإيضاح يمكن رسم الطريق الذى سلكه الأستاذ الخولى على أساس أنه لا يسعنا أن نبحث فى تجديد شيء ما لم نعرف الدوافع إلى هذا التجديد . والدوافع لا تكون إلا منبعثة عن هذا القديم ، لعدم وفائه بالتزامات العصر ، أو لجموده وعجزه عن النماء والتطور ، أو لوقوعه فى أسر عقول متخلفة ، وعصبيات مستبدة . . الخ ..

ولا تكون هذه الدوافع إلا بعد الدراسة الجادة ، (والبحث الحر المنتفع بآخر ما وصلت إليه الإنسانية من جهد . . . وعدم قبول أقوال الأولين فى ذلك ، بلا تمحيص ، على أن يبذل فى ذلك البحث الحر أقصى وسع الإنسان فى طلب المعرفة ، أداء لواجبه الكامل فى طلب الحقيقة حتى يحس من نفسه العجز عن مزيد طلب للمعرفة)[1] . .

(١) ص ٧٠ مناهج تجديد .

ومن ثم يكون (أول التجديد قتل القديم فهما ، وعلى الأساس السليم المتين من القديم نفهم ما نفصه منظواهر التقدم الفنى الحديث)[١].

فلا يكن مذهبه مذهب أو لئك الذين أرادوا أن يجددوا وجودنا الثقافى والاجتماعى ، فذهبوا إلى بيئات أخرى متقدمة ، ونقلوا إلينا مظاهر هذا التقدم ،وأرادوا فرضها على بيئتنا ، فلم يزيدونا إلا رغبة فى الدفاع عن أنفسنا ، والنظر إلى هذا الجديد فى ريبة وخوف ، نزدرد منه ما نزدرد ، ونعود فنلفظه ، لانستطيع إساغته وهضمه ، لأنا لم نتهيأ له ولم نعد الإعداد الصالح لتقبله ، أو لأنه غريب عن طبيعتنا . .

وكان الأحرى أن نخلع عن ماضينا أكفانه ، ونحرر كياننا ، وننزع عن مقوماتنا كل أوراق الخريف ، ونغذى التربة بكل جديد من السماد حتى نستطيع أن نعود بالربيع خصبيا ممرعا .

(فما بمريد الإصلاح أن يدعى مالا يملك ، ويتكثر ماليس له ، ويلقى الناس بثوبى زور ، بل حسبه أن يتجه وينتبه ، ويدرك ويقدر ، ويدعى ويبين . وذاك أثمن مايملك ، وأصدق مايرسل من دعوى وأروع مايقدم من طرافة)[٢] ..

ومابمريد الإصلاح أن يكون مثله مثل نفر (أسلوبهم الفكرى .... يجول العقل فى مسارح الكون ، على أن يظل حبله فى يدهم أويد الدين ، كما يفهمونه ، لا كما هو فى طبيعته وحقيقته فحيث خلوه سرح ، وحيث كفوه انكف ، وحيثما هزوا حبله فهو خاطئ .. وتقول لهم : إن عنيتم بهذا التحكم فى العقل أنه عاجز عن استكناه كل شئ ، والنفاذ إلى صميم الحقائق كلها فنحن معكم ، لكن دعوا العقل يشعر من نفسه بهذا العجز ، ولاتفرضوا عليه العجز فرضا وسيطرة ، بل دعوه يعرفه بالتجربة ، فيأبون إلا أخذه

---

(١) ص ١٢٧ مناهج تجديد .

(٢) ص ١٤ فن القول .

بالجبل ، وتنبئهم أن مسالك العقل فى الوصول إلى الحقائق مختلفة ، ومنها مالاسبيل إلى رد نتائجه ، ولاحيلة فى نقضها ، فهو حين يعتمد التجزبه ، ويحدث عن واقع ، لاخير لكم فى مناقشته ، ولاسبيل لكم إلى كفه ، وإن تفعلوا فهو متمرد ، يخشى عليكم خطره ، فيأبون إلا الجهل) ..

ومايريد الإصلاح أن يكون مثله مثل نفر (أسلوبهم أن يرسلوا العقل ، أو قل يرسلون أنفسهم إرسالا ، فيقولون بالظنه ، و يحكمون بالشبهة ، ويقطعون بالبداء ويجزمون باللمحة .. هذا إذا كان الحكم لهم ، فان كان من غيرهم طلبوا من الدليل مالا يطلب ، وجعلوا العقل التجريبي فى موضع الظنى ، فتارة يقلبون الحقيقة، فكما يسمون النتيجة التجريبية علما ، يسمون النتيجة النظرية علما، ويسمون الفرض الاضطرارى علما، ويسمون الحل المؤقت الذى يبعثه العجز عن الحقيقة الصحيحة علما ، فيزعمون أن ذلك كله من مملكة العقل التى هو فيها حر مسيطر ، ليس لأحد أن يحد من سلطته ، يريدون أن تكون الحقيقة الطبيعية ، والنتيجة الرياضية ، والرواية التاريخية ،والخاطرة الفنية— كل أولئك عقليات علميات ، لافارق بينها ، ولها جميعا أن تضرب وجه الدين .. يشكون ، والشك حق فطرى لاينكر عليهم ، لكنهم لايلتمسون الأدلة كما هى الخطوة الأولى بعد الشك ، بل يطرحون ماشكوا فيه ، ويهملونه، وكذلك يفعلون حين يشتبهون ، ويقوى فى تقديرهم الاشتباه ، فيعدون اشتباههم آية عجز كل محاولة للإثبات،وفشل كل دليل ، فيطمئنون إلى مااشتبهوا فيه [1]..

وكل أولئك غير قادرين على أن ينهضوا بواجب التجديد ، لأنهم لم يتهيئوا له، ولم يأخذوا بأسبابه ، فمنطق التجديد قائم على الاجتهاد والاجتهاد أداته العقل ، ومذهبه القياس ، والربط بين صورتين الواقع وفى الخيال ، بين ماض وحاضر ومستقبل : ولاتصح

(١) الأساليب — الرسالة — ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٣ .

المقارنة والحكم إلا فى ظل قيم ومثاليات ، تستمد وجودها من بيئة محددة بتاريخها وتراثها وإمكانياتها المادية والمعنوية .. وإلا عجزت الجهود المبذولة عن أن تجد طريقها إلى الحياة .وأصبحت مجرد زوابع فى سماء صاحية لاتلبث أن تموت ..

إذا .. فلا قيمة لجديد مستورد مالم تكن البيئة مدفوعة إليه بقوة احتياجها وبقدرتها على تمثله ، وعلى أساس من وعى كامل بالوسيلة والغاية وإلا فالإيمان بالعقل إيمانا مطلقا يدفع إلى العزلة والاغتراب ، والحكم على العقل منذ البداية بالعجز سبيل الجمود والتخلف .. وواجب المصلحين أن يعرفوا طريقهم إلى بيئتهم ،يتفاعلون معها ، ويتنورون مستقبلها ، قبل أن يأخذوا طريقهم إلى بيئات أخرى ، يقتبسون منها وينقلون عنها ..

وفى ذلك يقول الأستاذ الخولى عن تجديد البلاغة :

(ونحن فى الحق لسنا مبتدعين فى ذلك تماما ، بل نجد نواة مثل هذه الأبحاث فى الدراسة البلاغية القديمة كالذى كتبه الجاحظ فى بيانه عن صحة المعانى وفسادها ، ومناسبتها للألفاظ ، ومناسبتها للسامعين ، كما نجد طرفا صالحا من ذلك الجديد المرجو فى نقد قدامة ، حين يتكلم عن نعت الوصف ، ونعت الهجاء، ونعت الرثاء،ونعت المديح ،ونعت التشبيه. وما إلى ذلك .. لكن فى إجمال وإيجاز ، لم يتناوله أحد بعده بالبسط إلى اليوم ، لكساد المدرسة الأدبية وسيطرة النزعة الجدلية، وانتهاء البحث فى البلاغة إلى ضروب من الخلاف والمناقشة تعقد لها مجالس المناظرة[1]

وبذلك يكون تجديده (متابعة العمل لإنضاج البحث البلاغى دون إحراقه [2] (لأنه أدرك) ـ عن بينة أن (تجديد الثقافة الاسلامية تحرير مناهجها ، وتصحيح خططها)[3].

---

(١) ص ١٧١ مناهج تجديد . (٢) ص ١٢٧ المصدر السابق .

(٣) ص ٨٨ ع ٢ تراث الإنسانية حـ ٢ م ٤ كشاف الزمخشرى .

لكن .. لابد أن ينتقل التجديد إلى مرحلة التطوير ، لأن المجدد إذا إذا اقتصر على مجرد « تحرير المناهج ، وتصحيح خططها » فسيترك الباب مفتوحا أمام من يعملون على تزويد المجتمع باحتياجاته أو توفير العلاج لجديد مشكلاته ، دون أن تكون لديهم القدرة على إدراك طاقة المجتمع وإمكانية هضمه لهذا الجديد ..

وماأحسب أن هناك من يحرر منهجا ، ويصحح خطة ، دون أن يضيف جديدا ، لانه لايفعل هذا الفعل إلا وهو واقع تحت تأثير تطلعات مستقبلية ، وإحساس قوى بضرورة إخصاب التربة ، وإصلاح فاسدها ، وانتقاء بذور جديدة تؤتى خير ثمارها ..

ومن هنا يكون (التجديد الذى هو تطور ، ليس إعادة قديم كان ، وإنما هو اهتداء إلى جديد كان بعد أن لم يكن ، سواء ، أكان الاهتداء إلى هذا الجديد بطريق الأخذ من قديم كان موجودا ، أم بطريق الاجتهاد فى استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن . . فالتطور لا يفهم بسهولة من إحياء ما اندرس ، كما يقال فى معنى التجديد) [1] . . لأن التطور قائم على الاجتهاد — كما سبق القول — وفضيلة الاجتهاد الخلق والإبداع . . وتقييم ما يبدع عقل البشرية ووجدانها تقييما صحيحا ، يحتاج إلى عقل ووجدان فى قدرة فاعل الفعل البديع .. لذلك يختلف التقييم للأعمال الكبيرة اختلافا كبيرا ، إذ يتأرجح الحكم بين المبالغة فى الثناء والمبالغة فى الرفض : أ ..

* * *

وبعد .. فلعل هذه الصورة لمفهوم المنهج ومفهوم التجديد عند الاستاذ الخولى تصلح مقدمة لعرض ما هو من جديده ، مصحوبا بآراء السابقين ، ليتبين لنا إلى أى حد أصل منهجا ، وعمق درسا ، ووسع ميدانا ، وأقام نُصُبا . .

---

(١) ص ٣١ المجددون فى الإسلام للأستاذ الخولى .

أولا — التجديد في فهم الدين

(١) منهج تجديده فى الدين .

(٢) منهجه فى التفسير .

كون الإسلام دينا عاما للانسانية كلها ، خالدا باقيا ما بقيت البشرية لا يمكن أن يتحقق إلا بوعى يقظ لما تحتاجه البيئات الإنسانية المختلفة باختلاف الأنحاء والأهواء ، وبجعل العقائد والأعمال وكافة الأسس الدينية فى الوقت الواحد مرنة ، تتسع للألوان المختلفة ، والطبائع المختلفة . .

الإسلام والمستقبل — مجلة الأدب

لقد نهى القرآن عن البحث فى الروح والساعة ، وأشباه لها من مغيبات ، لا ليحد نشاط العقل فى ميدان من ميادين المعرفة ، وإنما ليوجهه إلى التخلص من متاهات الغيبيات ، ومآزق اللاهوتيات ، ومجاهل ما وراء الطبيعة ، ليكون السلام العقلى الذى ظفر به العقل منذ صدته تجربته عما وراء الطبيعة ، وردته إلى العناية بالطبيعة . . يكون سلام عقلى يخرج العقل إلى بهرة النور ، ويريحه من ظلام الغيبيات ، وانطلاق جاد فى السموات والأرض يهيء له كل ما يستطاع من حرية فكرية . .

نظرات الإسلام الاجتماعية

المقصد الأول للتفسير اليوم أدبى محض صرف ، غير متأثر بأى اعتبار وراء ذلك ، وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد إليه . .

مناهج تجديد

«منهج تجديده فى الدين»

(١)

الإسلام بعقل اليوم ولسان اليوم

منذ بدأ الأستاذ الخولى يكتب فى الإسلام ، وأنت تحس أن هذا الكاتب إنما يتنور طريقا رحبا ، بعيد الهدف . فهولا يتملق العواطف ولا يتناول المشكلات الجانبية ، أو الموضوعات اليومية ، التى لا تلبث أن تذهب بها اهتمامات جديدة ، وإنما همه القضايا الكلية ، والأصول الجذرية ، التى تحرك السطح ، وتمخض الأعماق .

نجده فى مدرسة القضاء الشرعى طالبا يبحث فى (السياحات الاسلامية)[1] ١٩١٦ داعيا (أبناء الشرق الناهضين أن يروا من تاريخ آبائهم تلك الحضارة العاملة الحديثة) التى انتصرت على المكان والزمان ، لتأخذ طابعها العالمى فى أسرع وقت يمكن لحضارة قوية الدعائم أن تسيطر فيه .

وفى سنة ١٩١٧ يكتب مسرحية (الراهب المتنكر[2]) ، تناول فيها تأثير الحضارة العربية الإسلامية على أوربا ، عن طريق الأندلس وسماحة الإسلام فى نشر العلم ، وقدرة المسلمين على درء الفتنة ، ونشر العدل .

كما يكتب فى ذلك العام أيضاً مسرحية (سفير الرشيد)[3] يبين فيها تأثير الحضارة العربية الإسلامية على أوربا ، عن طريق الشام وبلاد الروم ، وعوامل التمزق فى كيان الدولة الإسلامية ، وقدرة المسلمين على شجب هذه العوامل .

---

(١) الهلال — أول يناير سنة ١٩٢٢ م .

(٢) نشرت فى مجلة الأدب — عدد يناير سنة ١٩٦٩

(٣) انظر الحديث عن نشأته فى (أمين الخولى — حياته وأعماله) .

ويكتب كذلك بحثه (الجندية الإسلامية ونظمها)[1] سنة ١٩١٧ ، معبرا عن القوة المادية التى هى مرآة القوة المعنوية للدولة الإسلامية . .

وبعد تخرجه فى مدرسة القضاء نشرت (المقتطف) سنة ١٩٢٣ بحثه (المدنية العربية فى صقلية) ، وقد تحدث فيه عن تأثير الإسلام فى صقلية منذ الصدر الأول — قبل فتحها — ثم اتخاذها بعد الفتح منارة ، للحضارة الإسلامية ، تشع العلم والمدنية إلى أوربا . .

وتتابعت أبحاثه وكتاباته فى الصحف : القضاء الشرعى ، والمقتطف والإيمان ، والرسالة [2] . . وفى معاهد الدراسة : مدرسة القضاء كلية أصول الدين ، كلية الآداب . . وفيها جميعا يتحدث عن الاسلام قرآنا ، وعقيدة ، وتشريعا ، وحضارة ، ومعارف . . (بروح الحب للحقيقة ، وطلبها حيث كانت) . .

حتى إذا كان بحثه (صلة الإسلام باصلاح المسيحية) سنة ١٩٣٥ ، الذى قدمه (إلى العقول القوية والقلوب الكبيرة ، التى تدرك من التدين أسمى معانيه وأنبل أغراضه) — أدركت أن الباحث عمق طريقه ، وهو ربط ما تم من الإصلاح البروتستانتى بما هو حاصل فى الإسلام ، لما عرف من صلة رجل هذا الإصلاح بالفلسفة المعروفة إذ ذاك ، والصلة القوية لهاتيك الفلسفة بالفكر الإسلامى .

وأدركت أيضاً أنه إنما يكتب (إلى المؤمنين والجاحدين جميعا . . إلى المؤمنين ما يزيدهم إيمانا . . وإلى الجاحدين مالا ينقص من تحررهم إذا ارتفع كل فريق منهما على أوهامه ، وصدق فى التماس الحق)[3] .

---

(١) نشر فى كتاب (الجندية والسلم واقع ومثال) .

(٢) تجد تفصيل ذلك فى الجزء الخاص بمواطن يتكلم من (أمين الخولى — حياته وأعماله).

(٣) إهداء كتابه (نظرات) الإسلام اجتماعية . . أمس . . واليوم وغدا) خط .

(وإلى من يؤمنون بوحدة الأصل البشرى . . وحدة لا يصح معها تداعى بعض الناس فى مختلف الأعصر بأفضلية وتميز ، يصل إلى هذا القدر من التفريق المحتكم، الذى ترتب من أجله الشعوب مراتب ودرجات .

وإلى من يؤمنون بوحدة المصير الإنسانى . . فان شعورا وجدانيا يكبر هذه الغاية ، ويهفو إليها ، ويشعر بأن الحياة لو لم تكن متجهة إليها كما تتداعى بها ، ولم تكن ضحاياها الكثيرة قرابين لقداسة تلك الفكرة عن السلام العام والمصير الموحد — لكانت تلك البشرية تدمر نفسها ، وتنتحر بأقبح وسيلة للانتحار وأبشعها. فما تحتمله من آلام لا يمكن أن يتقدم لاحتمالها كائن رشيد لغير غاية . .

ثم . . إلى الذين يؤمنون بعالمية الإسلام وخلوده) [1] . .

. . ويتبين لنا من ذلك أننا مع باحث هدفه تدعيم فكرة التجديد فى فهم الدين ، على أساس من واقع إنسانى عالمى ، فقد ملك عليه نفسه شعور الحياة بالحاجة المسلمة الملحة إلى تجديد تطورى ، يفهم به الإسلام الذى يقرر لنفسه الخلود والبقاء فهما حيا ، يتخلص من كل ما يعرض هذا البقاء للخطر ، ويعوق الخلود . .

ولقد وجد أن فهم الإسلام اليوم ليس فهما ذا منهج ، ولا قائما على أصول يؤسس عليها مثل هذا العمل الكبير ، فى فهم دعوة عامة دائمة خاتمة للاديان ، بما لها من كتاب واسع الآفاق ضخم ، هو القرآن ، يحتاج فهمه إلى أسس واضحة ، وبما لدعوة الأسلام من مميزات وخصائص .

وإذا ماكان فهم الحاضر للإسلام لا يقنع باحثا ، ولا يدفع نقدا ، ولا يحقق خصائصه الكبرى التى يريد أن يمتاز بها ، فقد وجب إذن البحث عن فهم آخر للإسلام يقوم أول ما يقوم على منهج راسخ الأصول ، يقنع المفكر الحر ، ويحقق خواص الدعوة . . الخ ، ليتبين كيف ينبغى أن يفهم

(١) مقدمة : (صلات بين النيل والفولجا) . .

الإسلام فهما بريئا من كل ما نسب إليه ، أو حمل عليه ، أو لون به .
سواء فى الماضى أو الحاضر . .

ولئن كانت الحركة الإصلاحية الإسلامية قد انفعلت بما حوالها من التطور والتحرر الفكرى ، فجعلت تفهم الإسلام فهما أكثر حيوية وأوسع أفقا ، فانها – مع ذلك – قد تأثرت كثيرا بالهجوم السياسى العنيف على الشرق فى صور مادية ومعنوية ، من بينهما الهجوم على الإسلام فبدت فى تفكيرها نزعة دفاعية ، تعنى بتبرير الأوضاع الإسلامية لأن لها نظائر وأشباها فى عقائد الناس ونظمهم ، وما إلى ذلك من دفع اللائمة بأى وجه أو حجة ، أو تنظير ، أو اعتزاز [1] . .

وإن تكن – على أضواء التحرر – جعلت تفسير القرآن جديدا ، يخلص جوهره من كثير من آثار المستوى القديم فى الفهم الذى ينقصه غير قليل من التحرير والنقد – فان الجهد الحق لم يتجه إلى فهم الإسلام فهما أصيلا ، أو عاما شاملا ، أو مؤسسا على منطق معين ، ومنهج خاص.

ففيما كتب الأستاذ الإمام وتلاميذه تستطيع أن تتلمس خطوات صحيحة واعية ، لكنها خطوات غير متتابعة تتابعا منهجيا ، لأنها إما أن تتقيد بقيود الماضى ، وإما أن تغرقها أضواء الحاضر ، فتنشغل بالدفاع عن مقدسات دفاعا مشوبا بالحماسة والخوف ، أو تمضى فى هجوم على عدو لم تتعرف أساليبه ولم تسبر حقيقته ، فيخطئها التوفيق فى الدفاع والهجوم – أحيانا – بقدر ما تعانى من ركام القديم والتواء منطقة ، وتعدد مناهج الحديث واجتراء دعاته .

واستطاع الأستاذ الخولى أن يأخذ طريقه وقد عرف كيف يتناول الدين تناولا أوسع أفقا ، وأعمق نظرة ،وأدق خبرة بالحياة والناس ، وأبعد عن تلك الأغشية التى تحول بينهم وبين جوهره النقى ، وقدرته على أن يقود ويسود ويخلد

---

(١) انظر : الفصل الأول من (نظرات الإسلام الاجتماعية) خط –

كما عرف أن (مصر المتجددة بجهاد شبانها قد اضطلعت من تجديد الدين بالحظ الأوفر ، وساهمت فيه بالنصيب الأكبر يوم كانت الامبراطورية الإسلامية ، على سعتها ، وترامى أرجائها ، وانتظامها الواسع الأفيح أقطار الدنيا القديمة . . بل إن الكثرة المطلقة — من الذين ذكرهم السيوطى والمراغى فى ثبت المجددين ، من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجرى — رجال أنجبتهم وآوتهم وعلمتهم مصر ، ذات الفضل العتيد على المدنية منذ عرفها بنو آدم [1] . .

وإن ملامح الشخصية المصرية لتتجلى — على مدى التاريخ الدينى — متمثلة فى عمق الروح الدينى ، وفى قوة الايمان بالحياة الأخرى ، وفى سعة الأفق الدينى ، مما ساعدها على (المشاركة فى الأديان الكبرى بمعرفتها ولقائها وتقبلها فى أناة ويقظة ، وتمكينها من الحياة فى بيئتها الاعتقادية ، ثم الوقوف إلى جانبها ، بعد التمثيل الصحيح لها ، وقوف المستشهد العميق الإيمان) .

ومن ثم كان عليه ألا يقف موقف الآخرين الجامد المتردد المبعثر الخطا ، وإن إسلام مصر يبدو متسق الجوانب ، متماسك الأجزاء ، فى روحيته التى قادت التصوف ، وفى إيمانه الذى لم يهش للجدل ، وفى فقهه الذى ارتفع عن الخلاف المذهبى المفرق [2] . .

وقد عرف أن تاريخ الأديان يخضع لما يخضع له تاريخ الحياة الإنسانية على اختلاف مناحيها المادية والمعنوية ، دون خروج ماعلى نواميس الاجتماع المقررة ، أو إخلال بأصول البحث العلمى النزيه ، ودون اعتداء ما على قدسية الدين وسماويته وصحته .. ومن ثم كانت دعوته أن نقرأ الكتب الدينية وندرسها ، ونتذوق جمالها الفنى ، ويكون من حقنا أن نعلن نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ، مادام هذا الإعلان لايمس مكانة هذه الكتب المقدسة ، من حيث هى كتب مقدسة ..

---

(١) التجديد فى الدين — الرسالة — أول فبراير سنة ١٩٣٣ .

(٢) الحياة الدينية فى مصر الإسلامية (تاريخ الحضارة المصرية) .

كما عرف أن الوشائج متصلة بين الدين والفن وبين الدين والعلم ، فى أشياء كثيرة ، فالأنبياءوالرسل مثلا من حق التاريخ،والقرآن من متناول الأدب والتاريخ ، ولذا سخر مما تفيده الحقيقة من باحث ينتهى فى مثل هذه الأشياء إلى رأى استقرائى ،أوحكم تاريخى،فيكون همه تأكيدأن غيره من كلام الدينيين خداع أو اتجار أو نحو ذلك مما لا يعزز حكما ، ولا يدعم رأيا ، بل لا ينفى عنه مظاهر ضعفه على حين يثير المعتقدين فى غير طائل، ويفقد الحقيقة فرص الظهور والاتضاح ...

وذكر هؤلاء الجامدين المقلدين بقول الإمام الشافعى ، فى الأخذ بتفسير الصحابى : (كيف آخذ بقول من لو عاصرته لحججته ؟) ..

ودعا المسرفين المندفعين إلى الاستفادة من قول أبى الحسن الأشعرى حين حضرته الوفاة : (أشهد على أنى لاأكفر أحدا من أهل هذه القبلة ، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد ، وإنما هذا كله اختلاف لعبادات) ..

كما دعا العقلانيين المتحررين إلى معرفة قصد الشافعى ، وهو يعرف العالم الدينى ، بأنه : (العاكف على دينه العارف بحال قومه)[1] ..

ليتنور الجميع أن على من يريد اليوم النظر فى الدين أن يربط وجوده بوجود قومه ، يتعرف احتياجاتهم،والظروف المادية والمعنوية التى تحيط بهم، كما يتعرف تاريخهم على أساس الواقع الإنسانى المحرر من كل إضافات المتعصبين والمشعوذين والمغرضين ، ويربط قديمهم بحديثهم قاعدة نماء ونقطة انطلاق ، ويتناول التراث تناول عقل محرر يخلص الجوهر وينقيه ويطوره بقدرات الحاضر وتطلعاته ، ومن ثم يحفظ على الإنسانية كبرياءها وثقتهابنفسها،وإيمانها بالحياة.ويؤكد معانى الخير والمحبة والقداسة والخلود فى وجودها ..

---

(١) ارجع إلى ذلك مفرقا فى كتاب (المجددون فى الإسلام) .

(٢)
قدرة الدين على التجدد

التدين أقدم ظاهرة اجتماعية فى حياة البشر ، رافقتها منذ درجت على هذه الأرض وسايرتها طول عمرها المديد عليها ، وهو عمر يقدر طوله بالأدهار .. فلابد أن يخلف ذلك آثارا فى المقررات الدينية فتتطور ، وتختلف ، وتتغير ، وتتعدد وتتفاعل ، وتتقاتل ، وتتهادن وتتعصب ، وتتسامح ، وما الى ذلك ، مما يكثر وبعنف ، على طول هذا العمر المتهادى ..

وفى حياة البشرية ، والإسلام جانب من النشاط الدينى البشرى ، يعرض له ذلك كله ، حسب عمره على الأرض ، وهو يزيد عن الألف ببضع مئات .

ومامن شك أن هذه الأجيال المتتابعة قد اختلفت نظراتها إليه . وتقديراتها له ، ومحاولاتها حوله ، فما الصورة التى أزعم أنها — من بين تلك الصور — هى الإسلام المتحدث عنه ؟ (١)

إن فهم الدين يتأثر فى كل عصر بالمستوى العقلى والاجتماعى لأهل هذا العصر ؟ إذ لن يستطيع الناس أن يسبقوا زمنهم ، ولاأن يرتفعوا على الدرجة الاجتماعية التى يضعهم فيها وقتهم ودورهم فى الحياة ، بل إن الطابع السياسى يلقى ظله على الحياة الدينية ، أمانا وخوفا ، تحررا وتزمتا ، وثوقا وريبة ، رضى وسخطا ، أملا ويأسا ، وكل هذه العوامل النفسية لها آثارها الكبيرة فى ربط المشهود بالغيبى ، فى الالتزام بقواعد وأنظمة وفى الخروج عليها فى الاطمئنان إلى صحة ماوصلهم وفى الشك فيه .. الخ ..

وإن الناس — حين يوجهون أى توجيه ، فى الدين ، أو فى الفلسفة ، أو فى الفن — لن يفهموا منه إلا ما يلى واقعهم ، الحيوى ، ويقاس به ، وينسب إليه .. ولن يطفروا فى تمثلهم للمستقبل إلى مالا تصوره لهم المقابلة بما هم فيه من حاضر ، والقياس على ماأدركوا من واقع ..

---

(١) انظر : (نظرات الإسلام الاجتماعية) خط .

ومن هنا ندرك أنه ليس شىء فى الدين ومن الدين إلا هو تفسير لحياة الإنسان فى هذا العالم ، وتدبير لتلك الحياة، على أى وضع من الأوضاع كان هذا الدين وفى أى صورة من الصور وجد . .

وللإنسانية إلى جانب هذا التفسير والتدبير الدينى محاولات أخرى فى سبيل هذا الفهم لحياة البشرية على هذه الأرض ، وتنظيم لتلك الحياة بما يصلحها ويسعدها . .

لكن التفسير الدينى أوسع مدى وأعمق جذورا ، وأفعل تأثيرا . . .

. . ولأن التفسير والتدبير الدينى يتبادل مع غيره من التفاسير والتدابير والتأثير والتأثر ، كما تداول وإياها الغلبة والانتصار ، ولأن الدين فى هذه الحياة لا مفر له من التفاعل والتبادل مع سواه من فهم لتلك الحياة ، ولأنه أقدم ظاهرة اجتماعية فى حياة البشر — كان من الضرورى أن تتوفر له القدرة على المسايرة ، والمفاعلة والاستفادة ، والانتفاع بما سواء من التفسيرات والتدبيرات الأخرى . .

وهكذا يتبين لنا فى وضوح أن الدين — فى أى حال من الأحوال — قد احتاج ، ويحتاج إلى التطور والتجدد على مدى الأدهار ، وبفعل العوامل القوية ، بل العنيفة ، التى تصطخب حوله ، وتتدافع أمواجها الجارفة فى قوة وجبروت . .

ومن أجل هذا الاطمئنان إلى طبيعة الحياة الدينية يكون الاختلاف فى فهم أهل الإسلام له ، ويكون ذلك الفهم فى أمسه الدابر فى مستوى أهل ذلك الأمس ، عقليا واجتماعيا ، كما يتأثر فهمه بمستوى من يحاولون الفهم اليوم أو غدا أو بعد غد . .

وكون الإسلام آخر عهد الأرض بتوجيه السماء إنما يقرر أن البشرية قد بلغت لعهد ظهوره مبلغا من التدرج والتقدم ، يهيء لها أن تنفرد باستعمال قواها الإدراكية فى تنظيم حياتها، مكتفية بها فى الاهتداء إلى

المرامى الحيوية التى قصدت الرسالات السماوية والدعوات الدينية إلى تحقيقها بتوجيه السماء : :

وإنه كذلك لأصل كبير فى إمكان تحرير الآدمية من قيود الغيبية اللاهوتية ، ورفع الحواجز من طريق محاولاتها للمعرفة ، وجهدها فى تنظيم الحياة تنظيما صالحا موفقا . . فقد قدر تجدد الحياة المستمر ، واحترم المحاولات الإنسانية التى يبذلها الناس فى استنباط حلول المشكلات العارضة والحاجات المتجددة ، على هدى التوجيه الدينى ، واعترف بحق القوى الإنسانية فى تفسير الحياة وتدبيرها ، تفسيرا مستقلا منطلقا وخصص التفسير والتدبير الإسلامى للحياة بالشئون الخلقية المصلحة لنفوس الناس وقلوبهم ، والمقومة لسلوكهم ، ولم يخض فى شئون غامضة عن أصل الحياة فى الأرض أو نشأتها وتدرجها ، أو كيفية انتهائها ، وما إلى ذلك مما يقيد النشاط الإنسانى فى سبيل هذه الحقائق ، ولم يتناول أمورا جزئية ولا تنظيمات تفصيلية ، لما يعرض له من الشئون الدينية والدنيوية [1] .

(٣)

التجديد . . بل التطور

« إن التجديد فى الدين حقيقة صريحة ، لا فكاهة فيها ولا مروق — إن شاء الله — ففى الدين فكرة صريحة عن التجديد ، تبين ناموسا كونيا ، وتنسبه إلى سنن اجتماعية مطردة ، لا تتبدل ، إذ ورد فى الحديث « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » أو ما هذا معناه[2] » : :

والقدماء يعنون بهذا التجديد — فى عامة قول من عدوا فى المجددين — أنه إحياء السنة ، وإماتة البدعة ، أو إحياء ما اندرس ، وما يشبه هذا التعبير . .

---

(١) (نظرات الاسلام الاجتماعية) بتصرف .

(٢) التجديد فى الدين — الرسالة — أول فبراير سنة ١٩٣٣ .

وبعضهم قد يفضل مجدد مائة على غيره ، لما له من دفاع عن أصول العقائد ، أو عن الفروع الفقهية . . لكنهم يؤثرون المنزع العملي في التجديد ، بدليل :

١ — أنهم يعدون من المجددين خلفاء ، يبثون العدل ، ويحقنون الدماء ويقيمون الشرع . .

٢ — يعتبرون منصب المجدد منصبا اجتماعيا عمليا، وقد يرتفع إلى مرتبة قريب من النبوة . .

٣ — يعللون الحاجة إلى التجديد بالمحن الاجتماعية والسياسية ، ولذلك يتعدد المجددون في الوقت الواحد بتعدد نواحي العمل .

وحسبك من قولهم في معنى التجديد ما ورد في (بغية المقتدين ومنحة المجدين على تحفة المهتدين . . الخ) للشيخ محمد المراغي الجرجاوي من عبارة النظم والشرح ممتزجتين :

(إنما كان مجددا ، لأنه — أي المبعوث فينا — مجتهد ، وشأن المجتهد التجديد) . .

ومن ثم فإن الذين لا يجددون لا يأثمون بجمودهم إثما واحدا ، بل آثاما كثيرة ، إثما لأنهم لا يتجددون، وإثما لأنهم لا يجددون، وإثما لأنهم يعوقون المتجددين المجددين في تعنت أصم ، لا يميز الخبيث من الطيب مهما تبينا ، ولا يعرف داعي الله من داعي الشيطان . .

. . وإذا كان التجديد عند القدماء ليس إلا حماية للدين وكيانه بالصورة الأولى التي أدى بها ، دون تدخل بفهم جديد ، أو تطبيق جديد يمكن أن يعد مسايرة لتغير الحياة الذي هو معنى تطوره فإن المجدد المناضل عن العقيدة مثلا قد ابتكر فعلا — على ما هو معروف تاريخيا — وسائل جديدة في عرض العقيدة وتصويرها عرضا وتصويرا جليا مؤيدا بالأدلة التي تكون عدة للمدافعين عنها، كاتخاذ المنطق اليوناني

الحديد طريقا للاستدلال ، وكالذى يعرف من اختلاف طريقة السلف فيما يوصف الله به من مشابهة الحوادث ، وهى التسليم بلا تأويل ، واتخاذ من بعدهم طريق التأويل وعدم الاكتفاء بالتسليم . كما كان عمل المناضل عن أصول الدين الاعتقادية، وعن أصول الأحكام العملية، عملا لايخلو من التطور ، لأن مهمته كانت معاونة هذين الجانبين من العلم والعمل الدينى على التقدم ومتابعة سير الحياة بخطا لم يصلح شئ من هذين الجانبين الدينيين للبقاء إلا بها .

وحين نجد الإمام الشافعي يقول : (لا أجعل فى حل من روى عنى كتابى البغدادى) بعد انتقاله إلى بيئة جديدة بمصر ،ونظره فيما ألف ببغداد— فإنما نشارف من فهم الأقدمين وقولهم المعنى الواضح الصريح للتطور وأنه تغير وانتقال من حال إلى حال ، تأثرا بعوامل مادية ومعنوية تتعرض لها الأحياء،والكائنات المعنوية ، بفعل ناموس صار فى حساب العلم اليوم ثابتا ، فى جملته ، ومفهومه العام ، وأصله الكلى، مهما يجر الاختلاف على تفاصيل هذا التطور وخطواته أو فلسفته وتفسيره وتعليله .

. . والقول بأن القوى الحيوية الدينية تشبه نبعا، نبع صافيا عذبا سائغا ، ثم مضى يجرى فى وادى الحياة ، فعلق به فى مجراه ما يعلق عادة من أعشاب وطحالب ومواد ذائبة من أرض المجرى ، بل يتكدس من هذه الأشياء جملة ما يضيق به المجرى ويبطئ سير التيار الحيوى ، فتتوقف مياهه حتى تركد وتأسن ، فى وقت ما ، وعند مكان ما ، فيحسب من رأى هذا الماء فى زمانه ومكانه المتغيرين أنه كذلك كانت طبيعته دائما ، مع أنه هو الذي كان فى الواقع نميرا سائغا ، حينما فاض من عينه الأولى فإذا ما تابع الناظر هذا المجرى الذى فيه الماء الآسن أخيرا ، وتتبع مجراه حتى وصل إلى منبعه الأول ، فسينكشف له ما فى هذا الماء من عذوبة وحلاوة وصلاحية لإنبات الزرع وإحياء الأحياء : .

وعليه فالتجديد أو الإصلاح عندهم شبيه بهذا العمل فى الرجوع إلى المعين الأول للاستفادة منه ورد الناس إليه ، ليعرفوا أن هذه الرواسب والعوائق ليست إلا طارئه عليه ، فإذا ما نحوها عنه عاد عذبا فراتا . .

مع أن إصلاح المجرى وصيانة عذوبة الماء وفائدته لا تقف أبداً عند الرجوع إلى مصدره للاستقاء منه ، بل يعد الرجوع إلى المصدر نفسه عاملا من عوامل إكثار الماء وحمايته وصونه وزيادة الانتفاع به.. وذلك هو التجديد أو الإصلاح التطوري .

ولاغرابة فى المطالبة بالتطور فى هذا الميدان، لأن النظرة الدقيقة السليمة الأساسية تبين أن هذا الناموس فى تطور الكائنات المعنوية يبدو أكثر وضوحا فى حياة الأديان وتدين الإنسانية ، لأن الأديان — على اختلاف أزمانها المتباعدة ، واختلاف حملتها من المرسلين جنسا ودما — إنما تؤلف وحدة متكاملة لجانب من النشاط الإنسانى ، فترسم الصورة المتماسكة لظاهرة التدين فى تاريخ البشرية .

والأديان نفسها تشهد على نفسها ، بعبارات من الآيات المختلفة ، أنها مقررة لناموس أصيل ؛ كما تقول المسيحية ، وكما تعتبر العهد القديم من التوراة وما معها متكاملا مع العهد الجديد ، من الانجيل ، وكما يقول القرآن إنه مصدق لما بين يديه .

ثم هى مع ذلك ليست تكرارا لصورة واحدة من الرسالة ، ولا لشخصية واحدة من الرسل ، بل لكل رسالة طابعها الملائم لزمانها ، ولأسلوب التحدث إلى أهله ، ولكل رسول شخصيته الحيوية ، التى تناسب رسالته ، وتوائم أهل زمانه ..فإذا ماانتهى الأمر إلى مرحلة تعى بها البشرية ماحولها وتخطو مستقلة بتفكيرها مع الكليات الدينية العامة — كان ما كان من ختم الرسالات السماوية .. ومع هذا التطور الواضح فى الرسالات السماوية ، نفسها فانها تقرر وحدة الأصل ، وتجعل اللاحق مكملا للسابق ، وذلك هو التطور ، لاغيره .[1]

---

(١) انظر : المجددون فى الإسلام ص ١١ — ٣٦ .

وأسس التطور فى الاسلام تتمثل فى :

١ — إمتداد دعوة الإسلام وحيا إلى الناس كافة ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ..ومايترتب على هذا من حاجة إلى ملاءمة أحوال الناس المتغيرة جيلا بعد جيل ..

٢ — اقتصاد دعوته فى الغيبيات ، وإراحة العقل منها بترك التفاصيل ، حتى يكون الفهم الحر لكل جديد من خفايا الكون ، تعرفه الحياة على مدى الأيام..

٣ — عدم تورط القرآن — دستور الإسلام — فى بيان شىء عن نشأة الحياة على الأرض ، وظهور الإنسان ، ومامر به ذلك كله من أدوار وسنين تلك الأدوار ، ومايتصل بذلك ، مما تورط فيه غيره — ترك للعلم طريقه يخب فيه ويضع ..

٤ — عدم تورط القرآن فى شىء من تفاصيل تاريخ الأمم والرسل التى عرض لأحوالها جملة ، أو مع بعض التفاصيل ، بيانا لسنن الاجتماعات فى حياة الدعوات والرسالات ..

٥ — اقتصاره فى تنظيم الحياة العملية ، بالعبادات وغيرها ، على الأمور الكلية والأصول العامة الشاملة ، دون التفاصيل المفردة والجزئيات الصغرى ..

٦ — جعل الاجتهاد أساسا للحياة الإسلامية .. وما الاجتهاد إلا الانطلاق مع الحياة ، وفاء بجديد حاجاتها[1] . .

وهنا حق علينا أن نحرر العقيدة الإسلامية اليوم تحريرا يحمى إيمانها بالعلم ، وثقتها بسنن الله الكونية ، ونستفيد من اختلاف المذاهب الفقهية فى العبادات ، فننتخب مانراه أيسر عملا ، وأصلح مسايره للحياة ، وأخف وقعا ، وأعمق أثرا ..

والأمر فى المعاملات ليس إلا أمر مصلحة واقعة حيثما وجدت فثم حكم الله[2] .

---

(١) انظر المجددون فى الأسلام ص ٣٨ — ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٥١ — ٥٧ .

(٤)

أزمة التدين وعلاجها

الدين فى جوهره وحقيقته ، إنما هو عقيدة وإيمان ، أول شيء ، وخلاصة كل شيء ، وأساسا لكل شيء ينعت بأنه دينى . . من سلوك ، أو تعبد ، أو تشريع . أو غير ذلك . . .

بهذه العقيدة وذلك الإيمان تستبين المعرفة الدينية من غيرها من المعارف ، ويفترق العمل الدينى عن سواه من الأعمال ، ويتميز التفكير الدينى عما عداه من تفكير . .

والعقيدة فى جوهرها وحقيقتها إنما هى عنصر نفسى مسيطر ، وإلهام لاشعورى متغلب ، نحو معنى يمنحه المؤمن من إجلاله ، وإيثاره ، وحرصه ، وتقديسه ، كل قوة ، ويراه أمنع من أن يمس ، أو يهاجم ، أو يهان ، حتى ليبذل فى سبيله الروح والمهجة ، وكل ما ملكت اليد ، شاعراً أنه يتقرب بكل ذلك ، ويتطهر . .

ولا يمنح الإنسان هذا كله لأى فكرة ، أو معرفة ، أو حقيقة ، لا يظللها الإيمان ، ولا يغشيها الاعتقاد ، ولا تحل هذا المحل الوجدانى المنيع المكانة ، الممنع المنزلة .

ومن هنا يكون الإيمان الصحيح ، والتدين الراسخ ، والاعتقاد القوى ، على قدر القوة الوجدانية ، والسيطرة النفسية ، وبهذه الوجدانيات يقدر الإيمان ويقاس التدين . . .

وما هذا الأفق الأعلى ، والعالم الأسمى إلا جانب الكون الذى يتنفس فيه الإنسان أنسام الجمال ، ويشيم أنوار الجلال ، فيطور ، ويشف ويسمو ويتجرد ، فيستروح الاطمئنان ، ويستشعر اليقين ، ويجد السلام النفسى ، والأمن الروحى ، بل يظفر بالاتساق الجسمى المادى العضوى[1] . :

---

(١) دين وفن — الأدب — أكتوبر سنة ١٩٥٩ .

فهل من يستشعر اليوم هذا الأفق الأعلى ، فيعمق إيمانه ، وتصح روحه ، ويسلم وجدانه ، ويشف ذوقه ، ويتمثل المجردات ، ويلمس المعنويات ، ويستروح الأمن والسلام ، وتجد القدرة على أن يضحى ، ويسخو ، ويخصب الحياة ؟

إننا نحيا عصرا يغمره نشاط حيوى ، وتجدد مستمر ،وتغير سريع ، لعل البشرية لم تتعرض لمثله بهذه السرعة ، فى عصر من العصور . ولا عجب . . لأنه تطور هيأت له العصور التى قبله حتى توافر للبشرية هذا النشاط ، وأمكنها أن تجد وتدأب فى تجدد الحياة جدا تنتفع فيه بكل ما عرفت الدنيا حتى اليوم .

وأصبح ما بين قديمها وجديدها بونا شاسعا ، قعد بالمواريث عن أن تجد سبيلها إلى الحياة فى صورتها التى أحالها غبار القرون ، لأن صورة الحياة أخذت لونا جديدا ، ومادة الحياة تغير مذاقها ، وإنسان هذا الزمان تبدلت به الأرض غير الأرض ، وأكسبته البيئة الجديدة فهما جديدا ، وحسا جديدا ، وقدرات أبعد عن تصورات الماضى وأحلامه .

ومن هنا كانت أزمة التدين ، لأنها أزمة الماضى ، وعدم قدرته على أن يعيش فى الحاضر دون أن يتحرر من أغلاله . . أزمة تقوم على :

١ — عامل ما بين الدين والعلم من صراع عرفته البشرية منذ عهد طويل .

٢ — غموض العقائد الدينية ، بل تعقدها ، فى غير قليل من الأديان . .

٣ — عدم الملاءمة بين العقائد أو العبادات أحيانا وبين سير الحياة الحياة اليومية ، التى تؤخذ اليوم بكثير من الجد ، والدقة المنظمة .

٤ — صعوبة التطور فى البيئة الدينية ، مع ضرورته لها باعتباره سنة كونية ، وناموسا مقررا لا مفر منه .

٥ — الرياسات الدينية وأثرها فى حياة الجماعات وتعاون السلطتين الدينية والدنيوية على حساب المجتمع . .

تلك هى كبريات العوامل التى يمكن أن تفسر بها أزمات التدين فى مختلف الأديان ، وعلى تغاير العصور . . وإن كانت أكثر وضوحا فى عصرنا هذا . .

وهناك عوامل ثانوية ، وأسباب لأزمة التدين أمام الحياة ، مثل : عجز رجل الدين عن أن يعرض الدين عرضا خلابا مؤثرا ، يستعمل فيه ما حوله من المؤثرات التى تجعل لعرضه الدين وتعريفه به وقعا محببا . . ويتصل بذلك قصور الدعاية الدينية وفتورها ، وممارسة مناسباتها فى الخطابة الدينية ممارسة آليه شكلية غير فعاله [١] . .

والإسلام بقدرته على التجدد والخلود لا تمر به هذه الأزمة إلا من خلال رجاله ، أما مبادئه وتعاليمه فانها تدل دلالة قوية واضحة على :

١ — أن الإسلام رسالة المعرفة ، ومستقبل الإسلام من ناحية صلته بالعلم لا خطر فيه ، بل لا يؤمن الإسلام فى هذا المستقبل إلا أن يحرر العقل والعلم أكمل حرية يمكن أن تتحقق لهما . .

٢ — العقيدة الإسلامية ، كما حملتها أصولها الأساسية ، وكما تلقاها قد نجت تماما من أسباب التعقيد والغموض ، وظفرت بأكثر ما يمكن أن يظفر به من الوضوح ، واليسر ، والقرب ، والسهولة والتكشف . . . وما تراكمت تلك التلال من المشكلات الاعتقادية التى تتسع لها رقعة كتب الكلام الفسيحة إلا من تأثير الفلسفة اللاهوتية ، وعلى ضوء المعرفة لهذا وما إليه تفسر الأصول الاعتقادية فى الإسلام تفسيرا يمهد لها الطريق إلى النفوس ، ويمكنها من أن تقدم للبشر ما يسد تلك الحاجه النفسية إلى التدين والإيمان . .

---

(١) الاسلام والمستقبل — الأدب ديسمبر سنة ١٩٦٣ م .

٣ – تحرير العقيدة الإسلامية من عدم الملاءمة للحياة الواعية العاملة المسئولة يمكن منه : يسر الإسلام ، وعدم الحرج فيه ، وعدم المضارة لأهله ، وتقدير الواقع ، وتذليل ما يخالفه من آراء وأعمال[٢].

٤ – كون الإسلام دينا عاما للإنسانية كلها ، خالدا باقيا ما بقيت البشرية ، لا يمكن أن يتحقق إلا بوعى يقظ لما تحتاجه البيئات الإنسانية المختلفة باختلاف الأنحاء والأهواء ، ويجعل التعاقد والأعمال وكافة الأسس الدينية فى الوقت الواحد مرنة ، تتسع للألوان المختلفة ، والطبائع المختلفة . .

٥ – فعل الزمن بكل ما هو مادى معنوى قد أوجد فى حياة الإسلام صورا من الرياسة ذات الصفة الدينية ، ولا سيما متأخر عصوره ، ومستقبل الاسلام مع وجود هذه الطبقة مهدد ، لما تفقده من الحيوية ، وما تمنعه عنه من نور . .[١]

لذلك يجب أن نفرق بين عمل الناس وواقع تاريخهم ، وبين حقيقة الإسلام وجوهره الأصيل الباقى الصالح للدوام والخلود . . وألا نعتبر صنيع القوم ، لا واقع التاريخ ، شهادة على الإسلام ، بقدر ما هو شهادة على المسلمين ، فإن كان فى تطبيقهم للإسلام ما يساير أصوله تلك الباقية المثالية فذاك ، وإلا فلا بد من عمل جاد تتضافر له جهود الواعين الغيورين ، حتى نحرر هذه المبادئ السامية من ركام الفلسفة والمذهبية والعصبية والتقليد والموالاة والتواكل والجمود . . الخ وحتى نحرر أنفسنا من ركام الجهل والتبعية والتأخر والخوف . والاستسلام لقيم دخيلة ومعايير جائرة وأنظمه فاسدة . .

(٥)

الإسلام والوحدة الإنسانية

لعل من أخطر عوامل الأزمات الدينية الجدال المصطرع والخلاف الحاد بين الأديان ، فى مجتمع اليوم ، الذى تزحمه مذاهب هدامة ، تفلسف الماديات

---

(٢) الإسلام والمستقبل – الأدب يناير سنة ١٩٦٣ م .

وتعددها صانعة الحضارات ، وتشكك فى الدعوات السماوية ، فى الوقت الذى يشن فيه رجال الدين على الأديان الأخرى حربا خفية أوعلنية ، فى البيوت والمعابد والمعاهد والجامعات ،و..و..يقيم كل فريق الحجة على ضلال الآخر حتى بطل فى تقدير الكل ، أو بطل الكل أمام من لايدخل فى طرف من هذه الأطراف من الأحرار .. وكان لهذا الصراع أثره القريب والقوى على كل حقيقة دينية عند أشد معتنقيها حماسة لها ، ويقينا فيها ، لأن الضجيج المثار حولها ، والإبطال الدائم لأسسها ، له أثره النفسى الذى لاينكر فى زعزعة الثقة بها بلا شك .. وفى استمرار الهجوم زعزعة لثقة الواثقين ، فكيف بالضعفة المتشككين ؟

فهل نترك هذه الحرب الغريبة الدائرة الرحى سرا وعلنا؟ ولخير من هذا لاأحدث عن الحياة والأحياء ، ولكنى أسأل أصحاب الدين أنفسهم ، ألخير الأديان والتدين هذه الحرب ؟

وإذا كانت هذه الحرب لشىء — أى شىء — من خير الأديان والتدين ،فى وقت ما ، فهل هى لخير الأديان والتدين الآن ، وفى هذا الوقت الذى انتزعت فيه من أراضى التدين تلك المساحات الشاسعة التى تربى على نصف الكرة الأرضية ؟ . (١)

إن الأديان كلها تحدث عن منبع مشترك ، عن غايات مشتركة ، (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولاتفرقوا فيه) .. فهل مادخل على هذه الأديان مع الزمن من التغيير ، وماجرى حولها من التخالف والتناكر يغطى على الحقيقة الواحدة التى شرعها الله فيما وصى به الرسل المتعددين ، والوحى المماثل الذى أوحاه إليهم جميعا ؟ :

---

(١) سلام دينى يحتاج إليه الدين والحياة — المجلة — مايو سنة ١٩٥٧ م .

وما بالنا نفرق أنفسنا فى تيار الدعاوى الكاذبة ، والعصبيات المهلكة ، وكلها جميعا دخلية على الدين والمتدينين ؟

ومابالنا لانتحد لنقيم شريعة الله فى الأرض ، ونقضي على عوامل الانقسام والاضطغان وأسباب الشر والفساد ،ومظاهر العنصرية المستعلية الظالمة ، حتى يجد الناس أمنهم وسلامهم ؟

لقد أسست الأسطورية للعنصرية فيما قبل التاريخ المكتوب ، وعرف ذلك عن الأمم المختلفة ، فلما دون التاريخ وجدناه هيأ لهذه العنصرية فى أمة من الأمم ، بأسباب اقتصادية واجتماعية ، فحكمت وغلبت . وزعمت لنفسها — من ميزة الجنس وفضل الدم وشرف العنصر — مازعمت ، وإذا هى الشريفة الممتازة ، ومن عداها من سائر الدنيا دونها ، وأقل من مستواها ..

وقد انعكس أثر العصبية على الفكر السياسى والدينى حتى اعترف من فقهاء المسلمين بفضل العربى والقرشى والهاشمى ، مع أن فى الإسلام من التسامى وبعد الأفق مايهيء لفهم أرقى وأكرم ، مما قالوا به حين خضعوا للمؤثرات السياسية ..

ومع مضى عشرات الأجيال ، وتقدم البشرية فى عقلها وعلمها وتجربتها واختراعها ، وتسخيرها لقوى الكون ، عاليه وسافله، لم تحرز البشرية تقدما بهذه النسبة فى تخلصها من أوهامها ، واستعلائها على موروث مزاعمها بل لقد شاب علمها بعض هذه الأوهام خطأ، لتأييد بعض هاتيك المزاعم حتى كانت دعاوى شعب الله المختار والآرية والجرمانية ، ثم اللون الأبيض ولكل ذلك أثره البشع الرهيب على أبناء آدم فى استئصال الأحقاد ، واستلال الضغائن ، وتطهير القلوب ، وتزكية الأرواح ،لتتعاون جميعا على جهد مشترك ، فى سبيل حياة أسعد ..

فهل نرجع بكم عشرات القرون لنقول لكم : (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا

من دون الله) ، أو نتفهم مافى الإسلام من فكرة إنسانية ،وروح سامية طامحة للخير والسلام، تقال خسارة الحياة بهذه العنصرية المحطمة المفسدة ؟ [1]

لقد نهى القرآن عن البحث فى الروح والساعة وأشباه لهامن مغيبات ، لا ليحد نشاط العقل فى ميدان من ميادين المعرفة، وإنما ليوجهه إلى التخلص من متاهات الغيبيات ، ومآزق اللاهوتيات ، ومجاهل ماوراء الطبيعة، ليكون السلام الفعلى الذى ظفر به العقل منذ صدته تجربته عما وراء الطبيعة ، وردته إلى العناية بالطبيعة . . يكون سلام عقلى يخرج إلى بهرة النور ، ويريحه من ظلام الغيبية ، وانطلاق جاد فى السموات والأرض يهيء له كل مايستطاع حرية فكرية ..

ولم يربط القرآن المؤمنين بأخوة قائمة على وحدة النفس والأصل (إنما المؤمنون إخوة)إلا لتوفيرجو معنوى ، يعقد فيه الإيمان بين المؤمنين من شعوب الأرض جميعا—نسبا بإيمانهم لا بدمائهم ، وبأرواحهم لا بأجسامهم ، وبوحدة الغاية فى الحياة ، لا بوحدة العرق وسيطرة الجنس ..

وثمة آيات تجهر بوحدة النفس ، بذكر الخلق (من نفس واحدة) صريحا جليا ..

وهذا الإفراد والتنكير فى (نفس) ، ثم وصفها بالوحدة بعد ذلك
وهذا الإفراد والتنكير فى (نفس) ، فى المواضع المتعددة ، يدل على العناية بمعنى جلى من هذه الوحدة النفسية الإنسانية ، واللفت إليها ، فى قوة واضحة ، مما يدل على قوة حس القرآن بما يلزم هذه الوحدة النفسية من تواد وتآخ وتواصل وعمل ضد العنصرية وأوهامها ومفاسدها ..

بل إن القرآن يحدث عن الوحدة النفسية ، والأخوة الروحية ، والمماثلة المعنوية على أنها شىء فطرى ، وأمر خلقى ، فى طبيعة البشر وجبلتهم لا لأنها أمر يرجى منهم تحقيقه ،أو مثل بعيد الأفق يطلب منهم

---

(١) العنصرية فى التاريخ — من (نظرات لاسلام الاجتماعية) خط الأستاذ الخولى .

العمل له ، والوصول إليه لا غير ، (خلقكم من نفس واحدة .. أنشأكم من نفس واحدة) .. فاذا كان (الخلق) فى العربية أصله التقدير المستقيم ، والإبداع على غير أصل (والإنشاء)هو ابتداء الخلق فالمعنى الثابت هو أنه على هذه النفسية قد ر وجودهم وأبدع وأنشأ ..

والوحدة النفسية التى قد ر بوجود هم عليها هى فى كيانهم أصل وفطرة ثم هى حسن واستقامة .. (الذى خلقك ، فسواك ، فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك) .. والعنصرية المنكرة لهذه الوحدة ، المفسدة لهذا الإنسان ، المحطمة لهذه الاستقامة ، إنما تحرم الإنسان من التقويم الحسن ، بل الأحسن ، ومن التسوية والتعديل .. فالوحدة النفسية فى حس الإسلام هى جمال الإنسانية واستقامتها ..

وسياق حديث القرآن عن الوحدة النفسية الإنسانية إنما هو سياق تعداد النعم ، ومقام التذكير بالمنن ، دفعا للناس إلى معرفة خالقها وتقواه بشكره عليها .. والشكر عنده هو حسن استعمال النعمة فيما منحت له وأعطيت لأجله فإذا لم تحسن البشرية استعمال هذه النعمة ، بل كفرت بها ، وأضاعت هدفها ، وارتكست فى تلك التفرقة المتناحرة وذلك التباين المهلك بالعنصرية وما إليها ، فقد ولت منتكسة ، بدل أن تتقدم مرتقية ، وضلت غاية وجودها وفقدت مثال كمالها ..

وهنا تكون الوحدة النفسية دين البشرية ، معنى من الاعتقاد وقوته ، والتدين وروعته ، يقوله البر والفاجر ،ويسيغه المؤمن والجاحد جميعا[1] .

فهل لنا — نحن رجال الدين — أن نأخذ أنفسنا بهذه الدعوة الإنسانية السامية ، فنحرق النصب الباطلة ، ولانتخذ إلهنا هوانا ، ونثوب إلى رشدنا نحمى وجودنا ، ونصون مقدساتنا ، على وعى كامل بما هدفت إليه الأديان، ودعت إليه ؟

---

(١) الإسلام والوحدة الإنسانية– (نظرات الإسلام الاجتماعية) خط للأستاذ أمين الخولى .

(٦)
تحرير .. لا عتق . .

القارئ المعتد بإنسانيته ، الطامح إلى غد لها سعيد ، يأسى لهذه النظرة القاتمة المتخاذلة إلى مضى جهاد الإسلام فى سبيل هذا المستقبل ، إذ لم تكف حياة رسوله لتقدير أصول عمل إصلاحى والتدبير له ، حتى كان لابد للبشرية أن تظل ألف سنة ومئات ترسف فى أغلال الاستعباد المهدر لوجودها قبل أن تقرر تحريم الرق من حيث المبدأ ..

أما القارئ الذى له اطلاع على الثقافة الإسلامية فسيذكر الكثير من محاولات المفكرين المسلمين فى رفع مستوى الآدمية رفعا لا يمنعها من مشاركة عالم الملائكة ، بل يدنيها من عالم الألوهية ..

ومادام التفكير الإسلامى القديم قد تطلع إلى مثل هذا المركز السامى للبشرية ، فانه لا يليق بنا اليوم أن نقبل فى فهم الإسلام ومقرراته ذلك الأسلوب اليائس المتداعى الذى يقوم على أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان من تقرير الفقهاء والمفسرين القدامى ، وواقع حياة المجتمع الإسلامى على عيوبه فى عصبيته الجنسية العنصرية ، وطبقيته المسترقة التى تبيع الإنسان ، وتمتهنه بالرق .. ولا أن نقبل فى فهم الإسلام تلك النزعة الدفاعية التى تعنى بتبرير الأوضاع الإسلامية ، لأن لها نظائر وأشباها فى عقائد الناس ونظمهم ومالى ذلك من دفع اللائمة بأى وجه أو حجة أو تنظير أو اعتذار ، دون فهم أصيل أو عام شامل للإسلام ، مؤسس على منطق معين ، ومنهج خاص .. وإلا فماذا كانت تفعل الإنسانية لو أنها أخذت بهذا التبرير للأخطاء بوقوعها ، فرأت فى بيان أرسطو وأفلاطون والقديس توما الإكوينى ، والحضارة اليونانية كلها ، ما يجعل الرق واقعا مستساغا لعهدهم ، ومن ثم لاتفكر الحضارة الصاعدة فى إلغائه والتعاهد على إبطاله؟ !

وماذا يجدى الإسلام ذلك العرض الخطابى الاستهوائى الذى لايثبت على البحث، ولايقنع مفكرا ينظر من أفق فسيح ، وبسعة فكر لايهزها

مثل قول القائل [١] : (شرع الإسلام العتق ، ولم يشرع الرق ، إذ كان الرق مشروعا قبل الإسلام فى القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه) ، وكأن العتق لم يكن موجودا قبل الإسلام ، وليس هو الذى شرعه [٢] ؟ .

لئن كان فهم الحاضر للإسلام — كما ترى — لايقنع باحثا ، ولا يدفع نقدا ، ولايحقق خصائصه الكبرى ، التى يريد أن يمتاز بها ، فقد وجب إذن البحث عن فهم آخر للإسلام يقوم أول مايقوم على منهج راسخ الأصول يقنع المفكر الحر ، ويحقق خواص الدعوة .. الخ ، وهذا ما نحاوله ، بل مايجب أن نحاوله فى قوة ، لنبين كيف ينبغى أن يفهم الإسلام فهما بريئا من كل مانسب إليه ، أو حمل عليه ، أولون به ، سواء فى الماضى البعيد أو الحاضر القريب [٣] . .

لقد كان الرق حين ظهرت الدعوة الإسلامية نظاما مستقرا فى أنحاء الدنيا ، وللناس فيه مرافق ومنافع . بل لهم فيه رغائب ولذائذ ، فهم لايفطمون عن مثل هذا الوضع المستقر اللاذ إلا برياضة حكيمة صابرة خبيرة ..

وكان للعرب نصيبهم من نظام الرق ، وهم أولئك القوم البداة السذج الذين تبهرهم المظاهر ، وتزدهيهم المفاخر .. والرقيق فى هذا الجو مفخر ومظهر ، وزينة ووجاهة ، فوق الذى فيه من رعاية المال وتوفير الثراء ، والخدمة الطيعة ..

وبكل أولئك تشق مهمة الإسلام فى الصرف عنه ، والتنديد به ، والتدبير للقضاء عليه ، فكان الظن أن تكون محاولة الإسلام فى هذا السبيل متئدة ، متأنية ، متلطفة ، فى شىء من التباطؤ ، لكثرة مايعمل لتغييره

---

(١) العقاد فى (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) — دار الهلال — ص ١٧٨

(٢) الفصل الأول من (نظرات الإسلام الاجتماعية) .

(٣) الخولى فى مقال : فهم الاسلام أمس .. واليوم .. وغدا — العربى — أكتوبر ١٩٥٩م

من نظم ، هى بالدين أمس ، وإلى جوه أقرب ، أو هى أقل أهمية فى في حرص الناس ، وتوفير منافعهم ولذائذهم من ذلك الرق ..

فهل كان الأمر كذلك فى نظر الإسلام إلى الرق ، وتدبيره لتغييره ؟

هل خفف وقوعه وشيوعه وقوة الرغبة فيه حس الإسلام بسوء أثره ؟

هل عنى الإسلام بتغيير نظم غير الرق ، وأخر اهتمامه بمقاومة الرق إلى ما بعد غيره ؟

هل أثر حرص السادة على الرق وانتفاعهم به على تدبير الإسلام لمقاومته؟

هل كانت مقاومة الإسلام للرق فعالة كافية للقضاء عليه مع الزمن والتطور؟

إن الإسلام يسمى الإنسان خليفة الله فى الأرض ، وهو يأمر الملائكة بالسجود له ، وهو يكرمه ، ويفضله ، وهؤلاء الأرقاء بشر من أبناء آدم فهل ترى القرآن نسى أو تناسى لأى سبب هؤلاء الأبناء الذين قست عليهم ظروف العيش العملية ؟

إن القرآن لم يستعمل كلمة (الرق) ، ولم يسم هؤلاء الآدميين (الأرقاء) بل سماهم تسمية تؤكد إنسانيتهم فى تقديره . . إنه يسميهم الرقاب والواحد منهم رقبة ، والرقبة جزء من الجسم الإنسانى أصيل فى الحياة وموضع لهدم تلك الحياة بضرب الرقاب ، فوق ما فى العدوان على هذا العضو من علامة الذل والإهانة . .

وإلى جانب ذلك لم يستعمل كلمة (العتق) ، بل استعمل مكانها (التحرير) ، ومن معانى الحر فى العربية الأصيل والكريم والخالص الجوهر ففى الاستعمال القرآنى (تحرير رقبة) إشعار قوى بإنسانية هذه الرقاب بل بأصالة إنسانيتها .. كما استعمل (فك رقبة) ، وفى هذا الفك لفت قوى إلى ما وضع هؤلاء الآدميين من سجن وضيق وخنق وأسر . .

ولئن لفتنا أن القرآن فى العصر المكى بادر إلى مقاومة الرق ، تلك المقاومة المشفقة المتراحمة ، ولم يشغل عنها بأهم ما شغل الدعوة

الإسلامية ، فإنه لا يفوتنا أن هذا القرآن قد قدم تأمين الحرية الإنسانية على تأمين الحاجة المادية (فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة) .

وليس فى القرآن استرقاق ، فالأمر فى الأسرى بين (من وفداء) ثم إن الإسلام لا يوجب استرقاق الأسرى ، فما قرره الفقهاء أن استرقاق الأسير مفوض فيه الحق للإمام الذى يتولى أمر الأمة الإسلامية ؛ وإمام المسلمين أولى أن يدرك هذا الاتجاه الإسلامى إلى التحرير ويتمثله .

خطا الإسلام للتحرير خطوات إيجابية ، فأوجب العتق فى كفارة القتل وفى كفارة الظهار ، وفى كفارة الإفطار فى رمضان عمدا ، وفى كفارة اليمين . وألزم الدولة برصد اعتماد فى ميزانيتها من مورد ثابت ليصرف فى الرقاب وتحريرها . . وطالب الجمهور ببذل المال فى سبيل فك الرقاب . وأثار العواطف ضد الرق ، ودعا إلى السلام فلا تكون حرب تسترق فكيف يقال إن الإسلام أقر وضعا كان ، أو أنه كان بسبيل أن يفعل[1] ؟

(٧)

خطوة .. على الطريق ..

(لئن كان فهم الحاضر للإسلام لا يقنع باحثا ، ولا يدفع نقدا ، ولا يحقق خصائصه الكبرى التى يريد أن يمتاز بها ، فقد وجب إذن البحث عن فهم آخر للإسلام ، يقوم أول ما يقوم على منهج راسخ ، يقنع المفكر الحر ، ويحقق خواص الدعوة الخ .

وهذا ما نحاوله ، بل ما يجب أن نحاوله ، فى قوة ، لنبين كيف ينبغى أن يفهم الإسلام فهما بريئا من كل ما نسب إليه ، أو حمل عليه ، أو لون به ، سواء فى الماضى البعيد ، أو الحاضر القريب) . .

---

(١) نظرة الإسلام إلى الرق — خط بمكتبتة .

بهذا حدد الأستاذ الخولى دوره فى هذا المجال ؛ .

ذلك أن هناك من يفهمون الإسلام فهما خاطئا ، لأنهم يقيدون العقل أولأنهم يرسلونه إرسالا . . فهم إما مقلدون عاجزون ، يتعبدون الماضى ولا يحاجونه ، أو مسرفون متجاوزون ، لا يدركون أن مالا يعقل قد يعتقد ، وأن العقل ومنطقه شىء والاعتقاد وسلطانه شىء آخر . .

وهناك من لا يفهمون الإسلام ، ويأتونه من حيث يجهلون ، ويتهمونه بما هو برىء منه ، فإذا عرض لهم من يدافعون عن الإسلام، كان هم المدافعين أن يثبتوا وجود هذا الاتهام من قبل الإسلام ، وأن الإسلام يسبيل أن يخلص البشرية مما نشأ فيها من أنظمة اجتماعية ، لم يشرعها ، ولم يقطع فيها رأيا بالتحريم ، لأن تشريعات أخرى سابقة أقرتها .

حتى رواد الإصلاح الدينى فى عصرنا الحديث ، وهم الأستاذ الإمام وتلامذته ، تنوروا الطريق ، وعملوا على تجديد الفكر الدينى ، وإصلاح الحياة بالدين ، لكنهم — شأن أكثر الرواد — فاتهم الكثير ، لأنهم يحاربون فى أكثر من ميدان ، رسموا الطريق فى الإصلاح ، وخطوا فيه خطوات لكنهم وقعوا تحت ضغوط هائلة : من تراث مركوم، وعباد لهذا التراث لا يملكون منه تبديل حرف بآخر، ويعجلون إلى تكفير من تحدثه نفسه بأن فى الإمكان غير ما كان ، ومن ثم ففى الإمكان تجديد ما كان . . ومن عيون مفتوحة على مرائى الغرب ، تجدصورها منعكسه على المرائى لا هى شرقية ولا هى غربية ، فتنتحل لنفسها ما يكبر فى وهمها فلا يزيدها الانتحال إلا مسخا وشعوذة، فتسارع إلى الاتهام، اتهام من يملكون الحقيقة بما لا يملكون ، أو بما يحسبون أنهم يملكون . . ومن متسلطين أدعياء ومستعمرين ، كل له لعبته، وكل يمارس صنوفا من الدس والتآمر والإرهاق والكيد والاعتساف . . وجماعة الرواد بين أولئك وهؤلاء يتحسسون الطريق ، ويتلمسون الصواب، بعيون

زائغة ، وجهود مبعثرة ، ورغبة في الوصول . . فإذا رجعنا إلى ما خلفوا في التفسير وما كتبوا في الإسلام والنصرانية وإصلاح التعليم وطبائع الاستبداد وتحرير المرأة . . و . . و . . نجد صوت الدفاع أعلى من خطوات التجديد والإبداع ، ولهذا وجد الأستاذ الخولى طريقه ، فالحاجة ماسة إلى فهم جديد للإسلام . . فهو مزود بالعلم الحديث ، حتى يجد القدرة على تفسير الحياة ظواهر ونواميس ، فالدين للحياة ، ولا يمكن أن يفهم الدين دون فهم للحياة . .

وهو فهم مزود أيضاً بالعلم القديم ، لأن الدين خاطب أصحابه ، وهم عاشوا تجربته الأولى في بيئة تخالف بيئتنا ماديا ومعنويا . .

وهو فهم مزود بلغه القرآن ، وبحس هذه اللغة وذوقها ، وبدلالة ألفاظها يوم نزل القرآن ، لأن الألفاظ تنمو وتتطور كأى كائن حى ، وتكتسب دلالات جديدة .

وهو فهم مزود بالأديان والمذاهب الفكرية والاجتماعية السابقة على الإسلام والخالفة ، فالإسلام للناس كافة ، وإلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وهو يتفاعل مع مافى هذه البيئة الواسعة ، يأخذ منها ويعطيها ، ويؤثر فيها ويتأثر بها .

وهو فهم مزود بالدراسات اللاهوتية فى الإيطالية والألمانية وغيرهما ، وبوسائل الاستشراق والمستشرقين فى تناول التراث عربية وإسلامية بعامة . .

وبهذا كله يتوفر للباحث أن يدفع جهلا بعلم ، وجمودا بتجربة ، وخبثا بدهاء وتجاوزا بواقع ، وادعاء بمنطق .. وبدلا من أن يمسك بالجزئيات التى تخضعها الظروف والاحتياجات لأوجه من الرأى ، يعمد إلى الكليات التى ترسم المناهج ، وتوجه الحياة ..

وكانت أولى القضايا التى تشغل الألباب هى صلاحية الدين لأن يتلاءم مع كل بيئة وكل زمان . . فما أكثر الذين يهرفون بما لايعرفون ، معتمدين

على ظواهر جديدة ، وميادين للعلم لم تكن مطروقة ، مما حدا بالمحوقلين والموذين أن يؤولوا ويلبسوا الدين لبوسا يضيق به، ويقولون بما لم ينزل به الله سلطانا. فإذا أعوزتهم الحيل لجئوا إلى التكفير. وتنادوا بالويل والثبور.

وإذا الأستاذ الخولى — وقد أخذ للأمر عدته — يقول بأن الدين ليس للحياة ولا من أجل الحياة مما يفيد وجودين منفصلين ، أو إمكان وجود الحياة بدون الدين، أو تبعية الدين للحياة ، وإنما (الدين والحياة) بدءا ونهاية ، وطريقا واحدا متصلا ، لا حياة بلا دين ، ولا دين بلا حياة .. ومن ثم كانت قدرة الدين على أن يتجدد فهمه ، وأن يتطور أسلوبه. لأن الحياة تتجدد وتتطور . وإن فى فهم الأقدمين وقولهم المعنى الواضح للتطور[1] وأنه تغير وانتقال من حال إلى حال ، تأثرا بعوامل مادية ومعنوية، تتعرض لها الأحياء والكائنات المعنوية ، بفعل ناموس صار فى حساب العلم اليوم ثابتا ، فى جملته، ومفهومه العام ، وأصله الكلى ، مهما يجر الاختلاف على تفاصيل هذا التطور وخطواته أو فلسفته وتفسيره وتعليله ..

(وللعلم أن يجد حتى يبلغ فى ذلك مبلغا يقينيا عن أصل الجنس البشرى فما يعوقه القرآن عن ذلك ، ولا يلزمه باتجاه معين فى أمر هذا الأصل ، إلى هذا ذهب مفسرون محدثون للقرآن. وهو ما تؤيده خطة الفهم اللغوى البرئ دون زيادة ولا نقص على النص القرآنى، أو تأثر فيه بشىء .. فليس فى القرآن نص أصولى قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم — كما يقول محمد عبده — لكنه لا يمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم لأنه لا يقول: إن القرآن ينفى هذا الاعتقاد، وإنما يقول: إنه لا يثبته قطعيا)[2] ..

وإذا كان خلود القرآن ورياضته الدائمة للحياة ، مع صلته الوثقى بها ، يهيئ لفهم معان متجددة نامية ، فإنه لا ينبغى أن ننسب إلى القرآن من هذه

(١) انظر ما أوردناه هنا ص ٧٢ وما بعدها .

(٢) الفصل الثالث من (نظرات الإسلام الاجتماعية) .

المعانى إلا ماكان طريق فهمه الحس اللغوى ، وسبيل الانتقال إليه هو دلالة اللفظة الأولى فى عصر نزول القرآن ..

ولو كان من وظيفة الدين أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية لكان يجب تعطل مواهب الحس والعقل ، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من أفراده كل شيء بالتسليم ؛ ولكان عدد الرسل فى كل أمة كافيا لتعليم أفرادها فى كل زمن ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم ، وإن شئت فقل لوجب ألا يكون الإنسان هذا النوع الذى نعرفه . .

وزاد الأستاذ الخولى على دعوته إلى التجديد أن من لا يجدد يأثم آثاما مختلفة ، إثما لأنه لا يجدد ، وإثما لأنه لا يتجدد ، وإثما لأنه يعوق المتجددين المجددين فى تعنت أصم لا يميز الخبيث من الطيب مهما تبينا ولا يعرف داعى الله من داعى الشيطان[1] . .

وشجب الأسلوب الانتخابى عند الأشعرى ، لأنه (أمارة عدم قدرة الفكر على الإدلاء بجديد ، وأن التفكير فى هذه الحالة يمر بفترة من عدم الخصوبة ،أو قل إنه يشير إلى أن المسائل المبحوثة قد استهلكت آراء المفكرين فيها ، وأن طاقة المتناولين ، لهذه المسائل قد وقفت عن أن تواتى بجديد)[2] .

وقال بقول الشيخ محمد المراغى الجرجاوى (ق ١٣هـ) : (إنما كان مجددا لأنه أى المبعوث فينا مجتهد ، وشأن المجتهد التجديد)[3] . .

واستعاذ مما استعاذ منه السابقون حين قالوا :(يجوز قلة المجتهدين والعياذ بالله)[4] . .

---

(١) التجديد فى الدين — الرسالة — أول فبراير سنة ١٩٣٣

(٢) ص ١٢٧ المجددون فى الإسلا م .

(٣) مقال التجديد فى الدين (السابق) .

(٤) ص ١٨ المجددون فى الإسلام .

وقدم لنا صورا من حياة المجددين ومواقفهم الرائدة ووعد بتقديم كتاب عن (تجديد الدين) ، أى تجديد الفهم الدينى تجديدا هو تطور ، لا إعادة قديم كان ، وإنما هو اهتداء إلى جديد كان بعد أن لم يكن ، سواء أكان الاهتداء إلى هذا الجديد بطريق الأخذ من قديم كان موجودا ، أم بطريق الاجتهاد فى استخراج هذا الجديد بعد أن لم يكن . .

وحين عرض لمستقبل الأديان بين خطورة الصراع بينها ، وأثره على نفوس المتدينين ، وأن هذا الصراع لا يفيد إلا غير الدينيين الذين تتسع لهم مطالب الحياة المادية . . وما دامت الأديان كلها تنبع من منبع واحد ، وتدعو بدعوة واحدة ، ففيم الخلاف ؟ ولم لا يتعاون المتدينون جميعا من أجل مستقبل البشرية ، التى خلقت من نفس واحدة ، وفى أحسن تقويم ، فنحافظ على وحدتها النفسية ، وعلى حسن تقويمها محررة من كل نوازع الشر ودواعى الباطل[١] ؟

ولما كان تناول تكريم السماء للإنسان بحسن تقويمه ، ووحدة منشئه ومصيره ، مما يضع علامتى استفهام وتعجب ، أمام موضوع الرق فى الإسلام ، فقد نفى الأستاذ الخولى بقوة أن الإسلام يبيح الاسترقاق أو يقره ، بل كان الإسلام — منذ بدأ سيره فى مكة — حربا عليه ، برغم تعدد وجسامة المشكلات التى كانت تعترض سيره ، ثم شرع تشريعات التحرير وفك الرقاب ، تكريما لإنسانية الإنسان الذى أعلى شأنه ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون له . . وإذا كان من الفقهاء أو من غيرهم من سن للرق قواعد ، وفرض له التزامات ، فليس هذا دليلا على أن الإسلام جاء به ، وإنما هو خضوع لأوضاع سياسية ، وأهداف

(١) مقال (سلام دينى) المجلة مايو سنة ٥٧ ومخطوط (نظرات الإسلام الاجتماعية) .

اقتصادية ، وعصبيات موروثة ، ومظاهر كاذبة ، لا دليل عليها من كتاب ولا من سنة[١] . .

(ولا ينبغى أن يعتبر صنيع القوم، ولا واقع التاريخ شهادة على الإسلام بقدر ما هو شهادة على المسلمين ، فإن كان فى تطبيقهم للإسلام ما يساير أصوله تلك الباقية المثالية فذاك ، وإلا فذنبهم فى ذلك على جنبهم ، وليس على الإسلام إثم شئ منه) .

* * *

هل لنا أن ننسى ما للأستاذ الخولى فى سبيل تدعيم هذه القضايا الكلية من أحاديث ، تناول فيها موقف الإسلام من حق الإنسان فى الحياة الكريمة حرا مكفولة حقوقه المادية والمعنوية ؟

لقدحدثناعن السلام تحية البشرية وشعار هذه الأمة ،وعن السلم وسلامة الروح بين الخوف والأمن ، وعن الرحمة والخير والفضيلة والسعادة وغاية الحياة،وعن الصوم تشريعا يثير الانتباه إلى حاجة البشرية ، فيسجل ظاهرة الاحتياج على أولئك الآدميين . . وأجمل خطة الهدى القرآنى فى المال وغيرها من مشكلات الحياة — فى تجربة دقيقة دائبة للحياة؛لمعرفة واقعها بعقل طليق ، ودرس دقيق،مستفيد من كل ما يعرف فى الدنيا؛ وفى شعور إنسانى عميق ، رقيق ، يثيره وجدان متدين حساس ، يجد ما تحسه البشرية فى أقصى أرجاء الكون . . وبين القوة الحكيمة ممثلة فى القادة الرسل ، وعزمات القادة ، وشمائل القادة ، وتبعات القادة بحيث يكونون قادة لا جبابرة . . كما بين حق الفقراء فى أموال الأغنياء على أساس من المثالية لا المذهبية ، وعلى العزة التى لا تقوم إلا على الروح

(١) (نظرة الإسلام إلى الرق) خط .

العالية ، والعقيدة ، الواقعة ، والنفس الصافية ، يغمرها اليقين بأن الله هو الأكبر ، فلا تخاف شيئا ما ، ولا ترهب شخصا ما[١] . .

وظل حتى آخر أيامه يدعو إلى إيمان هو (متعة كل روح ، وعدة كل نفس ، لا امتياز فيه للون ، ولا فضل لدم ، ولا تفوق لعنصر ، ودعوة القرآن إليه عامة لا تخص شعبا ، ولا تفرد قبيلا بحب الله أو بنوته) . .

ظل حتى آخر أيامه (يرتفع بمعنى الدين على كل وهم ، ويبرأ من من كل عصبية ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا) . .

---

(١) تفصيل ذلك فى (مواطن يتكلم) — (أمين الخولى — حياته — أعماله) .

(ب) منهجه فى التفسير

حين تصدى الأستاذ أمين الخولى لدرس القرآن الكريم بكلية الآداب ، عقب عودته من أوربا ، كان قد تعرف على كثير من آراء المستشرقين فى القرآن الكريم ، وفى علوم العربية والإسلام جميعا ، وقدر طريقتهم العلمية ، وصبرهم الطويل الشاق على البحث والتنقيب . لكن عدم تذوقهم العربية ، وعدم تمثلهم الروح الإسلامية ، مع تعصبهم الدينى والفكرى ، واختلاط الأهداف السياسية — فى مناهجهم — بالأهداف العلمية ، جنبهم الصواب فى كثير ما ذهبوا إليه . . فنبه ذلك منه وجدانا عربيا مسلما ، وعقلا أصوليا يقظا ، وحفزه إلى أن (يقتبس عن الغرب فى الدراسات الشرقية والغربية أساليب البحث العلمى ، وطرائق النقد الدقيق الحر المنتظم) حتى (يحرر المنهج ، وتسلم أساليب الدرس) .

وكان قد تابع — من أوربا — أزمة الدكتور طه حسين (فى الشعر الجاهلى) حين قال بقول أحد المستشرقين[1] . (للتوراه أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى) . .

ولقى فى كلية الآداب أحد (شيوخ المدرسة القديمة — جاءها — فى ختام حياته التعليمية ، وغير فى مناهجها ما غير ، وجعل تفسير القرآن مادة دراسة فيها . . وكان مفهوم التفسير عنده ، وعند أمثاله ، لا يجاوز كثيرا تلك الكتب المتداولة فيه ، على اختلاف منازعها ، فأخذ الطلبة بقراءة شىء فى تلك الكتب ، ولعل أروجها كان كشاف الزمخشرى ، وكلها يمكن أن يقال فيه : إنه لا يستطيع الوفاء ببيان ما فى هذا القرآن من قوة بلاغية ، إذ شغل مؤلفوها بغير ذلك من أهداف ، وقعدت بهم

---

(١) مرجليوث .

مع ذلك عجمتهم ، ومستوى الطاقة الأدبية لعصرهم ، فجاءوا بآخر ما استطاعوا ، ولم يكن فى الحق آخر ما يقال فى القرآن ، أو مشارفا لشىء من الغاية فى ذلك) [1] . .

* * *

وكان يرفد البيئة الثقافية الإسلامية — فى ذلك الحين — إلى جانب ، الفكر الأوربى المتعصب الرافض الشاك ، والفكر الإسلامى الموروث المقيد بقيود بيئة وزمان غير بيئتنا وزماننا — فكر عربى إسلامى متنور تمثل فى تفسير الأستاذ الإمام محمد عبده الذى يجمع (بين صحيح المأثور وصريح المعقول ويبين حكم التشريع ، وسنن الله فى الإنسان ،وكون القرآن هداية للبشر فى كل زمان ومكان ، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون فى هذا العصر ، وقد أعرضوا عنها ، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها مراعى فيه السهولة فى التعبير ، مجتنبا مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون) [2] . .

ومع أن تفسير الأستاذ الإمام لم يخل من الإسرائيليات ، ومن خضوع أحيانا للفكر التقليدى فإنه استطاع أن يخط لنا قواعد منهج حى ، وإن لم يلتزمه ، فقد غلبه طابع الإصلاح ، والنهوض بمجتمع تناوشته العلل ، وشغلته دواع سياسية وهجمات غير إسلامية ، واتهامات أزهرية جامدة أو حاقدة . .

دعا الأستاذ الإمام إلى الأخذ بالخبر اليقين ، ولا نترك قط خبرا قطعيا لنأخذ بخبر ظنى : (فالجدير بأن يسمى علما هو علم اليقين ، أى العلم الذى هو من أفراد اليقين ، واليقين هو الاعتقاد الذى يطابق الواقع عن عيان ، أو دليل صحيح ، مقدماته بديهية ، أو منتهية إلى البديهيات،

---

(١) ثغرات فى مناهج الدراسات الأدبية — الأدب — مارس سنة ١٩٦٦ م .

(٢) كلمات السيد رشيد رضا على غلاف ج ١ من تفسير المنار سنة ١٣٤٦ ه .

بحيث يستحيل تغييره) (١) . ومن ثم شجب التفاسير التقليدية التى ترجع إلى روايات اليهود وملاحدة الفرس ، ومن على شاكلتهم ، فكل رواية مصدرها هؤلاء لا بد أن تكون متهمة :

(أكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب ، كما قال الحافظ بن كثير ، وجل ذلك فى قصص الرسل مع أقوامهم ، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم ، وفى تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف ومدينة إرم ذات العماد وسحر بابل ، وعوج بن عنق ، وفى أمرر الغيب من أشراط الساعة وقيامتها ، وما يكون فيها وبعدها ، وجل ذلك خرافات و مفتريات ، صدقهم فيها الرواة ، حتى بعض الصحابة (رض)، ولذلك قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل التفسير والملاحم والمغازى) (٢) .

وقال بالارتياب فيما أدلى به بعض المفسرين من آراء شخصية عن مسائل يشتم فيها الهوى والتعصب للرأى ، مثل الكلام (فى الشفاعة ، وفى تكريم آل بيت النبوة ، حشروه فى التفسير حشرا ، وأكثره بعيد عن روح الدين الذى جاء به القرآن ، والأليق به كتب المذاهب التى ساء بها حال المسلمين وتفرقت بسببها كلمتهم) (٣) .

ودعا إلى (فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا ، وحياتهم الآخرة ، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله) (٤) .

ورسم منهجا فى التفسير واضح المعالم ، أبرز خطواته :

١ — بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى ، وتحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته .

---

(١) ص ١١٣ تفسير جزء عم ط دار الشعب .
(٢) ص ٨ ج ١ تفسير المنار .
(٣) ص ٨٤ تفسير جزء عم .
(٤) ص ١٧ ج ١ تفسير المنار .

٢ — فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن ، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثير من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . .

فعلى المدقق أن يفسر القرآن حسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله ، والأحسن (كذا) أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه ، بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه ، وينظر فيه . . وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه بعضا ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع المقصد الذى جاء له الكتاب بجملته . .

٣ — بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه — يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة ، لأننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام . .

٤ — قال الأستاذ الإمام : أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.. الآية) وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ، وكيف تفرقوا ، وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها ، وهل كانت نافعة أو ضارة ، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم . .

٥ — العلم بوجوه هداية البشر كلهم بالقرآن . . فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائى أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم وأقول الآن يروى عن عمر (رضى) أنه قال: إن جهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذى يخشى أن ينقض عرى الاسلام عروة عروة

٦ – العلم بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشئون دنيويها وأخرويها[١] . .

هذا . . ولكن الأستاذ الإمام اتبع فى التطبيق – كما تقول الدكتورة عائشه عبد الرحمن – طريقة يوجه بها النص إلى خدمة المجتمع ، كمنهجه العام فى إصلاح المجتمع بالدين ، ورؤيته للإصلاح ، هى رؤية مصلح يطل على الحياة فى القرن التاسع عشر . .

* * *

وقد استفاد الأستاذ الخولى من هذا كله ، حين عرض للتفسير فضلاعن أن (الحياة الجامعية – إذ ذاك – كانت خصبة ، متجدده ، متطلعه ، فابتغت وراء ما استشرف إليه المفسرون من حس العربية وذوقها وبلاغة هذا الأسلوب ما هو وراء ذلك وأبعد ، على أن يكون لهذا التطلع ضابط من طبيعة اللغة وحيويتها ، لا من القول المدعى لها ، أو عليها ، والاحتمال الظان . .

ولكل أولئك وغيره ، من عوامل محتكمة فى حياة المفسرين القدامى ومستوى عصورهم الثقافى ، راحت الجامعة – على يد الأستاذ الخولى وتلاميذه من بعده – تحول درس التفسير درسا ادبيا محضا ، يستعين بكل ما بلغته – وستبلغه[٢] – الثقافة الإنسانية من دقة وتطلع)[٣] . .

(٢)
أسباب النزول

ودراسة (النص) دراسة أدبية توجب دراسة (ما حول النص) ، حتى يتمكن الدارس من تبين ما يتضمنه (النص) من دلالاته نفسية واجتماعية

---

(١) المنار – ج ١ ص ٢١ – ٢٤ .

(٢) يقصد الأستاذ الخولى بهذا التعبير إلى استمرار الدرس واستمرار الاستفادة .

(٣) نظرات فى مناهج الدراسة الأدبية – الأدب – مارس سنة ١٩٦٦ .

لا تقل خطرا عن دلالاته الفنية : : بل إن الدلالات الفنية لا تتيسر إلا عن طريق العوامل النفسية والاجتماعية التي كان (النص) ثمرة من ثمارها. :

لذلك أخذ الأستاذ الخولى أهبته لدراسة ما حول النص القرآنى ، يعرف به ، ويحدده ، ويبين سماته المتعارضة ، ويحدث عن نزوله كيف كان وكيف تلقى ، والبيئة المكانية والزمانية لذلك ، وما جرى فى ذلك من اصطلاح ، ثم كيف جمع وحفظ وتنوقل ، من أوائل عصر الإسلام إلى ما استقر عليه الحال فى عصرنا ، ثم ما كان فى سبيل تنسيقه وتقسيمه ، وضبطه ، وكتابته ، من جهد ، وماله من أثر جرى عليه الحال فى تناقل نصوصه وتلاوة آياته ، وأوجه التغاير فى ذلك وسببها ، وأثرها ، ومساسها بالمعانى ، ثم إجمال عن مشتملاته ، وما تناوله من موضوعات ، وطريقة تناولها ، وترتيبه إياها ، وميزته فى ذلك من ناحية المعنى والأسلوب [1] . .

وقد أبدى اهتماما خاصا بموضوع (نزول القرآن) ولكثرة ما قيل فيه حتى كانت محنة خلق القرآن . . ولكونه أول ما يعرض لباحث فى القرآن ، فقد عرض لمعنى (النزول) وأحصى ما جاء من هذه المادة فى القرآن ، وأشار إلى دلالة كل صيغة فى مواضعها المختلفة ، ليصل إلى أن (الإنزال الإحلال ، أو تحويل الشئ من علو إلى أسفل ، وهذا لا يستعمل على الحقيقة فى الكلام ، لأنه لا يحل ولا يحرك . والاستعمال فيه مجازى يراد به إيجاد لدى البشر ، وتثبيته فى الدنيا . . وعلى أن القرآن هو الكلام النفسى أى المعنى القائم بذاته تعالى ، يكون الإنزال إيجاد الكلمات فى مكان آخر بعد ما كانت موجوده فى غيره قبل النزول) [2] وهو مايبدو اطمئنان الباحث إليه ، فقد عاد وأوضح هذا المعنى بقوله :

(إن معنى الإنزال هو إظهار القرآن ، وهذا المعنى العام فى الإنزال يغنى عما وراءه من تفاصيل ، وفى تعبير القرآن نفسه بالإنزال فى مثل

(١) تاريخ القرآن — خط .

(٢) السابق المصدر .

قوله: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) ما يؤيد إرادة المعنى العام من الإنزال، وهو الإظهار، دون وجوب شيء مما وراء ذلك من تفصيل المكان الذي منه النزول، أو المكان الذي إليه النزول، وتحديد غير ذلك من وقت أو أوقات.

.. وفيما عرف علم البشر — وما أوتوا من العلم إلا قليلا — ما يقرب إمكان التلقي والانفعال بغير الوسائط الحسية المادية المعروفة، وفيما يتقدمون إليه من علم الكون ما يزيد هذا قربا وفهما [1]. :

والأقدمون أنفسهم قالوا: الإنزال تقريب الشيء، والهداية إليه، وإنزال الله نعمه على الخلق إعطاؤهم اياها، ففيم إذن الوقوف عند معنى النزول المادي من سماء، او الوصول إلى الأرض، والإبلاغ إلى شخص [2] ؟

وإذا كان الأستاذ الخولي قد أورد قول السيوطي في الاتقان: (أن جبريل ألقى إليه المعنى، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وأن أهل السماء يقرؤنه بالعربية، ثم أنه نزل به كذلك بعد ذلك)، فإن قول السيوطي بطابعه المتيافيزيقي الذي لا يسيغه فكر الأستاذ الخولي الذي يرى أن (الكلام في الوحي بطريقة علمية أي تجريبية تحليلية، لا سبيل إليه بعد، والتسليم بوقوعه ضرب من الاعتقاد المعتمد على الوجدان و انشراح الصدور) — قول السيوطي هذا يعد تدعيما لما ذهب إليه الأستاذ الخولي، باعتباره الصورة المقابلة، غير المقبولة، التي تزكي قبول غيرها.. ومن ثم يرى الأستاذ الخولي أن (نقلل من الكلام عن نزول القرآن من سماء إلى سماء، أو نزوله إلى مكان بعيد، أو ما يشبه ذلك، لأن هذا لا يرجع الكلام فيه إلا إلى آثار دينية من السنة، تحتاج إلى ضروب من النقد العلمي في سندها ومتنها)، ونكتفي في ذلك بما يفيده اللفظ بمعناه اللغوي، مع مراعاة استعمالاته في القرآن . .

---

(١) دائرة معارف الشعب جـ ١ ص ١١ .

(٢) من هدى القرآن في رمضان ص ٢٥ .

ثم ذكر حكمة التعبير بصيغة المضعف فى (نزل) من قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر) لدلالة معنى التكثير ، فالتنزيل على مرات متعددة يناسب ذكر الحفظ الموعود به فى قوله : (وإنا له لحافظون ، كما كان لهذا التنجيم قيمته العملية فى حياة المسلمين الاجتماعية زمن الرسول وبعده :

ولذلك يعقب على قول (بول Buhl) إن التنجيم (قد أثر تأثيرا جوهريا فى شكل القرآن ومحتوياته ، وإليه يرجع مافيه من عدم التمام الغريب فلا نجد تناولا كاملا للأمور الاعتقادية والدينية ، بل ينتقل الرسول من موضوع إلى آخر ، حسبا تقتضى الظروف) ـ بأنه (لم يكن يتأتى فى الكتاب الخالد الذى وضع لدين عام أن يحوى التفاصيل الدقيقة ، للتكاليف الدينية وطرقها ، على حين يكون التعليم بالقدوة فى هذا أيسر وأبقى ، وهو ماكان يستقل به فعل الرسول عليه السلام ، ويتناقل عنه ، وكان كذلك يتنوع حسب الظروف ، إما تيسيرا ، وإما تعليما . . وكان الأحرى بهذا الكتاب ، وهو الدستور ، ألا يحوى إلا الأصول والمبادىء العامة ، ثم هو فوق ذلك يتعبد بتلاوته ، ونقصد منه الهداية النفسية أولا ، ولو كان تفصيلا تدقيقيا لصغار الأعمال ودقائق الأحكام لضاع ذلك الغرض ، ولم يكن له فى النفس عند التلاوة ذلك الوقع .. .. ثم يلاحظ فوق ذلك كله أنه كتاب الدين الذى وصف بالعموم والخلود ، ومن ضرورة ذلك أن تتغير الأحكام بتغير الظروف الزمانية والمكانية والاجتماعية على على اختلافها ، فكيف يتولى التفصيل التام والتناول الكامل لما سيتغير من تلك الأحكام ، مع أنه هو الثابت الباقى ، على أنه دستور ذلك الدين وكتاب التلاوة [1] ..

(إن هذا القرآن يحرص أول مايحرص ، على أن يترك للعقل حريته كلها ، فى مواجهة مشكلات الحياة وواقعاتها .. وذلك بأنه يترك للمصلحة الواقعية

---

(١) تاريخ القرآن — خط .

الكاملة كلها ، ويدع للتجربة الفرصة كلها .. وأساس ذلك كله أنه لا يقدم تفصيلا جزئيا لمشكلة من المشكلات كشكلة التملك أو غيرها ، على حين لا يرفض من قول التجربة الصادقة ، وما تقضى به المصلحة الحقة رأيا ، بل يتلقى ذلك كله ، فى رحابة صدر ، تقدر التطور ، وتقدر ما يجد الناس من شئون تتغير على الأيام ، وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، فلا يحدها تفكير عصر معين ولا يوقفها تحديد عقل بذاته ، فى مستوى محدود ، ولا يعوقها ألا يكون السابقون ممن فسروا الدين ، أو مارسوا التشريع ، لم يشعروا بها ، ولم تحتج إليها حياتهم فى عصرهم[١] ..

وبالنسبة لأسباب النزول رأى الأستاذ الخولى : (ضرورة وقوف الباحث طويلا ، وتردده قبل أن يقرر أن سبب نزول آية كذا ، أو آيات كذا هو حادثة بعينها[٢] .

والأقدمون أنفسهم تنبهوا إلى وجوب التحرى والدقة فى الأخذ بأسباب النزول ، وقالوا : (لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها)[٣]

(٣)

التفسير الذى يستخرج العلوم من القرآن

يقول الشاطبى فى (الموافقات) :

(إن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشىء مما زعموا ، نعم ، قد تضمن علوما هى من جنس علوم العرب ، أو ما ينبنى على معهودها ، مما يتعجب

---

(١) من هدى القرآن — فى أموالهم ص ٨ .

(٢) تاريخ القرآن — خط .

(٣) دائرة معارف الشعب جـ ١ ص ١٠ عن الاتقان للسيوطى — وتجد خلاصة موقف تلاميذ مدرسة الأستاذ الخولى من أسباب النزول فى تفسير سورة الضحى ، جـ ١ من (التفسير البيانى) للدكتورة عائشة عبد الرحمن .

منه أولو لألباب ، ولاتبلغه إدراكات العقول الراجحة ، دون الاهتداء بأعلامه ، والاستنارة بنوره ، أما أن فيه ماليس من ذلك فلا .. فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن مالايقتضيه ، كما أنه لا يصح أن ينكر منه مايقتضيه ، ويجب الاقتصار — فى الاستعانة على فهمه — على كل مايضاف علمه إلى العرب خاصة ، فبه يوصل إلى علم ماأودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ماهو أداة له ضل عن فهمه ، وتقول على الله ورسوله فيه [١]..

(ونقرأ للأستاذ الإمام عن هذا التفسير مانصه :

لو كان من وظيفة النبى أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل ، ويلزم بأن يتلقى كل فرد من أفراده كل شىء بالتسليم ، ولوجب أن يكون عدد الرسل فى كل أمة كافيا لتعليم أفرادها فى كل زمن ،كل مايحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم ، وإن شئت فقل : لوجب ألا يكون الإنسان هذا النوع الذى نعرفه ..نعم إن الانبياء ينبهون الناس باجمال إلى استعمال حواسهم وعقولهم فى كل مايزيد منافعهم ومعارفهم التى ترتقى بها نفوسهم ، ولكن مع وصلها بالتنبيه على مايقوى الإيمان فى العبرة ، وقد أرشدنا نبينا صلى الله عليه وسلم إلى وجوب استقلالنا دونه فى مسائل دنيانا فى واقعة تأبير النخل ، إذ قال أنتم أعلم بأمور دنياكم (تفسير المنار : ٢ : ٢٠٥) [٢]. .

وعلى هذا .. فالقرآن لايفهم إلا كما كان يفهمه العرب الذين نزل فيهم ، وكان حتما أن يؤمنوا به ، عن فهم وإقناع ، حتى يستطيعوا أن يفهموه وأن يقنعوا به غيرهم . .

وقد وقف الأستاذ الخولى وقفة جادة فى وجه أولئك الذين تجاوزا فى الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين

(١) صـ ٢٩٢ ٢٩٣ مناهج تجديد . وانظر الموافقات جـ ٢ ص ٥٥ .
(٢) تعليق الأستاذ الخولى على كتاب (معجزة القرآن فى وصف الكائنات) الأدب ـ نوفمبر سنة ١٩٥٩ م .

أو المتأخرين ، من علوم الطبيعيات ، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها — فأضاف إلى حجج الشاطبي[1] في تفنيد دعواهم — من النظرات الحديثة :

١ — الناحية اللغوية : في حياة الألفاظ وتدرج دلالتها . . لوملكنا منها مالابد لنا أن نملكه في تحديد هذا التدرج ، وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة ، وعهدا ستعمالها فيها — لوجدنا من ذلك مايحول بيننا وبين هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن وجعلها تدل على معان وإطلاقات لم تعرف لها ، ولم تستغل فيها ..

ولهذا دعا الأستاذ الخولي إلى أن نملك قاموسا اشتقاقيا ، تتدرج فيه دلالات الألفاظ ، وتتمايز فيه المعاني اللغوية على ترتيبها ، عن المعاني الاصطلاحية على ظهورها .. فلا معدى للمفسر من النظر في المادة اللغوية للفظ الذي يريد تفسيره ، لينحي فيها المعاني اللغوية عن غيرها ثم ينظر في تدرج المعاني اللغوية للمادة نظرة ترتبها على الظن الغالب ، فتقدم الأسبق الأقدم منها على السابق ، حتى يطمئن — ماستطاع — إلى شيء في ذلك ينتهي منه إلى ترجيح معنى لغوي للكلمة .. وإذا ما فرغ من البحث في معنى اللفظة اللغوي انتقل بعده إلى معناها الاستعمالي في القرآن ، يتتبع ورودها فيه كله ، ،لينظر في ذلك ، فيخرج منه برأي عن استعمالها هل كانت له وحدة اطردت في عصور القرآن المختلفة ومناسباتها المتغيرة ؟ وإن لم يكن الأمر كذلك ، فما معانيها المتعددة التي استعملها فيها القرآن وبذا يهتدي بمعناها ، أو معانيها اللغوية ، إلى معناها ، أو معانيها الاستعمالية في القرآن ، وهو بما ينتهي إليه من كل أولئك يفسرها مطمئنا ،في موضعها من الآية التي جاءت فيها .

وقد حاول الراغب الأصفهاني منذ قرابة ألف عام . أن يعطينا مفردات القرآن في قاموس خاص بها ، وعاني فيها شبيها بما وصفنا ، أو بشيء من

(١) ص ٢٩٠ ومابعدها (مناهج تجديد) .

أصل فكرته ، ولكنه لم يتم التعقب اللغوى ، ولم يستوف التتبع القرآنى ، وفاته مع ذلك فرق مابين عصره وعصرنا فى دراسة اللغات وصلاتها ، إلا أنه فى كل حال نواة تخجل من بعده ، وبخاصة أهل هذا العصر الطموح فيؤلمهم ألا يملكوا إلا هذا المعجم القرآنى الناقص ، بل البدائى [1] ..

٢ — الناحية الأدبية ، أو البلاغية إن شئت ، والبلاغة فيما يقال : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فهل كان القرآن على هذا النحو المتوسع من التفسير العلمى كلاما يوجه إلى من خوطب به من الناس فى ذلك العهد ، مرادا به تلك المعانى المذكورة مع أنها معان من العلم لم تعرفها الدنيا إلا بعد ماحازت آمادا فسيحة ، وجاهدت جهادا طويلا ، ارتضى به عقلها وعلمها ؟

٣ — وهناك الناحية الدينية أو الاعتقادية : وهى التى تبين مهمة كتاب الدين ، وهل هو كتاب يتحدث إلى عقول الناس وقواهم العاملة ، عن مشكلات الكون ، وحقائق الوجود العلمية ؟ وكيف يساير ذلك حياتهم ويكون أصلا ثابتا لها ، تختم به الرسالات السماوية ، كما هو الشأن فى القرآن ، مع أن هؤلاء المتدينين لايقفون من معرفة الحقائق عند غاية محددة ، ولاينتهون منها عند مدى ما ؟ .

وأما ما اتجهت إليه الزوايا الطيبة من جعل الارتباط بين كتاب الدين والحقائق العلمية المختلفة ناحية من نواحى بيان صدقه أو إعجازه أو صلاحيته للبقاء . . الخ — فلعله يكفى فى هذا ويفى ألا يكون فى كتاب الدين نص صريح يصادم حقيقة علمية ، ويكشف البحث أنها من نواميس

---

(١) انظر ٣١٣ — ٣١٤ مناهج تجديد — وقد استجاب (المجمع اللغوى) لهذه الدعوة التى سبق إليها الدكتور هكيل سنة ٤٣ ، ٤٤ وشرع المجمع فى إعداد معجم قرآنى ، أسهم فيه الأستاذ الخولى بإعداد جزء منه يضم الحروف (س — ع) . . وتوفى — رحمه الله — قبل طبعه وعهد المجمع اللغوى إلى الدكتورة عائشة بمراجعة تجارب المطبعة فلاحظت أن هناك تعديلات أدخلت على الأصل ، لكى تتماثل أجزاء المعجم ، ولما لم يقر رأيها فى وجوب إبقاء النص على أصله ، اعتذرت عن المراجعة .

الكون ونظم وجوده . . وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة ، ومسايرة للعلم ، وخلاصا من النقد [١] .

(٤)

التفسير الأدبي

إذا كان (المتفهم لعبارة هو الذى يحدد بشخصيته المستوى الفكرى لها وهو الذى يعين الأفق العقلى الذى يمتد إليه معناها ومرماها — فلن يفهم من النص إلا ما يرقى إليه فكره ، ويمتد إليه عقله . . وبمقدار هذا يحتكم فى النص ، ويحدد بيانه . . .

وعلى هذا الأصل وجدنا آثار شخصية المتصدين لتفسير القرآن، تطبع تفسيرهم له فى كل عهد وعصر ، وعلى أى طريقة ومنهج ، سواء كان تفسيرهم له نقليا مرويا أم كان عقليا اجتهاديا) . . واختلفت بذلك مذاهب المفسرين ، وأغرق بعضها ، فى ميادين علمية أو فلسفية أو بلاغية . . أو . . أو . . وكان بعد كبير عن الهدف الأساسى من التفسير ، وهو — كما يقول الاستاذ الإمام محمد عبده — كفهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا ، وحياتهم الآخرة) [٢] ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمة) . . وهذا الفهم لا يتأتى إلا (بالدراسة الأدبية ، الصحيحة المنهج ، الكاملة المناحى ، المتسقة التوزيع . . والمقصد الأول للتفسير اليوم أدبى محض صرف ، غير متأثر بأى اعتبار وراء ذلك ، وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد إليه [٣] مادمنا نفسر (كتاب العربية الأكبر ، وأثرها الأدبى الأعظم) . .

وفى قول الأستاذ الخولى (تفسير أدبى محض صرف غير متأثر بأى اعتبار وراء ذلك) يبدو جليا الفرق بين منهجه ومنهج الأستاذ الإمام ، الذى

---

(١) ص ٢٩٣ — ٢٩٥ مناهج تجديد . (٢) المنار جـ ١ ص ١٧

(٣) ص ٢٩٦ وما بعدها — مناهج تجديد .

يخضع تفسيره (لإرشاد الناس إلى مافيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة) . وإن اتفقا فى كون القرآن ليس (كتابا قانونيا دنيويا جافا كقوانين الأحداث والوقائع ، ولا سفرا فنيا لوجوه الكسب والمنافع)[1]

وهذا التفسير الأدبى قوامه :

(ا) دراسة ما حول النص ، من نزول وجمع وقراءة وما إليها من دراسة ما يتصل بالبيئة المادية التى ظهر فيها القرآن وعاش ، وفيها جمع ، وفيها كتب ، وفيها قرئ وحفظ، وخاطب أهلها أول من خاطب ، وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بأدائها، وإبلاغها شعوب الدنيا ، وما يتصل بالبيئة المعنوية، بكل ما تنسع له هذه الكلمة من ماض سحيق ، وتاريخ معروف ونظام أسرة أو قبيلة، وحكومة فى أى درجة كانت ، أو عقيدة بأى لون تلونت ، وفنون مهما تتنوع ، وأعمال مهما تختلف وتتشعب[2] .

(ب) دراسة النص نفسه :

١ — بالنظر فى مفرداته ، مع تقدير تدرج دلالة الألفاظ بتفاوت ما بين الأجيال ، وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية وعوامل حضارة الأمة . .

ومن هنا لا يقع المفسر فيما وقع فيه (قوم اعتقدوا معانى ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها) ، كما قال السيوطى فى الاتقان (٢ — ١٨٨) . .

فمع الإقرار بخلود القرآن ورياضته الدائمة للحياة مع صلته الوثقى بها مما يهئ لفهم معان متجددة أو نامية — لا ينبغى أن ننسب إلى القرآن من هذه المعانى إلا ما كان طريق فهمه الحس اللغوى للعربية ، وسبيل الانتقال إليه هو دلالة اللفظة الأولى فى عصر نزول القرآن[3] . .

---

(١) المنار — جا ص ٤

(٢) مناهج تجديد ص ٣٠٩ — ٣١٠

(٣) هامش ص ٣١٢ مناهج تجديد .

٢ — بالنظر فى التركيبات ، لا على أن الصنعة النحوية عمل مقصود لذاته ، ولا يكون التفسير كما كان الحال قديما ، بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده ، والنظر فى اتفاق معانى القراءات المختلفة للآية الواحدة والتقاء الاستعمالات المتماثلة فى القرآن كله [١] .

٣ — بالنظرة البلاغية .. وهى النظرة الأدبية الفنية التى تتمثل الجمال القولى فى الأسلوب القرآنى ، وتستبين معارف هذا الجمال ، وتستجلى قسماته فى ذوق بارع قد استشف خصائص التراكيب العربية . .

٤ — بالتأمل العميق فى التراكيب والأساليب القرآنية لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية ، بل لمعرفة فنون القول القرآنى وموضوعاته ، فنا فنا ، وموضوعا موضوعا ، معرفة تبين خصائص القرآن فى كل فن منها ومزاياه التى تجلو جماله . .

٥ — بالإحاطة المستطاعة بما عرف العلم من أسرار حركات النفس البشرية ، فى الميادين التى تناولتها دعاوة القرآن الدينية وجدله الإعتقادى ورياضته للوجدانات والقلوب ، واستدلاله اقديم ما أطمأنت ، وتوارثته عن الأسلاف والأجيال ، وتزيينها الإحاطة — بما دعا إليه من إيمان ينقض مبرم هذا القديم ويهدم أصوله ، وكيف تلطف القرآن لذلك كله ، وماذا استخدم من حقائق نفسية ، فى هذه المطالب الوجدانية ، والمرامى القلبية ، وماأجدت رعاية ذلك كله فى إنجاح الدعوة واعلاء الكلمة ..

---

(١) جاء هذا المعنى منسوبا إلى الشيخ محمد عبده (رائد الفكر المصرى للدكتور عثمان أمين ص ١٧٣ ط ٢ سنة ١٩٦٥) حيث قال : (لما كان مقصود الأستاذ الإمام أن يفسر القرآن تفسيراً يوافق المعانى المستعملة فى عصر التنزيل ، أى التى كانت تخطر ببال الصحابة حيث كانوا يسمعون لغة القرآن ، فقد نصح بأن يؤخذ القرآن جملة ، لا أن يفسر مجزءا ، وبالجملة كان الإمام يرى أن التماس الوحدة ، الجوهرية من وراء الاختلاف الظاهر ، وبعبارة أخرى أن تفسير القرآن بالقرآن نفسه ، لا بالرأى والظن ، وهو المهمة الأولى لكل تفسير صحيح) . .

وبهذا لايكون مثل المفسر مثل (قوم فسروا القرآن بمجرد مايسوغ فى لغة العرب من غير نظر إلى المنزل عليه القرآن والمخاطب به ، وموضوع الخطاب) .. (الإتقان ٢–١٧٨)

٦ – لابد من النظر فى أحوال البشر ، فى أطوارهم وأدوارهم ، ومناشىء اختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف ، وعزة وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر – كما قال الأستاذ الامام – فالقرآن (كتاب يتحدث إلى عقول الناس وقواهم العاملة ، عن مشكلات الكون ، وحقائق الوجود العلمية ، وكيف يساير ذلك حياتهم ويكون أصلا ثابتا لها ، تختم به الرسالات السماوية)[1] ..

٧ – ثم يعمد إلى تفسير القرآن موضوعا موضوعا ، وأن تجمع آيه الخاصة بالموضوع الواحد جمعا إحصائيا مستقصيا ، ويعرف ترتيبها الزمنى ، ومناسباتها ، ، وملابساتها الحافة بها ، ثم ينظر فيما بعد ذلك – مما سبق بيانه – لتفسر وتفهم (فهما نفسيا عميقا ، معتمدا على ذوق قوى ، وحس أدبى صادق ، فى فهم العربية ، يدرك إيحاء الألفاظ ، ووقعها على النفس ، وينتبه لدلالات العبارات وإشاراتها ، غير واقف عند معانيها المصمته المتبادرة ، متذوقا لفتاتها البليغة ، ومراميها الأدبية فى ذلك بمعرفة صادقة للنفس الإنسانية وحركاتها)[2] .. فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى ، وأوثق فى تحديده لا كما كان يفعل القوم ، يتناولون تفسير القرآن على ترتيب سوره ، يقفون منها عند بعض الآية أو الآية أو الجملة من الآى ، فيبينون مافيها على اللون الذى يؤثره المتناول ، وتضفيه شخصيته على تفسيره ، ومازالت تلك الخطة هى السائدة فى التفسير ، حتى عندما يعنى المفسر بناحية خاصة من القرآن ، ويؤثر موضوعا بعينه ، يتتبعه فى القرآن – كما فعل الجصاص وابن قيم الجوزيه – لا يستقصى تتبع النظائر ويتولاها بالتفسير المقابل

---

(١) ص ٣١٢–٣١٦ وص ٢٩٤ مناهج تجديد .

(٢) ص ٣٧ من هدى القرآن – فى أموالهم .

الذى يستعان فيه على فهم بعض القرآن ببعض فهما يعطى الفكرة الموحدة عن المنهج القرآنى — فيما يتناوله بشىء خاص ، ويحصى ماورد من ذلك فينظر فى جمله .

وقد دعا للأخذ (بالنظرة الشاملة أو الفكرة الجامعة ، فى تفسير هذا القرآن ، راجين أن يتمسك بها أصحاب القول فى تفسيرات اليوم ، فيتتبعوا استعماله فى المواطن المتباعدة، والمناسبات المتغايرة، ليستشفوا من وراء ذلك نظرياته البعيدة فى نظمه وصوغه . ولايكتفون بالنظرة الجزئية إلى الكلمة فى الآية والآية فى السورة ، لأن ذلك لايلائم أهمية هذا الكتاب ، ولايهدى إلى دقائق مراميه الاصلاحية الكبرى التى يحتملها نظمه المعجز ، وصوغه الباهر ، ولايمكن فهمه الفهم الحق إلا بالملاحظة المتتبعة الوافية)[1] . .

وطبق منهجه هذا فيما كتب من هدى القرآن .. فى أموالهم ،وفى رمضان والقادة الرسل ، والسلام فى الاسلام .. ولكن بدرجات متفاوته[2] ..

(٥)

الفن والتاريخ فى القرآن

هذا القرآن .. كتاب العربية الأكبر ، والمعجزة العظمى للدعوة الإسلامية يعطيك بنظمه الصورة الكبرى لما بين التاريخ والفن من تداخل .. ولكن فهم المفسرين للتناول التاريخى فى القرآن كان محدودا بحدود ثقافتهم ..

١ — فالطبرى ، وهو شيخ المفسرين بالأثر ، لم يخل تفسيره من محاولات عقلية واضحة ، وهو مع ذلك ينزل فى حياة علم التاريخ منزلة تكافئ منزلته من حياة التفسير فى الثقافة الإسلامية — لكنك رغم العثور على بعض التأويلات لقصص القرآن لاتستطيع أن تقول إن الرجل قد أحس بالمشكلة إحساسا واضحا ، أو احتاج إلى وقفة ، ليقدر منزلة الفن القرآنى المعجز ،

---

(١) ص ١٠٩ من هدى القرآن — القادة . . الرسل .

(٢) انظر المنهج البيانى فى التفسير الحديث للقرآن الكريم بمصر للمؤلف .

من العرض التاريخى .. ولعله لم يشك فى أن القرآن كسائر الكتب الدينية الأخرى يعد مصدرا للتاريخ ، أو التاريخ الأثرى على الأقل ، والتاريخ الأثرى فى تقسيمهم يقابل التاريخ البشرى الذى مصدره الروايات الانسانية لاالمنقولات الدينية ، ومعها الآثار المادية للماضيين ..

٢ — والخطيب الإسكافى — أبو عبدالله محمد بن عبدالله المتوفى سنة ٤٢١ هـ فى كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل ، فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز) الذى تتبع فيه هذه الآيات فى السور المختلفة ، يحصيها فى دقة ، ويلفت إلى أوجه المغايرة فى نظمها ، ويعالل تلك الأوجه ، مع مراعاة أن الكثير — إن لم يكن الأكثر — من هذه الآيات المتماثلات — إنما هى آيات القصص فى القرآن — لايزيد على أن يقدم تأويلات وتوقيفات لاختلاف نسج القصة القرآنية فى مكان عنها فى مكان آخر .. ويلتمس التعليلات اللغوية والأدبية لاختلاف النسج فى هذه السور للقصة الواحدة ..

٣ — والزمخشرى يؤول تأويلات جريئة واضحة ، ليوفق بين الآثار المختلفة ، لكنه لايزال مخلدا — فيما يبدو — إلى عد القرآن — مع هذا كله — مصدرا تاريخيا ، دون أن يهز هذه الفكرة عنده — ما شعر به من صنيع القرآن الذى استوقفه ، ودعاه إلى التأويل للتوفيق . .

٤ — وعبد الجبار المعتزلى ، صاحب كتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن) ، يشعر بالاختلاف ، ويوفق ، ولايؤثر هذا كله على تاريخية القرآن عنده ..

٥ — والفخر الرازى ، وهو من هو نزوعا إلى هذه الطريقة الحكيمة ، التى تطبع تناوله فى التفسير ، يشعر بالاختلاف فى التعبير ، وتغيير للمعنى كذلك ، ويؤول ، ويمضى فى التأويل بعيدا — لكنه لايشعر بأثر لذلك كله على مصدرية القرآن للتاريخ ، وأنه منها .

٦ — وجمهرة المفسرين ، حتى الذين لمسوا اختلاف النص على الخبر الواحد بذاته ، تشعر عباراتهم بأن هذا القرآن تاريخ ، بمعنى التاريخ الذى عرفوه فى حياتهم الثقافية ، وسموا له علما أو فنا : :

٧ — ومناقشة القوم لاتهام القرآن بأنه أساطير الأولين ، قد يفهم منها فى غير كبير عناء — أن الأحداث غير الواقعية قد تكون مادة للتناول القرآنى الفنى ، ويكون هذا التناول محققا للأغراض الموجودة منه فى العبرة والهداية والإفادة ، ومثل هذا القول كاف للالتفات إلى أن أخبار هذا القصص يمكن أن تكون مما لم يقع فعلا ، أو لامفر من أن يكون هذا المقصوص واقعا فعليا تاريخيا ، لكنهم فيما يتضح لم يتجه ذهنهم إلى هذا الجانب ، أو على الأقل لايتضح هذا الاتجاه فى تناولهم [1] ..

* * *

فلما تلاقت بمصر أضواء التقدم الغربى فى مناحيه المختلفة ، وأنسام الإصلاح الدينى بمحاولاته المتنوعة ، وأستقرت المؤثرات المتعددة ، شرقية وغربية فى مصر ، وتميزت طبقة دارسة حديثة ، غذتها الثقافة المدنية ، وبدت فى معقل الثقافة الدينية نفسها آثار تلك التطورات كلها ، فاذا الشيخ الإمام محمد عبده ، الذى عاش فى باريس وفاوض الساسة فى لندن ، هو الذى عانى إصلاح الإسلام ، وهو صاحب درس تفسير القرآن فى الرواق العباسى فى الأزهر .. ويتحلق حوله أصحاب الثقافة المدنية أنفسهم ، من قضاة ومحامين وأطباء وأشباههم ، كما يجلس اليه المتطلعون من أصحاب الثقافة الدينية المعممين .. وفى هذه المؤثرات الفكرية ، والحيوية ، والدينية ، يتناول القصص القرآنى بالتفسير ..

وظهر القول بأن التناول القرآنى للاخبار الواردة فيه إنما هو وصف لما كانوا يفهمونه أو يعتقدونه ، وليس معنى ذلك أنه الصواب ..

(إن ذكر القصة فى القرآن لايقتضى أن يكون كل مايحكى فيها عن الناس صحيحا فذكر السحر فى هذه الآيات — واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان ومابعدها — لا يستلزم إثبات ما يعتقد الناس منه . كما أن نسبة

---

(١) الفن والتاريخ — الأدب — أبريل سنة ١٩٦١ م .

الكفر إلى سليمان التي علمت من النبي لاتستلزم أن تكون صحيحة ، لأنها ذكرت في القرآن ، ولو لم يكن ذكرها في سياق النبي)[١] ..

كما وقع التصريح بأن القصص القرآني تمثيلي ، والمراد منه تمثيل أخلاق الجنس البشري واستعداده .. الخ :

(والقصة على مذهبهم — قصة آدم والملائكة على مذهب الخلف — وردت مورد التمثيل لتقرب من أفهام الخلق ماتفيدهم معرفة من حال النشأة الآدمية ومالها من المكانة والخصوصية [٢] ..

(وأمثل طرقه في هذا المقام التمثيل ، وقد مضت سنة الله في كتابه بأن يبرر لنا الأشياء المعنوية في قوالب العبارة اللفظية ، ويجلي لنا المعارف المعقولة بالصور المحسوسة ، تقريبا للإفهام ، وتسهيلا للإعلام)[٣] ..

ومثل هذا التفسير يدل على شيء من الاستشراف للتفرقة بين العرضين التاريخي والفني . .

* * *

وتهتز حركة الإصلاح الديني المتطلع للحرية ، بعد وفاة الشيخ ، أو قل إنها تتوقف ، أو تتراجع ، أو تهمل .. لكن الحياة تسير ، فتنشأ الجامعة القديمة التي أحس الشيخ ورهطه بالحاجة إليها ، ويتخرج في الجامعة الأهلية من قسم الآداب من يرسلون لإتمام دراساتهم في أوربا ، ويعودون ليدرسوا في الجامعة التي تصير جامعة حكومية رسمية ، بعد عشرين عاما من وفاة محمد عبده ، وتتعرض الدراسة الأدبية لما في قصص القرآن من حديث عن شئون عربية لغوية وأدبية ، فلا تبدأ المسألة من حيث انتهت قبل عشرين سنة بالتخفيف من تاريخية الخبر القرآني ، وأنه قد يكون ضربا من التعبير الأدبي ، كالذي

(١) ص ٣٩٩ جـ١ تفسير المنار ط سنة ١٣٤٦هـ .

(٢) ص ٢٥٥ جـ١ المصدر السابق .

(٣) ص ٢٦٤ المصدر نفسه

قيل من تمثيلية القصص القرآنى .. لا يكون شئ من ذلك ، بل يتقدم الدرس الجامعى المتحرر المحترم لحق الإنسان فى الشك وطلب التثبت ، وواجب ذلك الانسان اليوم فى ألا يدع لعاطفته أو عقيدته تأثيرا على طلب الحقيقة وتقريرها ..

يقول الدكتور طه حسين فى كتاب (فى الشعر الجاهلى)[1] : (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود الاسمين فى التوراة لايكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ، ونشأة العرب المستعربين فيها ، ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والتوراة من جهة أخرى) ..

إلا أن هذا القول لم يطور هذه النظرة بشئ ، لانه قطع العقدة ، ولم يحاول حلها، فتركت تاريخية القرآن عندما قرره عصر محمد عبده ، مع إعلان عدم كفايته ، إذ كانت قد اكتفت به ، لما تركت القرآن يقول مايشاء دون أن يكفى مايقونه لإثبات وجود شخص تاريخى ، أو قصة تاريخية إذ ذاك ..

(وقد تداعى أشياخ الأزهر اليوم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الاسرائيليات وهو أمر يسير الخطر ، لعل الأجدى من هذا التجريد أن تنقد هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلى ، على هدى قواعد القوم فى نقد الرواية متنا وسندا ، ليستبعد منها هذا الكثير الذى لايستحق البقاء ويستريح الناظرون فى الكتاب الكريم من الاتصال به ، إذا ماحاولوا تفهم آية ، فلا يقفون عند شئ لاأساس له ..

---

(١) أوردت قول الدكتور طه حسين فى هذا المجال — مع أنه لم يشتغل بالتفسير — على أساس (أنه تناول القول فى القرآن بما هو مادة درس الأدب وتاريخه) كما أشار إلى ذلك الأستاذ الخولى انظر مقال (ثمرات فى مناهج الدراسات الادبية) الأدب — مارس ١٩٦٩ م

وأما هذه الإسرائيليات — كما سموها فعلى الأشياخ واجب آخر فى تاريخ الأديان وتحقيق صلاتها ، وهو واجب لاينبغى أن يقوم به أحد قبلهم ، ذلك هو جمع هذه القصص ، ودرسها مردودة إلى أصولها مبينة مصادرها ، ليدل ذلك على مسالك التأثر والتأثير بين الأديان ومداخل اتصالها)[١]

وقد سبق الأستاذ الإمام الى قريب من هذه الدعوة حين قال :

(كان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة ، كبعض كتب الحديث ، وبيان قيمة أسانيدها ، ثم يذكر فى التفسير ما يصح منها بدون سند ، كما يذكر الحديث فى كتب الفقه . لكى يعزى إلى مخرجه)[٢]

إلا أن العلم بتاريخ الأديان المقارن ، وأصول القصص ومصادرها ، لم يكن بحيث يهيىء لمثل مادعا إليه الأستاذ الخولى ..

(٦)
خطوة على الطريق

وبهذه المحاولة لوضع ما ذهب إليه الاستاذ الخولى إلى جوار ما سبق إليه الاستاذ الإمام ، لا يسعنا إلا أن نقول : إن الاستاذ الخولى قد استفاد كثيرا من أستاذه الإمام محمد عبده ، قرأه قراءة واعيةمتبصرة، ونخل آراءه نخلا ، ومد لها أبعادا جديدة ، واحتج لها بما له من قدرة على الحجاج ، وهيأ لها بتطبيقاته وبتلاميذه ، إمكانية مدرسة جديدة ، تتخذ التفسير الادبى سبيلا .

فإذا كان الاستاذ الإمام دعا إلى علم اليقين (الذى يطابق الواقع عن عيان أو دليل صحيح) ، ليخلص التفسير من روايات وأقاصيص زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب ، وما إلى ذلك من مسائل الهوى والتعصب للرأى ، وأسباب النزول التى تحد المعنى ، أولا تعتمد على سند صحيح[٣] . .

---

(١) ص ٢٧٨ مناهج تجديد . .

(٢) ص ٨ المنار ج ١ .

(٣) ص ٧ ج ١ المنار .

وإذا كان الأستاذ الإمام قد شجب جدل المتكلمين ، وتخريجات الأصوليين واستنباطات الفقهاء المقلدين ، وتأويلات المتصوفين ، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض ، مما يصرف عن مقاصد القرآن العالية وهدايته السامية[١] .

وإذا كان الأستاذ الإمام قد دعا إلى التزود بأساليب النحاة دون أن تشغلنا مباحث الاعراب وقواعد النحو عن المقصد الأعلى من القرآن . . وإلى التزود بأساليب البلغاء وممارستها ، ومعرفة دلالات الألفاظ فى زمن التنزيل[٢] .

وإذا كان الاستاذ الإمام قد دعا إلى العلم بأحوال الأمم ، والعرب خاصة وبحياة المسلمين الأول ، ثقافيا وسياسيا واجتماعيا ، وبوجوه هداية البشر كلهم بالقرآن .

وإذا كان قد دعا إلى تفسير القرآن بالقرآن ، والتكلم فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد[٣] .. وانتقد إيراد العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ، مما ليس هدفا للقرآن ، فتصد قارئها عما أنزل الله ، وتؤدى إلى (تعطل مواهب الحس والعقل)[٤] . .

اذا كان الأستاذ الإمام قد فتح هذه الآفاق — وإن تنكب به طريق التطبيق كما سبقت الإشارة إليه — فإن الأستاذ الخولى قد دعا إلى تحرير المنهج بوسائل البحث العلمى ، وطرائق النقد الدقيق الحر المنتظم ، وإلى الاستعانة بكل ما بلغته الثقافة الفنية من دقة وتطلع ، وطبق كل ما دعا إليه الأستاذ الإمام فى تفسير أدبى (محض صرف ، غير متأثر بأى اعتبار وراء ذلك ، وعليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد إليه) . . وتمثل

---

(١) جـ ١ ص ٧ المنار .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .
(٣) نفسه — جـ ١ — ص ٢٢ — ٢٤
(٤) نفسه — جـ ٢ ص ٢٠٥ .

هذا التطبيق فى معجم لغوى لألفاظ القرآن ، وفى دراسة موضوعات (من هدى القرآن) متكاملة ، وفى تأصيل فنية القصص القرآنى . .

ومن خلال أبحاثه فى تاريخ القرآن ، وفى موضوعات القرآن ، كشف لنا عن كثير من القيم الدينية والأدبية ، كانت غير واضحة المعالم فى نفوس الكثيرين ، أو كانت مرسومة فى الأذهان رسما خاطئا . واحتج لذلك كله بما أوتى من قدرة باهرة على الإقناع ، وخاض فى هذه السبيل معارك وأحرز انتصارات ، أبرزها تجميع تلاميذه حول هذا المنهج ، يخطون بخطواته ، ويوسعون ، ويعمقون موضوعاته ، وفى مقدمة هؤلاء الدكتورة عائشة عبد الرحمن بما قدمت وتقدم فى (التفسير البيانى للقرآن الكريم) و (مقال فى الإنسان . . دراسة قرآنية) ، و (كتابنا الأكبر) ، و (القرآن وقضية الحرية) ، و(القرآن ومشكلة الترادف) (القرآن وحقوق الإنسان) و(من أسرار العربية فى البيان القرآنى) .

. . هذا إلى ما قدم من رسائل جامعية فى (جدل القرآن) ، وفى (الفن القصصى فى القرآن الكريم) ، وفى (نشأة التفسير واتجاه تطوره) ، وفى (وصف القرآن ليوم الحساب) ، وفى (إعجاز القرآن) ، و(منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن) . . بالإضافة إلى ما تنسمه الجو الأدبى فى (مشاهد القيامة فى القرآن الكريم) . . وغيره ، وغيره كثير . .

ولا شك فى أن التفسير بعامة فى أقلام المفسرين — بعد ما بين الأستاذ الخولى معالم منهجه — قد استفاد كثيرا بما ذهب إليه ، وحسبك ما تطالع من حين لآخر عن تفسير للقرآن الكريم تحت إطار تفسير القرآن بالقرآن كما تطالع موضوعات قرآنية درست مستقلة كالتصوير الفنى فى القرآن الكريم ، وأمثال القرآن ، والقرآن والطبائع النفسية والمجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء . . وغيرها وغيرها . .

ثانيا — التجديد فى اللغة والنحو

(١) منهج تجديده فى اللغة والنحو :
(٢) مشكلات حياتنا اللغوية :

— إن آفات حياتنا فى جمهرتها تعود إلى علل لغوية ، تصدع الوحدة ، وتحرم الدقة وتبدد الجهد ، وتعوق تسامى الروح والجسم والعقل والقلب . .

— يجب أن نعرض مقررات علومنا العربية من لغة ووضع واشتقاق وصرف ونحو . . الخ للتحليل فى مخابر المناهج اللغوية المحدثة المدعمة بما بلغ الإنسان من ثقافة علمية تجريبية بعامة ، وثقافة لغوية بخاصة .

وفى ضوء الأشعة النافذه من هذه المعرفة الانسانية الطليقة المتطلعة، نستطيع تشخيص مشكلات حياتنا اللغوية . .

مشكلات حياتنا اللغوية

منهج تجديده فى اللغة والنحو :

(١)

(ليس بدعا أن نشعر بالصلة الوثيقة ، والعلاقة القريبة جد القرب بين وجودنا السياسى وحياتنا اللغوية ، وبين كياننا العالمى ووجودنا اللسانى ، وبين كرامتنا الأدبية . . فتلك كلها . فى نظر الاجتماعى — وشائج متواصلة ، وأواصر متداخلة ، لا يشعر بينها بانفصال ، ولا يجد تباعدا)[1].

(وليس بالكثير ، ولا المبالغ أبدا ، أن نقول : إن آفات حياتنا — فى جمهرتها — تعود إلى علل لغوية ، تصدع الوحدة ، وتحرم الدقة ، وتبدد الجهد ، وتعوق تسامى الروح والجسم والعقل والقلب . . فالأزمة اللسانية ليست إلا أزمة اجتماعية عملية ، وعلمية تعليمية ، وفنية حيوية وهى ببعض ذلك خليقة بأن تكون أزمة وطنية سياسية ، تهز الكيان الاجتماعى كله)[2]. .

لهذا كان واجب كل قادر غيور على وجوده الادبى والاجتماعى والقومى أن ينهض للحفاظ على لغته ، وتنميتها ، وإخصابها بالقدرة على التعبير عن احتياجاتها الإنسانية المتجدده . :

لكننا لا نستطيع أن نصل إلى شئ من ذلك ، مالم نشخص هذه اللغة تشخيصا كاملا ، نتعرف منه على تاريخها المرضى :(كيف نشأها أهلها وعلى اى منهج أقاموا درسها ؟ وعلى أى أساس بنوا قواعد علومها ؟ وهل كانوا فيما أخذوها وأخذوا أنفسهم أسوياء راشدين ، جارين على ملة

---

(١) ص ١١٠ فن القول .

(٢) ص ٢ — ٦ مشكلات حياتنا اللغوية .

هدى البحث إلى صوابه ؟ أو كانوا على غير هذا السبيل ؟ ومذا اخلفت تلك التربية — غير الرشيدة — من آثار فى بناء اللغة ؟ ثم . . ما وجه الرأى التجريبى الصائب فى إصلاحه ؟[1]

ومن ثم . . يجب أن نعرض مقررات علومنا العربية من لغة ووضع واشتقاق وصرف ونحو . . الخ (للتحليل فى مخابر المناهج اللغوية المحدثة المدعمة بما بلغ الانسان من ثقافة علمية تجريبية بعامة ، وثقافة لغوية بخاصة وفى ضوء الأشعة النافذة من هذه المعرفة الانسانية الطلقة المتطلعة ، نستطيع تشخيص مشكلات حياتنا اللغوية)[2].

وقد يبدو للناظر فى حياتنا اللغوية أن الصعوبات التى تعترض طريقها وتثقل كاهلها ، وتحول بينها وبين الوفاء بمتطلبات حاضرنا ماديا ومعنويا هى :

١ — (فلسفة حملت القدماء على أن يفترضوا ويعللوا ، ويسرفوا فى الافتراض والتعليل :

٢ — إسراف فى القواعد ، نشأ عنه إسراف فى الاصطلاحات :

٣ — إمعان فى التعمق العلمى ، باعد بين النحو والأدب)[3] .

على حين أن التفلسف لا يكون عيبا إلا فى الكتب المدرسية التعليمية والإسراف فى القواعد والاصلاحات ليس ذنب النحويين ، لكنه شئ اقتضت أكثره طبيعة اللغة ، وسعتها ، وأشياء فى كيانها . . والمباعدة بين النحو والأدب شئ يتصل بطريقة الدرس وخطته . ثم إن الوصل بين النحو والأدب لا يؤثر فى كثرة القواعد، ولا فى تشعب الاصطلاحات :

---

(١) ص ٩ مشكلات حياتنا اللغوية .

(٢) ص ١٤ المصدر نفسه .

(٣) ص ٤١ مناهج تجديد ..

(لكن أسباب الصعوبات ترجع إلى :

١ – أننا نعيش بلغة غير معربة ولا واسعة ، حين نتعلم لغة معربة وافرة الحظ من الأعراب ، واسعة الآفاق مع ذلك . فكأننا بهذا نتعلم لغة أجنبية وصعبة .

٢ – أن هذه الفصحى الواسعة المعربة ، مع ثقل إعرابها علينا ، لا يسهل ضبطه بقاعدة ، بل يسوده الاستثناء .

٣ – أن هذه الفصحى فيما وراء إعرابها المضطرب ، وسعتها ، وانتشار قواعدها . باختلاف الكلمات – تعود فلا تستقر على حكم وقاعدة فى الكلمة الواحدة ، أو التعبير الواحد)[1] .

وإذا ما قدرنا أن هذه العقد جوهرية ذاتية ، فقد بدا أن حلها يمس الجوهر والكيان ، لابد ، ويحتاج إلى عمل جراحى ، أو ما يشبهه ، بمباضع معروفة من أصول نحاتنا ، وأن نستعين على علاج العربية بحيويتها هى ، لا بنقل دم ، ولا باعانة بغريب عن جسمها .

مع مراعاة ظاهرتين عربيتين خطيرتين :

١ – أن التطور اللغوى لا يأخذ مداه فى حياة الشعوب التى تتكلم العربية ، بل تصيبه نكسة ، أوردة ، أو رجعة ، فينقلب على عقبه وتعود الدورة من جديد .

٢ – أن اليقظة الحية فى كيان الشعوب التى تتكلم العربية لا تنتفع بماضيها ، ولا تلتفت لما حولها ، ولا تستفيد من تجارب أسلافها الأقربين.

---

(١) ص ٤١ – ٤٣ مناهج تجديد .

أو الأبعدين ، وبخاصة فى الميدان اللغوى ، بل فى هذا الميدان ذاته تخلف الظن وتخطئ الواقع ، ولا تعمل عملها فى غيره[١] . .

ومن أجل هذا وجب علينا — ونحن بصدد حل مشكلاتنا — أن ننظر إليها من جوانبها المتعددة ، مستفيدين من كل التجارب والخبرات فى لغتنا وفى غيرها مستعينين بكل بحث حر انتفع بآخر ما وصلت إليه الانسانية من جهد فى الدرس اللغوى ، دون قبول أقوال الأولين فى ذلك بلا تمحيص ، مع بذل أقصى وسع الانسان فى طلب الحقيقة ، واضعين نصب أعيننا :

١ — أن مستوى الدرس اللغوى بعامة لا يوضع إلا فى الدرجة التى يقف عليها زمنه من سلم الرقى . . ومع إكبارنا لهذا الجهد من أهله فى حينه ، لا يسعنا قط أن ننكر أن الحياة اليوم قد تقدمت بهذا الدرس اللغوى ، مع تقدم سائر فروع المعرفة . .

٢ — أن اللغة فى فهم قدمائنا نشاط عقلى ، يضبط العقل المنطقى الفردى فى وضعه ونموه وتطوره ، والدرس اللغوى اليوم يطمئن إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، والتغييرات اللغوية تتم بطريقة آلية ، مستقلة عن إرادة المتكلم بها ، بل بغير شعور منه . .

٣ — أن النحو عندهم عمل منطقى قامت فى عقول العرب علله ، بل نصت العرب على تلك العلل أحيانا ، فهو قياس له ، والمجال فسيح فى تعليله للعقل المنطقى[٢] . .

مع أنهم يقررون فى مقدمتهم اللغوية لأصول الفقة : أن القياس لا يجرى فى اللغات . . والكوفيون كانوا يميلون إلى التتبع اللغوى ،

---

(١) أنظر الأدب — مايو سنة ١٩٦٢ .

(٢) ص ٧٧ — ٧٨ مناهج تجديد .

وعدم اتباع التأويلات البعيدة ، والإمعان المنطقى الذى جنحت إليه مدرسة البصرة . . وقول الكسائى (أى كذا خلقت) دليل ذلك[١] . .

٤ — وإذا كان جمع الأقدمين للثروة اللغوية ناقصا ، كما وصفوه هم أنفسهم ، يقتضينا هذا النقص استكمال الجمع قدر الطاقة الانسانية ، ثم الاجتهاد الحر للنظر فى الاستفادة مما عسى أن تمتد له الأيدى من تلك الثروة ، باستقراء دقيق يؤثر على القواعد الأولى ، أى تأثير ، تقتضيه طبيعة هذا الواقع[٢] . .

٥ — أن الأقدمين أنفسهم إن أعلنوا إغلاق باب الاجتهاد الفقهى فقد ذموا التقليد فى النحو ، ولم يصونوا من الخطأ إجماع نحاة البصرة والكوفة ، واشترطوا لاستنباط مسائل النحو العلم بلغة العرب ، والإحاطة بكلامها ، والاطلاع على نثرها ونظمها ، والخبرة بصحة نسبة ذلك إليهم ، مع علم بأحوال الرواية ، ولا يتشدد دون فيما تتحقق به هذه الشروط . . وصرح بعضهم بأن للإنسان أن يرتجل من المذاهب النحوية ما يدعو إليه القياس ، بما لم يخالف نصا . . فمن فرق له عن علة صحيحة وطريق نهجه كان (خليل) نفسه وأبا عمرو) فكرة[٣] . .

٦ — وإذا كانت أصول اللغة محمولة على أصول الشريعة ، وكل من الشريعة واللغة مظهرا قديما ، من مظاهر حياة الجماعات البشرية ، واللغة أقدم وأشد المظاهر الحيوية لينا ، وأقلها تصلبا وتحجرا ، وأطوعها للتطور فليس مايحول بيننا وبين الأخذ بقواعد تهذيب النحو على غرار ما فعلت لجنة الأحوال الشخصية المعدلة للدستور فى بداية العقد الخامس من القرن العشرين — مجملة فى :

(أ) ملاحظة التيسير والرفق ..

---

(١) مناهج تجديد ص ٨١ .

(٢) نفسه ص ٨٤ .

(٣) نفسه ص ٧٠ — ٧١ .

(ب) جمع كل مايوجد من المذاهب النحوية ، حيثما وجد ، والتوسع في فهمه ، دون الوقوف عند ظاهره .

(ج) عدم التقيد بمذهب نحوى واحد فى مسألة بعينها ، وعدم التقيد بالأفصح ، أو الأرجح ، أو الأصح ، الذى نصوا عليه ..

(د) تخير مايوافق حاجة الأمة ، ويساير رقيها الاجتماعى على ضوء التجارب العلمية ، والخبرة التعليمية ، والشكاوى الحقة من المصاعب اللغوية [1] ..

وبهذا نمد الفصحى — فى صراعها للعامية — بقوة تهيء لها شيئا من الثبات والمقاومة ، وإن لم يكن التغلب والانتصار ..

وبهذا نوفر للجيل الجديد القدرة على ممارسة لغته ، مع إلف لقواعدها ومعرفة لخصائصها ، وتذوق لفنونها .. دون كبير مشقة ، ولا إعنات ..

(٢)

على أن (الأمر فى تعليم اللغة وتعلمها ، وبخاصة فى تعلم مايكسب ذوقها ويلهم فنها ، إنما هو أمر وجدانى صرف ، ونفسى محض ، يستغنى فيه الدارس بالإقبال والممارسة الفعلية عن القاعدة النظرية ، والتلقين التعليمى فيخلى ونفسه) ، ليقرأ ، ويتحدث ، ويجد ، ويلاحظ . فيتذوق ويكتسب . وأنى له أن يفعل ذلك ، أو شيئا منه ، ذا جدوى ، وهو يأتى هذه اللغة بما نعرف ، ونحس ونألم ، وتلك الفصحى التى نعلمها بين هاتيكم الغوائل المناوشة ، والمفزعـات المتخطفة ، قد أصابها من وجودنا القومى ، ومنزلنا بين الأمم ، مامس الشغاف ، وحز القلوب ، وزلزل المشاعر ، فلم ترزأ بمباعدة الأفواه ، ومجافاة الألسن ، فحسب ، بل بعدت عن النفوس ، ولم تخطر فى الأفئدة ، ومع مثل هذه الحال اليائسة يشق على المتعلم تمثلها ،

(١) ص ٢٧ مناهج تجديد .

ويصعب عليه النفوذ المستشف إلى خصائصها ، والإدراك اللامح لطبائعها وميزات قولها الفنى ..فتصعب بكل أولئك مهمة المعلمين ، ويحتاجون إلى ضروب من المعاناة ، والتلطف ، والمحاولة ،والتحايل ، ثم لايظفرون من ذلك — على عظمه — بجدوى تكافئة) [١]..

إن مشكلة تعليم اللغة لا تحد بمنزلة الفصحى بين أهلها ، ولا بما تلقاه هجمات سياسية خارجية ، بل بما بين الفصحى والعامية من صراع فى نفوس المعلمين والمتعلمين . :

لذلك كانت (ذات شعب متراكبة ، وعقد كثيرة العدد ، خطرة الأثر ، بعيدة المدى ، تتصل بما تلقى الفصحى من عنت فى صراعها للعاصفات المزعزعة لها ، على حين تمتد العقد فى أغوار التاريخ ، وتساير حياة الفصحى منذ حلت مصر فى العصر الإسلامى ، وتمضى معها لتلاحقها فى حياتها العصرية ، بل لتقطع عليها طريق المستقبل ، وتسد مهاب الريح وتأخذ منها بالمخنق)[٢].

والعامية التى وجدت مع وجود الفصحى فى بلادنا ، ظلت تغتصب من الفصحى أماكنها فى الحياة ، وتنافسها فى أخص الأماكن وآمنها وأسلمها ، فتقصيها عن الأفواه ، وتجنبها الألسنة ما استطاعت ، وبذلك تحول دون قربها من القلوب ، وتعلق الأهواء ، فتزيدها ضعفا على ما أضعفتها به المنافسات الاجتماعية من لغات غالبين ظافرين ، وحاكمين مسيطرين ، قديما وحديثا . فقد عانت الفصحى من التركية والتترية والفارسية وغيرها من لغات الشرق قديما ، مثل ما تعانى اليوم من الفرنسية والإنجليزية وغيرها من لغات الغرب حديثا . .

ولو كانت هذه الفصحى — حين تقف فى هذه الميادين من حرب اللغات على طول الزمن — إنما تقف منيعة الظهر ، مستمكنة القدم ، على

---

(١) ص ١١٢ فن القول .

(٢) ص ١١٣ المصدر السابق

أنها لغة الحياة فى مظاهرها كلها ، لكانت أقوى جنانا ، وأبطش يدا ، فى صراع الطارئ عليها)[١]

لكن العامية حالت بينها وبين مزاولة الحياة ، والتغلغل فى جوانبها وأطرافها . . فلم تهيأ لها القدرة على التدرج الدائم ، والتجدد المستمر والنماء المساير لأوضاع هذه الحياة كلها شيئا فشيئا[٢].

بل نجد العامية اليوم (تسبق إلى الاتصال بالحديد الطارئ، من عوامل مؤثرة ، ولغات مهاجمة ، تستجيب لهذه ، وتأخذ من تلك ، وتعنى بحاجات الناس فى كل أولئك ، أو على الأقل فى الكثير من هاتيك الحاجات قبل أن تكون الفصيحة قد مدت إلى ذلك يدا ، أو استطاعت إليه سبيلا)[٣] .

ومن ثم (تتشكل العامية وتتدرج ، وتأخذ وتتقبل ، فى استجابة مسرفة ، وتحول نشيط ، يستعصى على الضبط والتيسير ، وتحتكم فى ذلك كله من أمرها عوامل ليست فى يد أحد ، ولا فى متناول قدرة.. فالمؤثرات الجوية نفسها والمؤثرات الصحية ، والمؤثرات العلمية ، والمؤثرات الوجدانية ، والمؤثرات الاقتصادية ، والمؤثرات السياسية ، والمؤثرات الخلقية ، وما استطعت أن تذكر أو تعد من مؤثرات تتناهب اللغة طبعا وتوجها وتضخما وتحويلا وتعريفا ، ولن يقوى حاكم ، ولا متجبر ، ولا مصلح ، ولا مجمع ، ولا طائفة على الوقوف فى سبيل مطاوعة اللغة لذلك كله ، واتساعها لذلك كله ، ووفائها بحاجة ذلك كله .. كلما بدا فى الفصيحة جمود ، أو شبه جمود فى ناحية ما ، من اصطناع مواد جديدة ، أو تقبل صيغ جديدة ، أو تمثل أساليب جديدة .. الخ تقدمت تلك العامية ، فوفت بحاجة الجماعة فى ذلك كله ، لأن هذه الألسنة والأفئدة قوى قاهرة ، لا يحتكم فيها أحد ، ولا يقهرها أحد)

---

(١) فن القول ص ١١٤
(٢) المصدر السابق ص ١١٥ .
(٣) نفسه — ص ١١٦ .

وهنا كان فى حياة الفصحى ، أو قل — بعبارة أدق — كان فى حيوية الفصحى من النقص الذى يعوقها عن السبق الواثب إلى تحقيق هذه الحاجات ، بقدر مافى حيوية العامية الفياضة ، من الغلبة والتفوق فى المطاوعة والمجاراة [١]..

وموقفنا من هذه المعركة يجب أن يتحدد بعاملين هامين :

١ — (الكرامة القومية التى بها تكرم اللغة ، وتدنو من الأفئدة والألسنة ، وتلك مسألة تمس كيان الجماعة كله ، وتعمل لتحقيقها قوى الجماعة كلها .. وتوزيع العمل على تلك القوى ، وتكليف كل قوة نصيبها منه ، عمل اجتماعى عام أيضا ، يعنينا منه هنا أن نلفت المعلمين — منشئ الجيل الخالف — إلى حظهم منه ، حين يحسنون التأتى لذلك ، ويجعلون هؤلاء الفتية يشعرون بالفرق الأدبى بين اللغتين ، ويحدون من الحنين إلى مجد المستقبل المبنى على فخر الأمس ، مايجعلهم يلتفتون إلى هذا الأمس ، وآثاره فى حاضرهم وحين يعرضون هذه اللغة ويتخيرون منها مايفى بحاجة اليوم الفنية ، ويقع من أنفس الأبناء موقع ما يتعلقون به من آثار اللغات الأخرى وآدابها وحين يدركون بشفيف وجدانى ، وحس أدبى مواقع رضا هؤلاء الأبناء من الأنغام والأصوات والأصداء ، فيكثرون من توقيعها وترديدها على آذانهم ، إلى غير ذلك مما يوجد ويدرك ، ولايضبط ولايعلم) [٢].

(وتبيننا لهذه الغاية ، وتفريقنا الجلى بين أن نرد على الفصحى كثيرا أو قليلا مما فقدت من مسايرة للحياة وقرب من الألسن والأفئدة وذيوع فى الناس ونزول فى منازل أجلتها عنها العامية الشائعة المحببة المرنة المتجددة ، وبين مايتوهم من رد الفصحى إلى صورة مافى عصرما — يدل على أن نجاحنا إنما هو فى أن تقرب هذه الفصحى فى ذوقها الصوتى ، وجرسها الموسيقى من آذان أبناء اليوم ، وأن تستجيب وتسعف على دقائق من فروق المعانى وسائغات الصيغ التى جلبتها حياة اليوم ..

---

(١) فن القول ص ١١٧

(٢) المصدر السابق — ص ١١٨

فما بنا أن نرد عبارات منسية إلى الوجود ، ولا أن نلزم بصيغ مهجورة، ولا أن نروج لأساليب متروكة بل نستعين من ذلك بما تهيأ له الصلاحية والقرب والإيثار والخفة، فان لم يتهيأ لنا ذلك التمسنا غيره ، وأكسبنا اللغة سواه) [١] .

٢ — (ليس من الخير فى شىء أن نفكر فيما يعمل من أجل الفصحى ، على أساس مقاطعة العامية والنفور من مساسها ، بل على العكس من ذلك نفكر على أساس الانتفاع بما بين الفصحى والعامية من نسب وسبب ، واقتراب واتفاق ، فنقدر أن هذه العامية من مولدات الفصيحة ، يجرى فى عروقها الكثير من دمائها، وقد تلقت بالوراثة عنها غير قليل من مميزاتها وتكونت من كثير من موادها ، كما نقدر أن بين الفصحى والعامية اختلافا وتغايرا ، من حيث راجت الثانية وكسدت الأولى،وأيسرت تلك فى نواح املقت فيها هذه وبما نفهمه من اختلاف بينهما أو اتفاق ، نعرف مايعوز العربية وقد نجد الوفاء بشىء منه فى العامية نرده إلى أصله الفصيح وندع الفصحى تعترف بمكانه فيها،فيكون رواجه كسبا لها ، لا للعامية التى انتزعته وقد نجد الوفاء بما نقص العربية من مرانة ومطاوعة فى بعض ما جربت العامية ،واكتسبت بالخبرة من أنماط المسايرة،وظواهر الاستجابة فنكسب العربية من ذلك مانستطيع إكسابها إياه،إن كانت أصولها تعين عليه، أو كنا قد اعتزمنا شيئا من التجدد نكمل به هذا النقص فى فصيحتنا .

وفى كل حال .: من الخير أن ندرك مابين الفصحى والعامية من اتفاق ينتفع به ، أو من اختلاف يتقى شره ، وهكذا ننتفع بما بينهما من الاتصال ، فى التقريب والتحبيب ، والإغراء والترويج، كما نهتدى به فى الاختيار والإحياء ، والتعويض والتكميل) [٢] .

---

(١) فن القول — ص ١٢٠ — ١٢١

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ — ١٢٢ .

وعلى هذا ... يكون واجب المعلمين وعمل الفصحى بالحياة على أساس من :

١ — عمل قاموسى : يتصل بمتن اللغة ، وربطه بالحياة ، وإجرائه معها، أو مسايرته لها .

٢ — عمل نحوى : فى قواعد تأليف الكلام ، ومنع اضطرابها به ، وتيسير ضبطها . وقرب الكلام النحوى من لغة الحياة قدر الطاقة .

٣ — عمل بلاغى : أو فنى ذوقى : فى الرياضة على تذوق الفن الأدبى للغة ، وجعل هذا التفنن والتذوق مسايراً للمزاج العام فى سائر الفنون ، ونواحى الجمال ، وطرائق التعبير المختلفة عن إحساس بالحسن، والشعور بالجمال ..

— والعمل فى متن اللغة ومفرداتها يخدم التجديد النحوى خدمة قريبة مثمرة يتهيأ معها التيسير، والأخذ بالأساليب الحيوية المباشرة ، فى تعلم خصائص نظم الجملة العربية ..

وأما فى الفن والتذوق ، فجلى جدا أن قرب مفردات اللغة من الحياة اليومية ولغة الحديث ، من أشد مايكون ضرورة لإمكان كسب الذوق الفنى للغة، والاتصال المثمر بآثارها الأدبية الكبرى، والتمكن من الشعور بما أحسه أصحاب هذه الآثار ، وماراموا إليه حين نظموها.. ولاغرو فان هذا التذوق يقوم أول مايقوم على وجدان وقع اللفظة،والشعور الفنى بجرسها ، ثم بدلالتها المعنوية وإثارتها النفسية،ويلى هذا خصائص النظم وسر التركيب ..

والفصحى بما عوقتها العامية وعزلتها قد افتقرت إلى أشياء متعددة ، ننظر فيها كلها، لنرى مانستطيعه منها، وندفع مالابد للمعلم يعمل خاص فيه.. ومن تلك الأشياء :

١ — كلمات مستحدثة لمعان مستحدثة، مما جد ويجد فى الحياة ، وبخاصة تلك الحياة التى يقوم فيها الشرق مقاومة هذا التخلف . والتيار

فى هذا جارف عنيف ، يحتاج إلى جهد كبير ، وعلاج ،حاسم ، لايتوقف على عمل المدرس وحده .

٢ — كلمات مقربة ، قذواتاها الاستعمال ، حتى ابتذلت وبدت عامية ، ليس لها فى الفصيحة نسب ، على حين هى فى حقيقة الأمر فصيحة المادة والصيغة ، صحيحة النسب فى الفصحى ..

٣ — كلمات مهملة قد أخطأها الاستعمال ، وهى تصلح لأداء معانى كلمات استعملتها العامية من غير العربية ..

وأشير بذلك إلى مصطلحات علمية فعلية ، حفظتها علوم السلف ، ودونتها كتبهم ، أو حفظتها أعمالهم وصناعاتهم وفنونهم ، أو حفظها التاريخ عن نظام حياتهم ، وما كانوا يتناولون من أدوات وأمتعة ، أو يعتادون من عاد ، أو يستعملون من عبارات فى مناسبات الحياة المختلفة ، مما سبيله الاطلاع العميق مع المعرفة الكافية بشى من أصول تلك العلوم أو الفنون ، والخبرة بأوضاع الحياة .

٤ — كلمات ترف ، تعوق الغرض المرجو من اللغة فى حساب الذين اتخذوها أداة الإفهام ، وتمنع السبيل إلى الإبانة التى هى كل مايرجى من اللغة ، وترجى اللغة من أجله ، وإن يسرت غير ذلك من رغبة ، من صنوف ألفاظ الأضداد والمشتركات لفظا ومعنى ، والمترادفات التى تدل على معانى مختلفة وأحوال متغيرة ، ولوأنها لشىء واحد ، وإن تكن اللغة على مر الزمن قد نسيت هذه الفروق فى المفهوم..

— والعمل النحوى أضيق مما عداه ، لأنه يمس أصولا وقواعد ، هيهات أن يستطيع العمل الفردى فى جوهرها وصميمها تغييرا ، والجماعة إزاءها متوقفة متهيئة ، تصر على أن تخرج اللغة عن ناموسها الاجتماعى ، وتأبى عليها أن تكون مرنة طيعة ، مواتية للحاجة ، مطيعة للتغيير ، ولاتنكر على هذه القواعد جمودها ، بل تصلبها ، وتفيض عليها شيئا من القدسية الزائفة ، تصل فيه بين القرآن وتلك القواعد

وصلا لا أصل له ولاأساس ، ولاخوف على لغة القرآن من ذلك فقد تغيرت قواعد الكتابة العربية ، وتقرر ما يخالف رسم المصحف وظل القرآن بيننا يؤدى دوره الذى جاء من أجله ، لاينقص من ذلك شيئا وشتان بين الكتابة عن المصحف واختلاف النحو عن بعض قراءات هذا المصحف التى خالفت القياس ، فاختلاف الكتابة أشد قربا من الخطأ اللفظى والمعنوى ، لولا بقاء الحفظ مع استقامة اللفظ فى اللسان العربى ، أما القراءات التى خالفت القياس فلم يتأثر بها المعنى إلى حد الوقوع فى الخطأ ، ولكنها رخصة اللهجات واللسان العربى المتأثر بظروف بيئته

إن الواجب أن ندع النحاة وآراءهم وقواعدهم ، ونمضى إلى ماوراء ذلك من أصولهم التى استخرجوا منها هذه القواعد ، فنحاول — بحسب استعمالهم هم لها ، وكما دلوا على هذا الاستعمال ، وعلى رغم مالنا من اعتراض على هذه الأصول — أن نرجح من منقول اللغويين ومرويهم فى اللغة أوجها تدفع هذه الصعوبات ، وتقلل هذا التحدد ، وتغنى المتعلم عن بذل جهد عنيف .

ونعمل على تقليل الاستثناء ، واضطراب الإعراب ، ماستطعنا إلى ذلك سبيلا ، نختار ما هو بسبب من لغة الحياة والاستعمال عندنا ، فإن لنا فى عاميتنا إعرابات بالحروف مثلا قد نطمئن إلى أن لها أصلا عربيا ، بل هذا قد يرجحه البحث أو يثبته .

وفى كل حال .. فإن أنسنا بهذه الإعرابات وإلف المتعلم لها فى لغة البيت أو الشارع ، سيجعل الوجه الذى نختاره من الفصحى قريبا من أنفسنا ، سهلا لاجدة فيه ولاإعنات[1] .

وهذا التيسير والتقريب قصد به الأستاذ الخولى من ليس عملهم فى الحياة الاشتغال باللغة وأوجه إعرابها من سائر الطبقات

---

(١) راجع فن القول ص ١٢٢ — ١٣٩ .

العالمه والعاملة فى الشعب ، أما من عملهم الاشتغال باللغة وعلومها وآدابها فمنذ يبدءون تخصصهم فى ذلك ، ويفصلون عن التعليم المشترك إلى أقسامهم الخاصة ، فلهم أن يرددوا من هذه الاستثناءات التى تربك الإعراب مايشاءون ، وأن يبتغوا من أوجه الاختلاف مايعرفون به الفصيح والأفصح والأقل والأكثر ، مادامت الدنيا حولهم تمكنهم من ذلك ، وتجيزه لهم .

(٣)

وما يجب على المعلم بهذا الصدد :

١ — ألا يشعر متعلم العربية الفصحى — حين يبدأ تعلمها — أنه يتعلم لغة أخرى أجنبية ، تختلف اختلافا جوهريا عن لغة الحياة ، التى يستطيع الطفل أن يعتمد عليها قبل دخوله المدرسة ، ويجد فيها وفاء حياته اللسانية ، وحياة قومه وأهله .

٢ — إشعار التلاميذ فى كل دور من أدوار تعلمهم — منذ يتكلفون النطق الصحيح إلى أن يجهروا بالبيان الفنى الناضج — بأن هذه اللغة شىء من قوامهم الحيوى وكيانهم الفعلى ، ومساك لجماعتهم ، ورباط لوحدتهم وقوة فى شعورهم بأنفسهم ، ووجدان امتهم لذاتها ، وإبعادهم قدر ما تنال الطاقة ، ويمتد التأثير ، عن أن يشعروا بأن هذه اللغة مادة يتعلمونها لينجحوا فى الامتحان ، أو يحرزوا إجازة من الإجازات أو يظفروا بمنصب من المناصب

٣ — أن يقدر المعلم — فى سعة صدر ورحابة قلب — حين يجلس التلميذ بين يديه ، وقد ألف من العامية أصواتا فى النطق ، ونفر من أصوات ، وتكونت له عادة لسانية تجعل أداءه لأصوات الفصحى مخلا برسوم ما يقرره المجودون — أن يقدر ما أورثت العامية من ذلك ، فلا يثور الصبى به ، ولا يقيم منه صعوبات ، وعقبات ، بل يتلطف به ، مقربا له إياه بنظائر ذلك ، من عناية اللغات حتى اليوم بمخارج حروفها ،

وتحقيق أصواتها ، ويتأنى فى ذلك متريثا ، محتالا له ، فى وقت متسع وصبر مديد ، ومع الوقت يحسن الصبى نطقه ، ويكتسب عادة نطق جديدة .

٤ — أن يدع الصبى يحس أن معجمه اللغوى غنى بكلمات عرفها قبل المدرسة ولا يزال يأمل أن يجد فى محفوظه ثروة لغوية تقبلها اللغة الأنيقة ، لغة المتعلمين أبناء المدارس ، وليحرص على ألا يفجع الصبى فى عروبة هذه الكلمات الأثيرة عند العامية ، مادامت فصيحة المادة والصيغة وليدع الصبى يستعملها ويعتد بها ، بل يساعده على استحضارها ، وتمييزها له ، مؤكدا صحتها ، وإمكان استعمالها .

ولو أمكن أن يوضع لصبيان المصريين معجم يحوى أول ما يجرى ما عرفت مصر من مفردات عربية أصلا ، مصرية العامية استعمالا ، وقد اتقيت فيه عيوب المعاجم التى طال وكثر حديث الناس عنها فى السنين الأخيرة — لكان مثل هذا المعجم عملا صالحا من مدرسى الفصحى ، يقربون به مسافة الخلف بينها وبين لغة الحياة ، وينزلون الفصيحة منزلة أثيرة نوعا فى نفوس قومنا ، محببة إلى قلوبهم ، أكثر مما هى الآن .

٥ — أن يخلو المعجم الابتدائى — الذى طلبنا تهيئته للصغار — من تلك الأضداد والمترادفات والمشتركات ، حتى يستقر فى ذاكرتهم ما عرفوه على وجه فى مواطن استعماله ، وإن لم يكن من مثل هذه المشككات مفر فليواجهوا بها بعد أن يصلب عودهم ، ويشتد ساعدهم .

٦ — على المعلم — فى المدارس الفنية والصناعية — أن يتكلف جهدا متصلا فى سبيل تجدد يصله بمخلفات الحضارة العربية القديمة من فنون وصناعات وعلوم أيضاً ، ليستخرج من مصطلحاتها ومستعملها ما دفنته الأيام ، حين خبت تلك الحضارة . وليعالن زملاءه بانه على أهبة أن يمدهم بما يحتاجون إليه من كلمات تحل من قرب محل مصطلحات واستعمالات تحتاج إليها الحياة الفنية ، أو العملية أو العامية الآن ، دون أن ينتظر فى ذلك

ما يتمه المجمع أو نحوه ، وليواف كل واحد منهم هذا المجمع اللغوى بثمرة جهوده فى ذلك ، شعورا منه بواجبه الكريم فى إحياء هذه اللغة وإنعاشها . .

٧ — تقريب العمل الإعرابى فى الفصحى بأشباهها القريبة ، بل البعيدة أيضا من العامية أو اللغات الأخرى ، التى يكون لتاميذنا بها عهد ، ليأنس إلى أن هذا الإعراب فى صوره المضطربة ليس شيئا من صعوبة هذه الفصحى وحدها . . فنقترب بهذا الإعراب فى الفصحى ، ويتسق إقناعنا للناشئ بأنا لا نأخذه بغريب مخالف من الكلام ، بل نصقل كلامه ، ليصير من كلام المتعلمين الراقين لا الجهلة السوقيين .

٨ — ألا يكبر من خطئه الإعرابى حين يقع ، وألا يروضه على الإعراب رياضة مفردة ، على أنه عمل وحده فى اللغة ، يقوم به مفردا ، بل يحاول ما استطاع أن يشعره بأنه يغير المعنى ويفسد غرض المتكلم ويرده إلى الصواب بهدى من المعنى الذى يبتغى نقله إلى سامعه ، لا بأصل من أصول الإعراب واصطلاح من اصطلاحات النحاة .

٩ — أن يتدرج فى تعليم هذا الإعراب ، بحيث لا يفاجأ التاميذ باضطراب الإعراب ، ويحاول أن يضع فى يدى مبتدئى تلاميذه صحفا خاصة يعدها ، ليقرأوا فيها نصوصا معربة بالحركات فى صورها الأصلية لا يعثرون خلالها بغير تلك الحركات من الإعراب ، وكذلك يفعل فيما يديره من حديث معهم أو بينهم ، وحين يتم لهم إلف هذا الطارئ ، من تغيير أواخر الكلمات واختلاف المعانى بذلك ، يتلطف لما وراءه من إعراب آخر ، خطوة خطوة[١]

---

(١) انظر : فن القول ص ١١٩ — ١٣٩ .

(٤)

خطوة على الطريق

نحن هنا مع طبيب حاذق ، يفحص مريضا اشتدت به العلة ، وتناوبته « غوائل مناوشة ، ومفزعات متخطفة) ،،

عاد المريض العزيز نطس الأطباء ، فأخطئوا ، وأخطئوا العلاج ..

تشكلت (لجنة التيسير) ،ودرست تاريخ المرض . فوجدت عللا قديمة ترجع إلى تفكير فلسفى ، وإسراف فى القواعد ، وإمعان فى التعمق العلمى .. ولم تنظر واقع المريض كيف يعيش ، والظروف التى تحيط به .

وقررت ألا يمس التيسير (من قريب أو بعيد أصلا من أصول اللغة ، أو شكلا من أشكالها) طبقا لقرار وزارى ، مع أن (المسألة من الأهمية والخطر الاجتماعى بحيث تحتاج إلى النظر المستأنف فى هذه الأصول نفسها)[١]. إذ أن المرض يفرض وجوده على الكيان المادى والمعنوى كله ، ويهدد الوجود فى صميمه..

وقرر (مجمى) : أن إدخال مايسمى بالعامى والبادى والدارج فى اللغة الفصيحة إفساد للغة ، وإبطال لجهد المعلمين ، ومضيعة للأموال التى تنفقها الدولة المصرية على تعليم العربية[٢] ..

وقال (كاتب): يجب أن تكون غايتنا توحيد لغتى الكلام والكتابة ، فنأخذ من العامية للكتابة أكثر ما نستطيع ، ونأخذ من الفصحى للكلام أكثر ما نستطيع ، حتى نصل إلى توحيدهما[٣].

---

(١) مناهج تجديد ص ٣٤ .

(٢) لسان العرب اليوم – سنة ١٩٦٢ ص ٢ .

(٣) سلامة موسى– البلاغة العصرية واللغة العربية طبعة سنة ١٩٤٥ . ص ٤٧

وطالت وقفة طبيبنا بين آلاف المرضين فى لهفة على المريض، وحرص على إنقاذه .. وأعاد النظر مرة ومرة ، حتى وجد أن العلة ترجع إلى إغلاق النوافذ والأبواب :

فنحن نعيش بلغة غير معربة ولا واسعة حين نتعلم لغة معربة وافرة الحظ من الإعراب . وأن هذا الإعراب لا يسهل ضبطه بقاعدة ، بل يسوده الاستثناء . . وأن هذه الفصحى تعود فلا تستقر على حكم وقاعدة فى الكلمة الواحدة أو التعبير الواحد . . وقد حيل بين هذه اللغة وبين مزاولة الحياة ، والتغلغل فى جوانبها وأطرافها ، فلم تهيأ لها القدرة على التدرج الدائم ، والتجدد المستمر ، والنماء المساير . . وخضعت لمؤثرات سياسية واجتماعية وعلمية واقتصادية وخلقية وصحية وجوية ، على حين اتصلت العامية — التى تغلق أبواب الفصحى ونوافذها — بالجديد الطارئ من عوامل مؤثرة ، ولغات مهاجمة ، فتستجيب لهذه ، وتأخذ من تلك وتفى بحاجات الناس فى كل أولئك ، أو على الأقل فى الكثير من هاتيك الحاجات . .

ووجد أن عوامل التهوية والتقوية قد نجحت فى علاج مريض آخر أرهف حسا وأرق طبعا ، وأدعى لأسباب الفتنة . . و (لجنة الأحوال الشخصية) — وهى الأجدر (بالتحرج والتردد — استجابت لاحتياجات المريض ، فلم تتقيد بمذهب ، وتخيرت أكثر الأقوال ملاءمة للمصلحة العامة ، وأخذت بالمرجوح من الرأى ، ورأت أن الدين يسر ، وأن المشقة تجلب التيسير . . فكيف لا ، و(أصول اللغة محمولة على الشريعة) و(أصحاب اللغة انتزعوا العلل من كتب محمد بن الحسن) ؟ ثم إن اللغة أشد المظاهر الحيوية لينا ، وأقلها تصلبا وتحجرا وأطوعها للتطور . . وقدماؤنا أنفسهم قرروا أن الاستعمال اللغوى يحيي ويميت ، ويقبح ويحسن[1] . .

---

(١) مناهج تجديد — ص ٢٢ — ٢٤

إذن . . فلا بد من جمع كل ما يوجد من المذاهب النحوية ، حيثما وجد ، والتوسع فى فهمه ، دون الوقوف عند ظاهره . . وعدم التقيد بمذهب نحوى واحد فى مسألة بعينها . . وعدم التقيد بالأفصح أو الأرجح أو الأصح الذى نصوا عليه . . وتخير ما يوافق حاجة الأمة ويساير رقيها الاجتماعى ، على ضوء التجارب العملية والخبرة التعليمية . .

بل . . ندع النحاة وأداءهم وقواعدهم ، ونمضى إلى ما وراء ذلك من أصولهم التى استخرجوا منها هذه القواعد ، فنحاول — بحسب استعمالهم لها وكما دلوا على هذا الاستعمال ، وعلى رغم ما لنا من اعتراض على هذه الاصول — نرجح من منقول اللغويين ومرويهم فى اللغة أوجها تدفع هذه الصعوبات ، وتقلل هذا التعدد وتغنى المتعلم عن بذل جهد عنيف ، ونعمل على تقليل الاستثناء ، واضطراب الإعراب ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، ونختار ما هو بسبب من لغة الحياة والاستعمال عندنا . . وإن لنا فى عاميتنا إعرابات بالحروف مثلا قد نطمئن إلى أن لها أصلا عربيا ، بل هذا ما قد يرجحه البحث أو يثبته . .

ولذلك يجب أن ندرس العامية ، ونتعرف على عوامل قوتها ، ونسترد منها ما أخذته من الفصيحة ، فيكون رواجه كسبا لها . . بل علينا أن نقدر أن هذه العامية من مولدات الفصيحة ، يجرى فى عروقها الكثير من دمائها وقد تلقت بالوراثة عنها غير قليل من مميزاتها ، وتكونت من كثير من موادها ، كما نقدر أن بين الفصحى والعامية اختلافا وتغايرا ، من حيث راجت الثانية ، وكسدت الأولى ، وأيسرت تلك فى نواح أملقت فيها هذه . . وبما نفهمه من اختلاف بينهما أو اتفاق نعرف ما يعوز العربية وقد نجد الوفاء بما نقص العربية من مرانة ومطاوعة فى بعض ما جربت العامية ، واكتسبت بالخبرة من أنماط المسايرة وظواهر الاستجابة ، فنكسب العربية من ذلك ما نستطيع إكسابها إياه ، إن كانت أصولها تعين عليه ، أو كنا قد اعتزمنا شيئا من التجدد نكمل به هذا النقص فى فصيحتنا . .

ولسنا بدعا فى هذا فاللغوى، المصري أبو الحسن على بن الحسن الضانى (كراع) فى القرن الرابع الهجرى قد استشرف إلى شئ من ذلك ، حين ألف كتابه (المنضد) فيما اجتمعت عليه الخاصة والعامة من الألفاظ . .

والسيد وفا أفندى محمد فى القرن الرابع عشر الهجرى (١٣١٠هـ) تبين الحاجة إلى توحيد اللغة العربية ، ورأى أن الوسيلة إلى هذا التوحيد لا تكون (إلا تقويم أود العامية ، وإصلاح فاسدها ، حيث إنه بهذا الإصلاح لايكون هناك فرق بين مايدون فى الكتب وما عليه عرف التخاطب العام ، ولا يبقى أدنى امتياز فى مبادئ التعليم العمومية ، إلا فيما يستتبعه التعليم كثرة وقلة ، وذلك لا يضر بأصل الغرض المطلوب متى صارت لغة التخاطب هى لغة التدوين) [١] . .

فالسيد وفا قد أحس بكثرة ما أخذت العامية من العربية ، وبيسير من التقويم تعود إليها فصاحتها ، وتصبح وسيلة الكتابة . . وبهذا نرأب الصدع ، ونجمع الشتات ،ونقوى الروح والعقل والقلب جميعا ،وترتد إلى المريض حيويته ونشاطه بدون أن نلجأ إلى مبضع الدكتور محمد كامل حسين :(لا بد لنا من الأخذ بمذهب معروف من قديم ، هو أن ما أشبه كلام العرب فهو من كلامهم ، ولا نقرهم على أن مقياس الخطأ والصواب يرجع إلى مطابقة القول لقواعدهم ، أو لاستثناءاتهم ، أو لتأويلهم، بل يجب أن تكون هناك قواعد جديدة تجعل الاتساق والتنظيم واضحين ، دون تأويل . .

أريد معجما حديثا فى تفكيره وتعاريفه ، واختياره للألفاظ ، وتحديده لمعانيه ، لايذكر فيه مايكون من اختلاف اللهجات ، ولايذكر فيه إلا باب واحد للفعل،ولاتذكر فيه إلاصيغة واحدة للكلمة ،ولاترجع فيه الكلمات إلى أصولها الثلاثية ، فيكون لكل فعل باب واحد ، ويكون للفعل مصدر ،

---

(١) لسان العرب اليوم . ص ٥ — ٨

واحد، وتحدد معانى الكلمات تحديد دقيقا، فإن لم يكن التحديد استغنى عن الكلمة كلها ، وإذا كان للكلمة صيغ متعددة بسبب اختلاف اللهجات توحد اللهجة وينطق بالكلمة على وجه واحد ، ويختار من المجموع ماهو أقرب إلى الذوق ، ولايعتد إلا بما عرف قائله بالذوق ، وحسن التفكير ، ويجب أن يبدأ الاستشهاد بعهد التدوين إلى يومنا هذا أو بعد يومنا ، مادامت اللغة قائمة[1]

* * *

. . . لكن العلاج الطبيعي — الذى قصد اليه الأستاذ الخولى — لايفلح إلا بمعلمين أكفاء، لهم من قوة صلتهم بالتراث ماضيه وحاضره ، ومن قوة إلفهم لفصيحتنا وعاميتنا ، وتذوقهم بلاغتيهما — مايمكنهم من عمل متكامل قاموسى ونحوى وبلاغى ، حتى نرد على الفصحى كثيرا أو قليلا مما فقدت من مسايرة للحياة ، وقرب من الألسن والأفئدة ، وذيوع فى الناس ، ونزول فى منازل أحلتها عنها العامية الشائعة المحببة المرنة المتجددة . .

ولكن . .

أنى هؤلاء المعلمون القادرون وقد استنزفت قواهم عوامل كثيرة ، فلم يعودوا يملكون من التراث إلا خطوطا حائلة يتاجرون بها فى سبيل الخبز ؟

ثم كيف — واللغة ضرورة اجتماعية تخضع لمؤثرات طبيعية واجتماعية وسياسية . . الخ — نطمئن إلى أن المعلمين يستطيعون — مهما أوتوا من قوة لايملكونها — أن يؤدوا وحدهم هذا الدور ؟

إن مايفعله معلم العربية يفسده معلم العلوم والمواد الاجتماعية ، وتقضى عليه بيئة تتنفس العامية فى وسائل إعلامها المختلفة ، التى هى بمثابة الموجه الرسمى ، والسلطان ذى النفوذ ، فى نفوس الصبية والشباب وغيرهم . .

وإذا كانت اللغات الأجنبية استطاعت أن تعيش فى وجودنا اليوم فلم تكن حيويتها وقوة تعبيرها عن احتياجاتنا هى السبب : : بل إن ارتباطها

(١) الدكتور محمد كامل حسين — متنوعات ج ٢ — مطبعة مصر — ص ٢١٩ ومابعدها

بقوة الغالب، ثم من ورثوا قوة الغالب، زيف فينا الحاجة إلى القوة، فأخذناها، وشغلنا عن لغة ديننا وقرآننا، مصدر قوتنا الحقيقية، وتوارثنا هذا التزييف وتشربناه حتى أصبح بعض المثقفين إلى اليوم يستعين بالكلمة الأجنبية ليعبر بها عن معنى لا تواتيه فيه الكلمة العربية، كما يزعم، ويعد هذا لونا من القدرة الثقافية : :

إذن . . واجبنا الأول — كما قال الأستاذ الخولى — واجب (الكرامة القومية التى بها تكرم اللغة ، وتدنو من الأفئدة والألسنة ، وتلك مسألة تمس كيان الجماعة كله ، وتعمل لتحقيقها قوى الجماعة كلها) . . بحيث لا يسمع المتعلم فى مدرسته — داخل الفصل وخارجه ، كما تفعل بعض المدارس الأجنبية — لغة غير الفصيحة ، ولا يجد فى صحيفة أو كتاب لفظا غير الفصيح ، ولا تقول وسائل الإعلام كلها — وعلى جميع مستويات المتحدثين فيها — كلاما غير الفصيح . .

عند ذلك يسهل الدور الذى ينهض به المعلم ، وتكون له جدواه . .

بل . . إنه لن يمضى وقت طويل حتى ينطق الجميع الفصيحة التى يسمعونها غناء وخطابة وأحاديث ومسرحيات . . الخ

فإذا اجتمع إلى هذا كله ضبط جميع ما يقرأ الطلاب ، فى المراحل الثلاث الأولى ، واهتممنا بالقراءة الجهرية ، وقدمت الصحف والمجلات أهم ما فيها مضبوطا ، وأصبح مشرفون لغويون فى الأذاعة والمسرح وأشباهها ، كما اقترح الأستاذ الخولى بالمجمع اللغوى [1] ، واهتممنا — فى الدرجة الأولى — بتحفيظ القرآن (وكفى القرآن الكريم وحده آلة وأداة فى استعمال أفانين الكلام) كما يقول ابن الأثير — فما أحسب أن صعوبة ما يشق علاجها . .

ولقد وجدنا عمالا فى بلادنا — تعوزهم القراءة والكتابة — عاشوا فى بيئات دينية حية . فانطلقت ألسنتهم بالعربية الفصيحة . وأصبحوا خطباء يستريح السامع إلى نبراتهم وقوة تعبيرهم .

---

(١) انظر : دورة ٢٧ ج ٢٨ من مجلة المجمع .

وما هو معهد جوته بألمانيا يمهد بالأجانب — من الطلاب — إلى بعض الأسر فى الريف أشهرا . فإذا هم قادرون على متابعة الدراسة العالية . .

وماأحسب أن حملة التعريب فى الجزائر بأيسر من حملة التهذيب اللغوى فى بلادنا . . ولكن . .

* * *

ولكن . . يجب ألا ننسى أن الأستاذ الخولى إنما كان يجيب على تساؤلات أثارتها محاولة فى (تيسير النحو) . أو كان يرسم الطريق أمام معلمين يتزودون بالجديد فى (معهد الدرسات العليا) أو كان يناهض ردة أو رجعة فى (المجمع اللغوى) . .

فهو يعالج على أساس من واقع محدود ، مع تطلع (عالم) إلى استكمال لغوى بما يحدث بطن الأرض فى الجزيرة العربية ، وطن الفصحى الأول ، وبما حفظت بها الحياة بالوراثة . وتسلسل الطبقات ، وتناقل الأجيال ، شئونا لغوية وأدبية ولهجات وأوضاعا وأساليب وكلمات هى مادة الدرس ، لو جمعت بجد علمى ، وسجلت بأحدث الأساليب ، لأضافت جديدا ، وأكملت ناقصا ، ودعت إلى استئناف نظرواجتهاد لغوى[1] ومع تطلع (أديب) يتذوق بلاغةالعامية ، ويحسن تفاوت أقدارالقائلين فيهامشافهة أو كتابة ، فيرى أن يعترف أصحاب الفصيحةبالعامية الفصحى وبلاغتها ، ويطلبوهافى صنيع أهلها المنتمين إليها المتعصبين لها ، وأن يعمل أصحاب العامية على البلوغ بعاميتهم إلى مستوى فنى يمثل واقع الحياة ، ويتذوق مايجده أصحاب لغة التخاطب حين يستعملونها فتحوى حكما مجربة ، وتترجم من مشاعر حساسة ، وتبكى آلاما دفينة ، وتصيب بعباراتها فى ذلك مالعله لايصاب عند الفصيحة حين يلتمسه المنفعل بها حقا ، والمتأثر صدقا ، حتى تضيق مسافة الخلف بينهم وبين أصحاب الفصيحة

---

(١) مناهج تجديد ص ٨٤ — ٨٥

ومن يدرى . . حين يدرك أصحاب العامية أن لغة الكتابة فيها صعبة المنال ، عسيرة المرتقى . ماذا سيصنعون ؟ أيمارسون الرياضة فيها وليس لهم إليها سبيل إلا الجهد الفردى الذاتى الذى ليس له جدوى قريبة، أم هم يحاولون هذه الممارسة فى الفصحى ، لأن وسائل التدريب فيها مستقرة موفورة ؟

سواء أكانت الأولى فارتقى شعور أصحاب العامية ببلاغتها ، ودق حسهم فيها ، فدنت من لغة الفن ، أم كانت الثانية فأقبل القوم على الفصحى يرتاضون فيها ، فكفيت الحياة شر هذا النزاع ، أو على الأقل شيئا كثيرا من حدته التى لا تقف عند حد ، ولا يحرر فيها موضع نزاع تحريرا دقيقا — فإن كلتا الحالتين خير على ما بين اللسان والقلم من صلة[1] . .

ومع تطلع العالم والأديب نحس أن الأستاذ الخولى حريص على أن يكون قريبا من الواقع — شأن المصلح الاجتماعى — فهو إذا طلب التيسير حده بحاجة الناشئين ، واحتج له بفهم لغويين سابقين ومشرعين دينيين وبين خطر الجمود والتقوقع على تراثنا حاضرا وماضيا ومستقبلا . . فإن كانت خطة الفصحى إقامة الحصون المنيعة حول نفسها من وضع النحو وجمع اللغة والدراسة المتصلة لذلك كله ، والاستظهار بالتأييد الدينى والسياسى وتأليف الكتب فى تتبع لحن العامية . . الخ فإن العامية تلقى هذا كله بقوى خفية توشك أن تكون سحرية ، هى قوة الحياة وقوة المجتمع . . وهى تستجيب لسنن الاجتماع مرنة طيعة . . إذن فلا علاج إلا على أساس الاعتراف بقدرة العامية ، حقيقة واقعة ، وضرورة الاستفادة من إمكانياتها ووسائلها . .

وبهذا يكون الأستاذ الخولى قد شخص الداء عن دراية ، ووصف العلاج عن خبرة ، وبقى من يضع هذا العلاج موضع التنفيذ . . يجمع

---

(١) بين اللسان والقلم — الادب — يونية سنة ١٩٦٢ مع تصرف يسير . .

المواد المختلفة ، بنسبها المحددة ، فى أناة وتبصر وحرص، ثم يتولى التمريض (معلم) واع ، على علم بالداء والدواء . . .

ومن هنا نطمئن إلى أننا بسبيل القضاء على الازدواج اللغوى ، والتمزق الاجتماعى والاضطراب النفسى . .

ولا يكون مصير هذا الجهد مصير محاولة جادة سبقت للأستاذ إبراهيم مصطفى فى (إحياء النحو)[1] سنة ١٩٣٦ ، أراد بها أن يغير (منهج البحث اللغوى للغة العربية ، ويرفع من المتعلمين إصر هذا النحو ، ويبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة تقربهم من العربية ، وتهديهم إلى حظ من الفقة بأساليبها) . . وعلى أساس من الربط بين الإعراب والمعنى جمع المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل باسم المسند إليه وقصر علامات الإعراب — فى الأسماء — على الضمة والكسرة ، فالفتحة حركة خفيفة مستحبه عند العرب ولا تدل على معنى ، وذهب فى العلامات الفرعية مذهب أبى عثمان المازنى المتوفى سنة ٢٤٧ هـ — أنها إشباع للحركات الأصلية ، سواء فى ذلك الأسماء الخمسة وجمع المذكر السالم، أما المثنى فقد شذ عن الأصل، ولما كان العطف ليس اتباعا (وإنما هو إشراك أو تشريك كما قال سيبويه) فقد أخرجه من باب التوابع ، وجمع البدل والتوكيد وعطف البيان تحت قسم واحد لانها جميعا تدل على معنى الكلمة الأولى (مع حظ من البيان والايضاح يجئ من قرن الكلمتين إحداهما بالأخرى ، ويستطيع الإنسان أن يقف عند الأولى وقد فهم الكلام كله فهما تاما كما يستطيع أن يكتفى بالثانية وقد فهم أيضاً ، فإذا ضمت الكلمتان أفادتا التوكيد أو زيادة البيان) ، وعلل إعراب النعت السببى بالمجاورة أخذا من (توجيه ابن جنى قول العرب : هذا جحر ضب ضرب) ، وأضاف الخبر إلى التوابع مستندا إلى قول سيبويه (إن الخبر إنما رفع من حيث كان من المبتدأ هو) و قول الكوفيين : (إن الخبر خالف المبتدأ ولم يكن وصفا

---

(١) ط لجنة التأليف والترجمة والنشر — يناير سنة ١٩٣٧

له ، وإنما كان بيانا لمكانه أو زمانه ،لم يرفع ونصب) ، وانتقد علل النحويين في الممنوع من الصرف لأن (الأمر في التنوين وتركه منوط بإرادة الشمول وعدمه) . .

حوار ذكي مع علل النحويين انتهى فيه إلى رأي مستمد مما ذهب إليه بعضهم . وقد تعرض لهجوم من الأزهر ممثل في كتاب (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) سنة ١٩٣٧ ، للأستاذ محمد عرفة المدرس بكلية اللغة العربية ، على أساس أن : (في كتاب إحياء النحو هجوما واندفاعا حيث يجب التريث والتبصر ، ثقة بأول خاطر ، واعتزازا بالنفس) وأنه (حشر النحاة حفاة عراة ، يتوارون من الناس خزيا واستحياء ، تتقزز منهم النفوس ، وتتخطاهم العيون،وقد حشرهم كذلك ظلما وجورا) ، أما كتابه هو فقد (بعثهم غرا محجلين ، ولقد أضفى عليهم ثيابهم وأسبغ عليهم دروعهم ، فبدوا للناس كما هم ملء العيون والأسماع وملء القلوب والصدور ، وملء المغرب والمشرق ، وملء الأرض والسماء ! !) —

ثم كانت محاولة (لجنة تيسير قواعد تدريس اللغة العربية) سنة ١٩٣٨ التي حفزت الأستاذ الخولي ليدلي بدلوه ، وقد رأت ألا تنوب حركة إعرابية عن الأخرى بل تكون كل في موضعها أصلا ، وتوحد ألقاب الإعراب والبناء في حركات البناء ، و يستغني عن الإعراب التقديري ويسمى جزءا الجملة موضوعا ومحمولا ، كما اصطلح علماء المنطق ، لأنه أوجز ، إلى غير ذلك من مقترحات تخفف وطأة (العامل) في الإعراب ، وتعرضت هذه المحاولة لنقد شديد من (لجنة دارالعلوم) ،أساسه ذكر الرأي المخالف ، دون أن تتناول شيئا من التيسير والتخفيف ، فأشبهت في موقفها ما فعله الأستاذ محمد عرفة من قبل . .

وفي سنة ١٩٣٨ — أيضاً — نشر الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في مجلة الرسالة — مجموعة مقالات في (تيسير قواعد الاعراب) بتوقيع

(أزهرى)، انتهى فيها إلى رأى عاد إلى تنسيقه فى آخر كتابه (النحو الجديد) سنة ١٩٤٧ وعماده أن اللغة العربية لغة إعراب ، ومن ثم فجميع الأسماء والأفعال والحروف معربة بالصورة التى هى عليها ، فإذا خالفت الصورة الكلمة فهى معربة تقديرا . فيما لزم آخره حالة واحدة . أو تنوب الحركة عن أختها كما ينوب الحرف عن الحركة ، وسمى جزأى الجملة الأسمية محدثا عنه ومحدثا به ، وأدخل أسماء الأفعال فى الأفعال . . ومضى فى بقية موضوعات النحو بصورة ميسرة تعتمد الظاهر أساسا ، وهى أقرب ما تكون إلى التيسير المتكامل ، مع المحافظة على الفصحى ، ودون شجب للموروثات . .

وفى ذلك الوقت نشر الأستاذ (الدكتور) شوقى ضيف كتاب (الرد على النحاة) لا بن مضاء القرطبى . ولخص فصول الكتاب ، وبين وجوه التجديد التى يمكن بناؤها على ما فيه من آراء ، ولا سيما رأيه فى إلغاء نظرية العامل ، فنجمع من المتجانسات فى النحو ما تفرق بينها نظرية العامل، نجعل المضارع المتصل بنون التوكيد منصوبا حتى يجانس المضارع المسبوق بناصب ، أو نبنيه فى الحالتين ، والمضارع المتصل بنون الإناث نضمه إلى المضارع المجزوم ، وهكذا باب كان يدمج فى باب الفعل العام . فيعرب مرفوعه فاعلا ومنصوبا حالا ، وهو مذهب الكوفيين « ونمنع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات ، فنستريح من إضمار المعمولات وحذف العوامل ، وبيان محل الجمل والمفردات المبنية أوالمقصورة أو المنقوصة .

ثم تكون محاولات جديدة كمحاولة الدكتور حسن عون فى (اللغة والنحو) ، سنة ١٩٥٢ م ، يعلل فيها تعليلا جديدا لبعض الظواهر اللغوية فعلامات الإعراب لم تكن منذ البداية ، وحالة الإفراد تسبق حالة الجمع ، والإعراب بالحركات أسبق من الأعراب بالحروف . . الخ، ومن ثم يجب التأكد من أن كل ما أسماه النحاة شاذا، أو خارجا على القواعد

النحوية ، أو سماعيا ، يعتبر أثرا قديما قد بقى فى اللغة ، بمثابة الرواسب التى تبقى فى بعض فروع النهر ، ونسقط من حسابنا كل هذه الأمثلة ، إذا اردنا أن نضع النحو وضعا جديدا . .

كما رأى كذلك — فى محاضرات له بالدراسات العليا بكلية البنات سنة ١٩٦٧ أن جميع الأفعال معربة ، بدليل اختلاف الحركات فى الماضى والأمر كالمضارع ، واستناداً إلى (العامل) فان هذه الحركات نتيجة عامل متأخر هو الضمائر التى أسند إليها الفعل :

وبهذا نرى أن عملية التيسير لاتزال فى محاولات متتابعة . نرجو أن تسير بمنأى عن الجدل المنطقى أو الشخصى ، وأن توضع موضع التنفيذ حتى نجنب أبناءنا الكثير من المتاعب المذهبية والنفسية . ونحبب لغتنا إليهم ، وتقربها من وجودهم ..

ثالثا _ التجديد فى البلاغة والنقد

١ — منهج تجديده فى البلاغة والنقد .

٢ — البلاغة وفن القول :

** ليست العبقرية الفنية فى أى صورة من صورها إلا البصر بخفايا الحس البشرى والاقتدار على الاتصال بالوجدان ، ومداخلة العاطفة ، ومسايرة الأمل ، والتحليق مع الخيال ، والوقوع على مواطن الهوى ومكامن الرغبة ، التى احتوت النفس منها أسرارا باهرة وقوى رائعة . .

مناهج تجديد

** غاية البلاغة اليوم لاتلتمس لغيرها من أغراض أخرى وراءها . دينية كانت أو سواها ، بل تلتمس وفاء بحاجة الحياة التى يحياها الفرد والجماعة ، وسعيا إلى ترقية مستوى هذه الحياة وإفساح آفاقها المعنوية

فن القول

(١)

منهج تجديده فى البلاغة والنقد

يقول الأستاذ الخولى :

إن النظر الصائب إلى القرآن وتفسيره لايقوم إلا على إدراك ماالستخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية ، أدار عليها بيانه ، مستدلا وهاديا ، ومقنعا ومجادلا ، ومثيرا ومهددا ، فأصبح مايبنى عليه هذا التفسير هو القواعد النفسية . وأصدق مااهتدى إليه العلم قديما وحديثا عن تلك الشئون .. فليس يصح أن تعلل عبارة من عباراته ، أو يحتج للفظ فى آية من آياته . أو يستشهد لأسلوب من أساليبه ، إلا بموقعه كله من النفس ، وبما كشف العلم عن هذا الموقع ، وماسبر من أغواره ، فبالأمور النفسيه لاغيره يعلل إيجازه وإطنابه ، وتوكيده وإشارته ، وإجماله وتفصيله ، وتكراره وإطالته ، وتقسيمه وتفصيله ، وترتيبه ومناسباته ، وماقام من تعليل هذه الأشياء وغيرها على ذلك الأصل فهو الدقيق المنضبط ، وماجاوز ذلك فهو الادعاء والتحمل ، أو هو أشبه شىء به[١] ..

ومن هذا الإدراك للأسس النفسية التى تقوم عليها البلاغة ، وفى القمة منها بلاغة القرآن ، اتصلت جهود الأستاذ الخولى فى التفسير بجهوده فى البلاغة :

لكن البلاغة العربية ، ، فيما يدرس منها إذ ذاك تنوء بأعباء المنطق اليونانى والفكر الأعجمى ، والمحاولات النظرية المتمثلة فى مدرسة كلامية تتميز بالتحديد اللفظى ، والروح الجدلية ، والعناية بالتعريف الصحيح والحرص على القاعدة المحدودة ، مع الإقلال من الشواهد الأدبية ، والاعتماد

(١) مناهج تجديد — ص ٢٠٣

على المقاييس الفلسفية من خلقيات وطبيعيات ، ونحوها ، وعلى القواعد المنطقية فى الحكم بحسن الكلام وجودته أو بقبحه ورداءته ..

وهذا واضح فى مفتاح السكاكى وتلخيصه وشروح تلخيصه مما يدرس فى الأزهر بخاصة ..

والأستاذ الخولى — منذ عهده بالجامعة سنة ١٩٢٨ — يدرس لطلبة (الحقوق) الذين يراضون على المقدرة الكلامية ، ويمرنون على الخطابة، وهم فى حاجة إلى طريقة عملية ذات أثر إيجابى قريب. كما يدرس لطلبة قسم اللغة العربية بكلية الآداب، فى جو متجدد ، يغرى بالخروج على المألوف.

فكان من الضرورى — بعد استيعاب قديمنا وتمثله — التعرف على معالم الدراسة الفنية الحديثة بعامة ، والأدبى منها بخاصة ، فى عمل الغربيين وكتبهم ، والتعرف على مالأبناء عصرنا فى هذا كله ، والموازنة بين القديم والحديث حتى يستطيع بهذه الطريقة التاريخية — مع الاستفادة بالحديث — أن يحقق منهجا لدرس البلاغة ..يتبين عقدها ، ويتفهم مشكلاتها ، ويعرف أوجه الحاجة إلى الإصلاح فيها ..

ومضى فى درس متأن يمس مسائل البلاغة مسا رفيقا جريئا معا ، يقابل فيه القديم بالجديد ، فينقد القديم وينفى غثه ، ويقدم سمينه إلى صالح الجديد .

درس التاريخ العلمى الصحيح للبلاغة العربية ، حتى يتعرف ماضيها وحاضرها ..ودرس تاريخ مسائل المادة وقضاياها درسا يتضح به عمق التفكير فى المسألة ، ومدى ماصارت إليه من سعة، وما تأثرت به من المعارف البشرية أو الأحداث الاجتماعية ، وما أثرت هى فيه من ذلك ..

ودرس تاريخ العلماء وقادة الرأى من أصحاب المذاهب والآراء المتميزة فى حياة المادة ..

ودرس تاريخ التأليف والمؤلفات فى المادة ، ليؤرخ ماكتب فى المادة تاريخا يبين عمل المؤلف فى كتابه ، ومن أين أخذ ، وبمن وبم تأثر ؟ وماذا زاد أو جدد ؟ وأسلوبه فى ذلك ، وكيف عرض المسائل وسجلها ؟

وتعرف إلى أثر ثقافات الأمم التى جاس العرب خلال ديارها ؛ وخلفوا على تراثها ، ومازجوا بقية أهلها ، وتفاعلوا مع أبنائها ..

كل ذلك لإيمانه بأنه (ماتظهر حقيقة من الحقائق فى فجاءة ، يظفر بها واحد من الناس ، أو تنقدح فى عقله انقداحا ، ولاتتحقق ظاهرة من من ظواهر حياة فكرة أومادة أو بحث على يد رجل بعينه فى يوم من أيام الله ، يعتبر ميلادها على الأرض) حين تطالعنا معه ، لأنها محصلة عوامل كثيرة مادية ومعنوية ، كما أنها محصلة فكر إنسانى مشترك فى جيل أو أجيال .. فقد (أجنتها قبل ذلك حنايا الرؤوس وأنضجها تفاعل العقول وهيأها تعاون الأفكار ، طال ذلك أو قصر)[1] ..

ومن حيث قال السلف إن علم البلاغة مانضج وما احترق كان بحثه فى علة ذلك ، حتى توصل إلى أن عدم نضج الفكر البلاغى يرجع إلى التزام البلاغة مقاييس الفلسفة وقواعد المنطق ، لأن المدرسة الكلامية صاحبة هذا المنهج كانت تعنى أولا وأخيرا بإعجاز القرآن الذى هو ملتقى مابين الأدب والعقائد والفلسفة الإلهية، وماأشبهها..على حين تعنى المدرسة الأدبية بالتكوين الأدبى ، والتمرين على صناعة الجيد من الكلام ، وتربية الذوق الناقد ، وحينما تمس مسألة الإعجاز تمسها مسا أدبيا ماأمكن . . ولم يسعها أن ترسم الخطوط الكاملة لصناعتى النثر والشعر ، أو لعلم جمال الكلام ، وفنية البلاغة .. على أسس ناضجة ، وإنما هو تعبير عن تذوق عام ، وإحساس بالجمال اللفظى ، وراحة نفسية ، ولمح سريع .. ثم موازنات جزئية لاتبلغ مبلغا مرجوا[2] ..

---

(١) مناهج تجديد — ص ١٠٢ — ١٠٤

(٢) مناهج تجديد — ص ٢٢١

واتخذ الأستاذ الخولى من المدرسة الأدبية منطلقه لأنضاج هذا البحث على أساس أن البلاغة فن القول ، وكل فن لا ينعزل عن بيئته ، لأنه وقع الوجود على الوجدان ، وأقرب الوجود إلى باحثنا وجود مصر . فدرس مصر فى تاريخ البلاغة ، لأن الدراسة الصحيحة هى التى تقوم على العيان والاختبار ، ولأن البحث الفنى الصالح يعتمد على الإدراك العميق للروح الفنية ، وفهم أسرار الحس بالجمال فى البيئة المدروسة (ونحن — بنى مصر ولا مشاحه — أقرب الناس إلى مصر ، وأقدر الناس على فهم مصر ، نحن نغدو فى الوادى ونروح ، تنال أيدينا وعيوننا وعقولنا مواد دراسته) ثم إن أثر مصر فى البلاغة (يساعد على أن نظفر بصورة المزاج الفكرى الخاص فى الأدب العربى ، ونسمع آراء مصرية فى النقد ، تكشف عن الأثر الشخصى لتلك البيئة المصرية فى العربية وأدبها ، وتكون لها من ذلك نواة أدب مصرى وعصرى ، هو الصورة المصرية للعربية فى هذا الوادى الأزلى)[1] .

وإذا كانت الدراسة المصرية للبلاغة لم تكن تساير المدرسة الفلسفية فى المشرق ، ولا تتبعها ، لأنها كانت أدبية الاتجاه عربية المنزع ، فهذا أعون على السير فى الطريق الصحيح .

والمدرسة الأدبية تأخذ برأى الأقدمين ، حينما كان أبو هلال العسكرى يقول : إن صاحب العربية يستطيع بعلم البلاغة أن يفرق بين كلام جيد وآخر ردئ ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، كما يستطيع أن يصنع قصيدة وينشىء رسالة .

---

(١) المصدر السابق — ص ٢٢٨

وعلى هدى من هذا التناول احتكم الأستاذ الخولى إلى ما فى دراسة الفنون من أساليب مجربة ، ومناهج مستحدثة ، تنتقل من اللفظة المفردة إلى الجملة ، فالفقرة فالعمل الفنى الكامل

وكانت مباحث البلاغة ، فى الأسلوب واختلافه وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة ، كما كانت النظرة الشاملة الجامعة فى الأثر الادبى كله . .

وبذلك تكون البلاغة علم الأساليب — كما يقول الأستاذ الإمام — لا مجرد بيان وبديع . فهى تتناول جمال الكلمة ، وجمال الكلام لأنها تبحث فى اللفظ والمعنى . . اللفظ من حيث هو صوت ذو جرس له دلالته ، مفردا ، وفى جملته ، وفى الفقرة وفى القطعة . . والمعنى من حيث تسلك فنون القول المختلفة ، نظما ونثرا ، مقامة ورسالة وخطبة ومقالة وقصة وقصيدة . . . الخ .

وبهذا الإدراك الفنى نجد أن الدراسة على هذا النحو (لاتستغنى عن مقدمة جديدة لابد منها لدراسة فنية تقوم على الإحساس بالجمال والتعبير عنه ، دراسة تتصل بالحياة ، وتحدث عن خلجات النفوس ، وأسرار القلوب ، وتسعد آمال الجماعة وأمانيها ، وتغنى نصرها ، وتغذى طموحها ، كما هو شأن الفن الصحيح فى الحياة العادية . .

فليست العبقرية الفنية فى أى صورة من صورها إلا البصر بخفايا الحس البشرى ، والاقتدار على الاتصال بالوجدان ، ومداخلة العاطفة ، ومسايرة الأمل . والتحليق مع الخيال ، والوقوع على مواطن الهوى ومكامن الرغبة التى أحتوت النفس منها أسراراً باهرة وقوى رائعة) [١]

---

(١) مناهج تجديد ص ١٩١

وماالفن حين يخلق صور الجمال، ولااللوق حين ينقد الجميل، ماكل أولئك إلا خبرة بأهواء النفوس ، وقوة فى الشعور ، ودقة فى الوجدان ، يتحدث بها الشعر والنثر حديث الناى والعود ، وترجمة الألوان والأصباغ ونطق الرخام وشهادة الحجر ، فيقرؤها الناقد بين الأسطر أو الفقرات ، وفى الأنغام والهمسات ، وفى الظلال والأضواء ، وفى المعارف والتقاسيم، لأنها أودعت سر نفوس أصحابها ، وأفشت حديث قلوبهم ، وأعلنت وحى الجمال إلى أرواحهم .

(وبهذا لا يكون فننا لعبا بالألفاظ ، ولاخواطر متناثرة ، ولارعاية لمشاكلات سطحية أو التماسات متكلفة ، كما لايكون النقد فارغا ، معادا نضعه فى كل بيت ، ونلبسه لكل قصيدة ، بل يكون الفن عميقا مغذيا للروح ، محدثا عما تجده النفوس القوية الشديدة الإحساس ، فيسحرها أن تسمعه ، ويفتنها أن يترجم عنها أصدق مااستطاعت ، كما يكون نقدنا وزنا مقاييسه حقيقة اختبارية ، وتقديرات دقيقة)[1] .

ويصبح الفن مادة إنسانية الإنسان ، وعنصر معنويته ، ومظهر كبريائه وطموحه وانتصاره على عوامل الضعف فيه وفى العالم من حوله .. كما يصبح النقد مفاهيم خاصة بالحق والخير والجمال ، تسمو وتنحط على قدر مايكون نصيب الناقدين من التفتح الروحى والاتزان الفكرى وسلامة الذوق وحدة الذهن ، وصفاء العين والقلب ، واتساع الخبرة بآثار الانسان وأخباره منذ أقدم العصور حتى الساعة :

---

(١) المصدرالسابق — ص ١٩٣ — ١٩٤

(٢)

فن القــول :

إن دائرة البحث البلاغى عند القدماء مقصورة على الجملة ، ومحدودة بالألفاظ ، على حين تتسع دائرة البحث المحدث باتساع خطوات العمل الفنى : الايجاد ، والترتيب ، والتعبير .. سواء أمر بها المتفنن متعجلا مقصرا ، أم متأنيا متريثا .. ملهما مستوحيا ، أم متدبرا مفكرا ..

وإذا كان الإيجاد قائما على الإرادة والملاحظة والقراءة والتأمل والإخلاص وجب أن نقدر أن التكوين الأدبى لا يتيسر بنجاح إلا إذا بعثنا إرادة الطلاب إلى الأهداف الأدبية التى تغريهم بها ،فتكون لهم الرغبة فى إيجاد مانريد منهم إيجاده من عمل أدبى ، وإلا فلن يقرئوا قراءة مجدية ،ولن يتمثلوا مايقرئون تمثلا مفيدا ، ولن ينتفعوا بما ينتهى إليهم من ذلك انتفاعا صالحا ، ولن يكونوا بعد ذلك الأشخاص الذين يحسبون استعمال اللغة أداة من أدوات التعبير الفنى ومصدرا من مصادر القوة والمتعة فى الحياة وحبذا أن نجعل الطلاب يكتسبون معانيهم الأدبية من النظر فى الكون والملاحظة للموجود ، ونهيئهم بذلك ليقظة أوسع من الميدان الفنى ، وأشمل لحياتهم كلها ، فى علمهم وعملهم ، لافى فنهم فحسب [١] ..

وبذلك يكون عمل البلاغى تكوينا وإبداعا ، أى من عمل الفنان الخالق ، لامجرد تعقيب وتقويم لفظى ، لايتعدى دائرة السطح ، فلا ينفذ إلى لباب..

ولايتوفر هذا إلا إذا كان البلاغى ناقدا ،تتم له المعاناة التى واجهها صاحب الأدب المنقود ، فلا يحدث عما لم يذقه ، ولايصف مالم يعرفه ، ولايقوم مالم يفهمه ، فضلا عن أن يزنه ويحكم عليه ..

---

(١) فن القول — ص ٤٥ — ٥٤ — ٥٧

وتكون البلاغة — إذن — قدرة على الإيجاد والترتيب والتعبير ، بالإضافة إلى قدرة على الوصف والتفسير والتقويم والإنصاف .

* * *

وإن تكن البلاغة هى الدرس الموضوعى الوحيد فى الأدب ، إذا كان ماعداها من علوم الأدب إنما هو دوس يمهد للجانب الفنى من القول ، أو هو درس لايمس الصميم من هذه الناحية الفنية ..

وإن تكن البلاغة مهيئة لصنع الجديد من القول ، فهى بهذا المهيئة لإرضاء الجانب الوجدانى فى حياة الجماعة ، والوفاء بحاجتها فى ذلك .. ومن ثم تمثل مزاجها الفنى ، وتتصل بفلسفة الأمة فى غاية الحياة وهدفها من الوجود ..

وإن تكن البلاغة مهيئة لمعرفة الجيد، وإصابة الحكم فيه ، فهى بذلك الممثلة لذوق الأمة الناقد، حين يكون أصيلا معتزا بنفسه، أو تابعا مقلدا لغيره..

إن تكن البلاغة بعيدة الأثر إلى هذا الحد وجب ربط الدرس بالثروة الأدبية للغة المدروسة ، ربطا لاينتهى عند التزامهم إيراد الشاهد الفنى الأدبى ، دون صنع المثل الذى يساير القاعدة ، ويجارى الضابط ، ولا ينتهى عند عند إكثارهم من هذه الشواهد ، بل يمضى إلى الوقفة الطويلة عند قطعة أدبية تورد بجملتها ، لينظر فيها نظرة متذوقة ، يشار عندها إلى مالصاحب هذه القطعة من روائع أدبية أخرى فى مثل هذا الصنيع من تشبيه خاص ، أو صورة تعبيرية موفقة .. وكذلك يمتد القول إلى إشارات تاريخية تربط هذا الفن الأدبى فى اللغة المدروسة بأصوله فى الأدب أو الآداب التى كان لها تأثير واتصال بأدب تلك اللغة مع إيقاظ قوة الملاحظة الفنية والتنبه الوجدانى فى الدارس تنبها يجعله يشهد المثل الفنية والصور البارعة التى جادت بها فطر موهوبة ، وخلقتها نفوس حساسة صافية ، يشهدها المتكلم ، ويلتفت منها إلى ماتسعفه عليه فطرته ، ويتنبه له وجدانه ، وتستشفه موهبته ، فيبدأ بالتمييز والحكم لابالتلقين والإلزام [1] ..

(١) فن القول ص ١٠١ — ١٠٧ — ١٠٨ .

وبذلك يتسع مجال الدرس البلاغى ، ليكون عملا قوميا ، يعرف ويربط وجدان الدارس بوجدان الأمة ، ممثلا فى تراثها الأدبى ، وليكون عملا أدبيا متذوقا ناقدا كل جميل بارع من الصور الأدبية والقيم الفنية ، وليكون عملا تربويا حيا قادرا على أن يخصب وجود الدارسين ، وينمى مواهبهم .

* * *

(ونحن إنما نريد تقدير الذوق المصرى الفنى الخاص والاحتكام إلى الحس الأدبى المصرى ، والرجوع إلى ذلك دون غيره ، فيما نتحدث عنه من دقائق فنية فى حس اللفظ أو الجملة . .

وما نزعم أن هذا الحس قد بلغ فى تركزه حدا استقل به استقلالا تاما عن الحس الأدبى العربى العام ، أو الذوق العربى العام ، حتى نترك هنا إلى ذاك . . ما ندعى هذه الدعوى المتطاولة ، بل لا نقصد إلى قريب منها ، إذ لا يزال هناك ذوق أدبى عام للعربية ، ولا يزال هناك حس فنى عربى عام ، وعند هذا الذوق يمكن أن يلتقى أبناء العربية كثيرا ، مهما تنأ بهم الديار ، وتفترق البيئات) . .

ومع الاطمئنان إلى هذا الأصل يمكن تحقيق ما يلى :

١ ــ تحكيم الذوق المصرى الخاص ، حين نتحاكم إلى الذوق ، والقياس بالعرف المصرى الأدبى ، حين نقضى بألفة أو غرابة ، قبول أو نفرة . .

٢ ــ البحث عن أنماط التعبير وفنون التحسين ، التى أنس إليها الذوق المصرى أكثر من غيرها ، فنمنحها حظا من عنايتنا أوفر . .

٣ ــ الأنس إلى لغة الحياة المصرية فى تشبيهها ، أو تجوزها ، أو استعارتها أو تكنيتها ، وجعل ذلك سبيلا إلى استحساننا كناية أو استعارة ، أو تفضيل تشبيه على آخر ، أو إيثار مجاز على غيره . .

٤ — تخير نظر البلاغيين الذين ظهر فيهم أثر البيئة المصرية ، لنؤيد به رأيا ، أو نعزز به اختيارا .

٥ — تتبع آثار أدباء البيئة المصرية ، من شعراء وأصحاب نثر ، نتمثل بها ، ونستشهد ، فنصل بذلك ماضينا بحاضرنا ، ونعمل بجد على إبراز خصائص الذوق المصرى ، وتمييز طابع الأدب المصرى الخاص ، الذى يقدم إلى الأمة المصرية فى عروبتها اللسانية أدبا ونقدا قد تمصر واحتفظ بالمحبب إلى النفس المصرية ، الأثير عند المزاج المصرى ، فغذى بذلك بذلك الرغبة المصرية فى إيجاد أدب خاص له شخصيته[1] .

* * *

والبلاغة — على هذا الفهم الواسع — لا بد لها من مقدمة فنية تنتظم خلاصة فى الفن وأصوله ومكانه فى المعرفة الانسانية وصلته بما سواه من ألوان المعرفة ، كالفلسفة والعلم ، وإجمالات عن الجمال ما هو ؟ وبأى شيء يكون؟ وفى أى شيء؟وهل يستطاع قياسه ؟ وبم ؟ وكيف؟ مع التعرض الخاص للجمال الإنسانى فى هذا كله ، واعتبار ما عداه من فنون الجمال الأخرى وسيلة لفهمه هو ، واللفت إليه لفتا يقوم على أساس ، ويعتمد على درس وخبرة ومعرفة ، مما يزود أصحاب الدراسة الأدبية بما يقدرهم على القول الناقد والحكم الصادق فى تناول دقيق ، وإدراك عميق ، وحكم سليم ، وشعور قوى .

ولا بد من بحث المعانى الأدبية والفنون الأدبية والأساليب الادبية ، وإزالة التداخل المضطرب فى دراسة مواد ثقافتنا على اختلافها ، لنزيل مثل ذلك التداخل بين دراسة مواد العربية ، وإزالة الاضطراب الناجم عن عدم تمثل الأقدمين — ولا سيما المتكلمين — للمنهج البلاغى الملائم وإبعاد الأبحاث التى أقحمها فى البلاغة اضطراب المناهج واختلاطها ، مثل البحث فى الصدق والكذب ، والربط فى جملة الحال ، ومقدمة الدلالات

(١) انظر فن القول — ص ١٦٠ — ١٦٢ .

وأنواع الجامع فى باب الفصل والوصل ، وبيانهم للعقلى والوهمى والخيالى وشرحهم القوى الإنسانية، وتعرضهم لغير ذلك من معارف ليست فى شىء من هذه البلاغة ، ووجوب تمثل المنهج الفنى تمثلا واضحا ، والتزامه فى هذا الدرس التزاما صادقا ، و نحرر أنفسنا من الرجعية الفنية التى تدين بأن كل خير فى الدنيا قد تقضى ، ونحرر دراستها من آثار الدراسة القديمة الضيقة الأفق . ولا نلزم دراستنا الطابع الدينى الذى لزمها يوم كانت غايتها معرفة إعجاز القرآن، ونشعر بعظمة الغاية التى نلتمس من أجلها الدرس الأدبى وحيويتها . ونثق بأن فى الثقافة العلمية والفنية لهذا العصر ما ينبغى أن يلتمس ، ونزود ثقافتنا الأدبية بما يجدى عليها من دراسات فنية لها اليوم تقدمها .

(٣)

خطة فن القول . .

وعلى أساس التخلية (نقد القديم ونفى غثه) والتحلية (ضم سمين القديم إلى صالح الجديد) — أجمل الأستاذ الخولى خطته فيما يلى :

أولا التعريف بفن القول . : غايته . : صلته بغيره من الدراسات صلته بالدراسات الأدبية : بالأدب . .بالنقد الأدبى . . بتاريخ الأدب . :

ثانيا مقدمة عن الفن : : حقيقته : : صلته بالمعارف الإنسانية فيم يكون علم الجمال ؟ وبم يقدر ؟ الآراء فى ذلك قديما وحديثا. :

ومقدمة عن القوى الإنسانية المختلفة ، وصلتها بالعمل الفنى ،وتأثيرها فيه : . وعن الحياة الوجدانية ، وصلتها بجوانب الحياة الأخرى : : عن العواطف والمشاعر الإنسانية ، وما تمد به العمل الفنى ، ولا سيما الأدبى

---

(١) ص ٢١٤ فن القول .

ثالثا أبحاث فى :

(أ) الكلمة : من حيث هى عنصر لغوى ، جرسا وأداء . :
صلة الصوت بالمعنى جزالة ورقة . . تأثير الرنين الصوتى (جناسا ، وسجعا ، وترصيعا ، وتصريعا . : الخ) فى جمال الأداء . . درجة الحسن فى هذه المحسنات ومنشؤه واتصاله بالمعنى دائما . حسن دلالة الكلمة على معناها فى الجملة ، وضعا واستعمالا ، فالوضع يهيئ للكلمة خصائص أدبية ، تؤثر فى دلالتها ، من حيث التعريف والتنكير ، والإضمار والاظهار ، والإفراد والتثنية والجمع ، توسعا وتغليبا ، والجملة : اسمية وفعلية ، مع اختلاف الزمن . . والاستعمال يرتبط بظواهر اجتماعية تزيد من حظ الكلمة فى الاستعمال أو تقلل منه ، كما أنه يوسع دلالة بعض الكلمات بمعونة القرائن ، وبخاصة أدوات الطلب ، ويوسع دلالة الصيغ إخبارا وإنشاء ، ثم إن الإكثار من استعمال الكلمة يمكنها من أداء معنى أوسع ، هو من معناها الأول بسبب ، فيكون المجاز اللغوى غير المجاز الأدبى ، وتكون الحاجة إلى بيان أثر الاستعمال المجازى ، فى الدلالة وقيمته الأدبية . . وللمركز الاجتماعى كذلك أثره فى الكلمة المستعملة ، رفعة وضعة وكرامة وابتذالا ، وقوة وفتورا . . بل إن الحالة النفسية للفرد والجماعة ذات أثر لا ينكر بوجه عام . .

(ب) الجملة : من حيث موضع الكلمة فيها ، وجوبا وجوازا ، وتقديما وتأخيرا ، وذكرا وحذفا . . الخ . ومن حيث

ربط جزأى الجملة بالإسناد ، أو تقويتها بالتوكيد أو حمل جملة على أخرى إيجابا وسلبا بأدوات الشرط . . ومن حيث الإيجاز والإطناب . .

(ج) الفقرة : الترقيم اللفظى لحمل الفقرة ، فصلا ووصلا . وضوابطه الفنية .. الإيجاز والإطناب ومقتضياتهما وضابطهما . . الفقرة جزء من صورة متناسقة فنية الخلق .

(د) صور التعبير : قوة إبانة وتأثير ، بالإيضاح المعلن ، أو بالتظليل المؤثر . . صور الإيضاح تشبيها واستعارة وكناية وتجريدا وقلبا ، ومبالغة وأسلوب الحكيم وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتدبيجا وتهييجا وتهكما ، وفكاهة ، وتجاهلا .. وصور التعبير المظللة : رمزا وإلغازا وتورية واستخداما واتساعا ، وأثر ذلك كله فى العمل الفنى وشواهده .

(هـ) القطعة الأدبية : عناصر العمل الأدبى . . العلاقة بين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى ، مباحث المعانى الأدبية خصائصها ومصادر إيجادها . . الأدب والثقافة العامة والخاصة . . والرياضة الأدبية وطرقها قديما وحديثا فى تفصيل . . ترتيب المعانى الأدبية ، المعانى النفسية والأدبية فى ذلك ، واختلافها فى المتفننين ، وأثرها فى فنهم . . عرض المعانى الأدبية وإخراجها ، واختلاف الأدباء فى ذلك وأثره . . خصائص الفنون الأدبية المختلفة شعرا ونثرا ، عبارات ومعانى وموضوعات .

(د) الأساليب : من حيث الإخراج والعرض ، رمزيا وفكاهيا وتهكميا ومقومات مثل هذا الصنيع ، مع الإشارة إلى الروائع الفنية من كل طراز [١] . .

** خطة . . تبدو متكاملة . .

ومع ذلك . . يرى الأستاذ الخولى – إيمانا منه بقدرة الحياة على التطور والتجدد والثراء – أن تظل أبد الدهر رهن التغيير والتعديل وهدف التجديد والتحسين ، يضيف إليها ويحذف منها ، وينسقها من تهيأت له القدرة الصادقة على ذلك ، وكانت له فيه بصيرة خبيرة ، ليظل هذا الدرس للفن القولى صدى لحياة أهله ، وسبيلا لتحقيق غاياتهم فى الحياة الوجدانية الراقية . .

(٤)

النقـــد .

وهذه الحياة الوجدانية الراقية هى مجال الفن الذى هو موضوع علم البلاغة ، ومجال النقد الذى تطورت إليه البلاغة ، فصارت فن القول . .

وإذا عرفنا أن النقد نشاط وجدانى ، فلا بد منه للحى ذى الوجدان الذى يسعد إنسانيته أن يكون صاحب حق فى تقدير أعمال الآخرين ناقدا كما يسعد إنسانيته أن يكون موضع تقدير الآخرين منقوداً .. وكل حرمان من التنفيس عن هذه الرغبة النفسية والنشاط الوجدانى للإنسان ، ناقدا أو منقودا ، يكون له من الأثر السيء على نفسه ما لكل حرمان من نشاط . .

ولأن النقد حاجة نفسية للناقد والمنقود ، فهو حاجة اجتماعية تقوم الذوق العام ، وتثبت سلطان الرأى العام ، فيحمى القيمة الفنية وغيرها . .

ومن النقد على هذا المعنى يأتلف الذوق العام ، أو الوجدان العام ، فى الحياة الأدبية الفنية ، والحياة العقلية العلمية ، بل فى الحياة العامة العملية . .

---

(١) فن القول – ص ٢١٦ – ٢٢٣

ومن النقد على هذا المعنى تسدد خطوات الرأى العام ، ويقوى سلطانه بقوة محافظة كل ذى إنسانية راغبة فى الكمال ، على حقه فى أن يقوم ، ويقول، وشعور كل ذى عمل بالحاجة إلى معرفة وقعه وتقديره (١).

وإذا كان الفحص الطبى للجسد الإنسانى بين الحين والحين ، يدل على مواضع الضعف ليتلافاها ، ويتعرف مصادر القوة ليتولاها بالإمداد ، فالبقاء النافع ، والتطور المقدم ، رهن بالنقد المتتبع ، والتقويم المستمر المتجدد . . وليست خطوات النهوض إلا دفعات نقدية تذود الحياة عن الركود ، وتمنعها من التخلف وتحفزها بوثبة مصلحة أو نهضة مواتية . .

ولولا النقد الصريح الجرئ ماجاوزت الإنسانية أولى مراحلها فى طريق الحياة ، ولظلت فى المدرك الغيبى ، لاتعرف شيئا من حقائق الكون ، ولا احتكمت فى شىء مما سخر لها من قوى الوجود (٢)..

لذلك.. كان واجبنا النقدى خلقيا اجتماعيا إنسانيا ، يؤيده تدين المتدين وتدعمه خلقية الفاضل الخير ، وكان الإخلال بذلك الواجب إثما عظيما أمام الضمير الفردى ، وأمام المسئولية العامة..

النقد حر . .

والنقد يفتر ، ويخفت صوته ، حين يعوزه الجو الذى يتنفس فيه لأن النقد فى مجاعة الحرية لايكون إلا محاولة المحروم المكبوت الذى يحتال لحاجة ، ويتبلغ فيها بما يجد من بديل لايسمن ولايغنى من جوع ، كالهمسة الضائعة والإشاعة الذائعة ، والنكتة العابرة ، والحكاية الرامزة ، وبهذه وأمثالها يكون شىء من التسرية النفسية المؤقتة ، يعقبه رد فعل من الضجر : يجعل شر المصائب ما يضحك ، ويتلوه غيظ متلهف على معرفة الحقيقة ، وتقدير الموقف ، وتدبير المستقبل ، ثم

(١) النقد — الأدب — أبريل سنة ١٩٥٦ .

(٢) قواعد تحقيق النصوص — الأدب — مايو سنة ١٩٥٧ .

يكون اضطراب الرأى العام ، وبلبلة الشعور الجماعى ، واهتزاز الثقة بالقيم فى الميادين المختلفة (١) ..

وقد أدرك الشاعرون بكرامتهم من الأولين ماللحرية من أثر على النقد ، وعلى الشعور بالوجود الفردى والجماعى ، فاندفعوا إلى تقرير أصول نظرية وعليا تحمى النقد ، وتحتمه، وربطوا هذه الأصول بالوجود الدينى لتكتسب قداسة ، فاستقر فى نظرياتهم :

(أ) رفض إيمان المقلد : ووجوب النظر العقلى ..

(ب) لزوم الاجتهاد للقادر عليه ، بل أسرف ابن حزم فى وجوب الاجتهاد على العامة والأغمار ، كل على قدر عقله ..

(ج) عدم خلو العصر من مجتهد فى كل حين ..

(د) إثابة المجتهد ولو أخطأ ، فله أجر عند الخطإ ، وله أجران عند الصواب ، وله الحق فى اتباع مايهديه إليه اجتهاده .

ولو كان الإيمان بالحرية والشعور بالكرامة متوافرين لكان لناذلك النقد الذى يفى بحاجة الأفراد منا والجماعات فينا، ومما يعوز من هذين أو أحدهما يكون النقص والخطأ مناسبا للعوز والنقد ..

ولو كان الناقد حرا حقا ، لأحس وأدرك أن هذه الحرية حق الجميع من حوله ، ومادام له أن يقول فعلية أن يقال فيه وعنه وبهذه الواقعية اليسيرة لايمكن أن يسخط حرمنقود على حر ناقد .. ولو كان الناقد والمنقود أحرارا يؤمنون بالحرية ، وتتوافر حولهم هذه الحرية ، لما فكر واحد منهم فى تضليل الجماهير وتزييف الحقائق لأنهما يعرفان أن من حولهم أحرار فى أن يقولوا كل مايعرفون ، ويفضحون مايزيفون عليهم ..

---

(١) حديث مع الأمناء — الأدب — ديسمبر سنة ١٩٦٢ .

وكل محاولة فى إصلاح النقد والنقاد يجب أن تقوم على أساس من الحرية الموفورة التى لايخفيها شىء ولاأحد ، ولايتربص بها شىء ولاأحد ، وبغير هذه الحرية الصحيحة الموفورة لن يصح نقد ، ولن يصدق ناقد[١] ..

ومن هنا أصبح النقد دين (الأمناء) الفنى ..

النقـــد معاناة . .

والناقد لايعيش على حساب غيره ، كما تعيش الطفيليات على بعض النباتات والحيوانات ، بل يعطيك من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال ، تستهويك وتفرض احترامها عليك ..

وكثيرا مايكون نقده من قوة الإشعاع والإقناع بحيث يقضى قضاء مبرما على اتجاه قديم فى الأدب ويدفع به فى اتجاه جديد ، وبحيث يغدو الزعيم الذى بفضله تتفتح ، وحواليه تلتف المواهب الفتيةفى الأمة ، فإنه روح الثورة فى الأدب.والأدب الذىلاتهزه الثورات من حين إلى حين أدب همدت ريحه ، وشح بصره ، وتصلبت شرايينه ، فهو إلى الموت أقرب منه إلى الحياة

أما الناقد الذى لايجد لقلمه مادة إلا فى كتاب يؤلفه غيره ، والذى يحصر همه فى الكشف عما فى ذلك الكتاب من معايب ومحاسن — حسبما تتراءى له المعايب والمحاسن — فناقد نفعه للأدب قليل . مهما بلغ من براعة فى السبك وفىالسخرية والتهكم إنه كالدجاجة التى لاتبيض ،ولكنها تقوقىء كلما باضت رفيقة من رفيقاتها أو كبعض الطيور التى لاتبنى لنفسها أعشاشا . ولكنها تضع بيضها فى أعشاش غيرها (٢) .

فالناقد بهذا المفهوم راسم مناهج ومشرع قواعد ، وميسر سبل ، لكنه مع ذلك لا يستغنى عن إنتاج الآخرين ، لأنه مادة عمله ، ومرآة فكره .. ينظر فى قديم ماأورثوا ، ليجد عوامل الأصالة وأسباب البقاء ،

---

(١) حديث مع الأمناء — الأدب — ديسمبر سنة ١٩٦٢ م

(٢) الأديب والناقد لميخائيل نعيمة — الأدب — ديسمبر ١٩٦٢ .

وفى جديد ماصنعوا ليجد مظاهر الجدة وجوانب القصور ودواعى النماء والتطور ولا يتوفر له النظر العميق السديد إلا بالمعاناة لممارسة صاحب الأدب والفن ، والمشاركة فيها ، يحمل الناقد نفسه عليها ، ويدفعها إليها ، فيحتاج فى ذلك إلى قدر هائل من التهيؤ النفسى ، والاستشاف الوجدانى الذى فاض به كيان الأديب وصاحب الفن ، حين تملكته تلك الحال النفسية ، وعاشها بعنائها وسعادتها ..

ومن هذه المعاناة المعادة والوعى الوجدانى ، يجد مقومات حكمه ، ومبادئ رأيه ، فتصح وتصدق ، بقدر ماتسلم صحة الناقد الوجدانية ، ووجوده الفنى .. ويكون عمله فى نقده دلالة صادقة كاشفة لوزنه الفنى ، وكيانه هو ، فى الوقت الذى يتقدم لوزن غيره ، وتمثل فن سواه ..

فالنقد الحق لايكون إلا برؤية فنية ، تشارك صاحب الفن معاناته ، وتسايره فى خطواتها ، وتستبين من دقائق انتقالاتها ماالعل صاحب العمل المنقود نفسه ، لم يكن كامل الوعى له ، ملتزما لرصده ، على رغم انفعاله الباطن به ، واندفاعه الواقعى إلى الأداء له ..

ومن هنا يصبح النقد الأدبى أدبا يحتاج إلى زاد من الوعى والإخراج ، لعل الأديب المنشئ قد استراح من بعضه .. أنه صاحب فن يهئ له استشفاف أسرار الإبداع الفنى ويحلق فى أسمى أجوائه، ليستبين مكانه ومنزلته موزونا بغيره ، ثم يملك من أسباب التعبير والإبانة مايستطيع به كشف الأستار عن هذه الأسرار التى شامها [1] ..

ولايكون عمله مجرد قوقأة دجاجة ، أو الاستيلاء على عش غيره ..

النقـــد والمعاصرة . .

إن حقيقة الفن وجوهره ، وكيانة ومعدنه ، ليس شيئا يتغير على الزمن فيعذر قديم لخطئه فيه ، أو يقال إن ناقد الأمس غير ناقد اليوم ، وإنه ليس

(١) النقد الأدبى اليوم — الأدب — مارس سنة ١٩٦٥م .

لنا أن نقوم الفن القديم بقيم الناقد الحدث ، بل نقومه بقيم الناقد القديم ::
وهو خطأ وقع فيه غير واحد من المتأدبين ::

ذلك أن تطور كل من المنطق العام العقلى والوجدان العام الذوقى بتقدم البشرية لن يجعل خطأ الأمس صوابا فى الحكم العقلى ، كما أنه لن يجعل خطأ هذا الأمس فى الحكم الفنى صوابا فى الحكم الذوقى ::

إن الخطأ فى فهم السابقين لمعنى الفن وجوهره ، وتقويمه ونقده ، لن يصير صوابا بحال ما ، وإن كان قد يوهب لسذاجتهم ، ولمستواهم الاجتماعى ، وهو غفران لا تعنى به الحقيقة ، ولا يهتم له الباحث . . فحين لا يكون الفن عملا وجدانيا أو لا يكون تعبيرا عن انطباع الوجدان لن يحسب فنا ، ولن يعتنى به ، وبخاصة إذا ما قدرنا المعنى السابق فى عدم توازى الرقى الحضارى والرقى الفنى ، وهو مايؤكد أنك ترى الشاعر الجاهلى فى أوليته السابقة قد أصاب من الفن الجوهر واللباب وعبر عن وقع ما حوله على وجدانه ، ثم نرى الشاعر أو الناقد الإسلامى بعد ذلك بأجيال يخطىء معنى الفن ، ويتوه عليه جوهره ، فيعد مالا أساس له من وجدان فنا قوليا ، ويحسب زائف التعبير الممخرق والمشعوذ فنانا .

لكن مع ذلك ، فالناقد قد يلقى ظله على ما ينقده ، لان المتفهم لعبارة هو الذى يحدد بشخصيته المستوى الفكرى لها ، وهو الذى يعين الأفق العقلى الذى يمتد إليه معناها ومرماها . . فلن يفهم من النص إلا ما يرقى إليه فكره ، ويمتد إليه عقله . . وبمقدار هذا يتحكم فى النص ويحدد بيانه .

هذا . . إلى أن للمعاصرة أثرها (بما تثيره شخصية المعاصر من افتتان به أو انخداع فيه ، أومجاملة له ، أو حقد عليه ، أو منافسه فى ميدانه ، أو صلات خاصة توجب مجاملته ، أو مجاملة من يحملون اسمه ، أو من يتعصبون له بوجه ما(وإن كان تأخير دراسة المعاصرين يؤدى إلى ضياع بعض مواد الدراسة ، على تمادي الزمن ، بل ضياع معالم الفهم للموجود

من تلك المواد ، بذهاب ملابساتها وتغير ظروفها بتطور الحياة السريع ، وبصمت ألسنة كانت تقول فيها قول المشاهد المشارك ، وتسجل ما رأت الأعين ، وسمعت الآذان من شفهى الكلام وأضواء الأحداث التى تبدد ما تنشر الأهواء حول تفسير الوقائع وتعليلها ، حتى ليبقى بدونها الحدث هيكلا عظيما أشوه ، تذهب الظنون فى تفسيره مع كل احتمال .

ولهذا دعا الأستاذ الخولى إلى :

١ — جمع مستقص لأخبار المدروس ، جدية كانت أو هزلية خلقية كانت أو انحرافية ، فردية كانت أو اجتماعية ، يسيرة أقرب اليسر ، أو خطيرة أبعد الخطر ، بطولية كانت أو انهزامية ، لحظية كانت أو دائمة . . وعد فى صنوف هذه الأخبار كل ما تستطيع أن تعد ، لأنها خطوط — لا محالة — فى الصورة ، وأضواء تلتقط عليها الصورة الدقيقة المعبرة . .

٢ — فحص ناقد لهذا الجمع الحاشد ، ينقيه من أوهام المفتونين وأحقاد الكارهين ، وأكاذيب الملفقين ، ولاسيما فى حياة هؤلاء العصريين التى تصطخب فيها الأهواء ، وتتجسم آفات المعاصرة . .

وما أحوج هذا النقد إلى خبرة بالكون والناس ، تعادلها جرأة لا تعرف حياء فى علم ، ولا محاباة فى حق ، ولا مجاملة لحى ولا ميت — فلا تند عن تلك الخبرة لفتة إلى المؤثرات ، والمستهويات ، والدوافع ، والخوالج والبواعث ، والمقاصد . .

٣ — تفسير نفسى واجتماعى دقيق ، يستشف التيارات الخفية والنوايا الباطنية ، يقدم عليها المفسر لأحداث حياة المدروس إقدام عشيره المختلى به المتفرغ له ، فيرى من خفى أمره ما ربما لا يتبينه هو نفسه له ، ولا يشعر به الشعور الواعى ، ويجمع المتفرق المتكامل ، على بعد الزمن والمناسبة[1] .

---

(١) هذا العدد منهج — الأدب — يناير سنة ١٩٦٣ .

من آداب النقــد . :

وقدم لنا الأستاذ الخولى صورة من هذه الآداب ممثلة فيما وصل إليه الأولون من أدب البحث والمناظرة . . وقسمها إلى :

(أ) من الناحية النفسية

١ — أن يحترز عن أن يحسب الخصم حقيرا ، لئلا يصدر عنه كلام يغلب به الخصم عليه . .

٢ — أن يحترز عن المناظرة مع من كان مهيبا ومحترما ، لأنها ربما تزيل دقة النظر ، وحدة الذهن ، بفعل الهيبة ، فتبقى ذلك صونا للحق . .

٣ — أن يحترز عما لا مدخل له فى المقصود ، لئلا يلزم البعد عن المقصود ، وما أكثر هذا ، من خطأ المتناقشين والمتناظرين فى هذه الأيام . .

(ب) من الناحية العملية :

١ — أن يحترز عن الضحك . .

٢ — أن يحترز عن رفع الصوت . .

٣ — أن يحترز عن السفاهة ، فإن الجهال يسترون بها جهلهم ، وما أبشع هذا بيننا . .

(جـ) من الناحية الموضوعية :

١ — أن يحترز عن الأيجاز والاختصار .

٢ — أن يحترز عن الكلام الأجنبى عن الموضوع ، لئلا يكون مخلا بالفهم .

٣ — أن يحترز عن الألفاظ الغريبة فى البحث :

٤ — أن يحترز عن التطويل فى الكلام لئلا يؤدى إلى الملال . .

٥ — أن يحترز عن الألفاظ المحتملة المعنيين .

٤ — أن يحترز عن الدخول فى كلام الخصم قبل الفهم بتمامه ، وإن افتقر إلى إعادته ثانيا ، فلا بأس بالاستفسار عنه ، إذ الداخل فى الكلام قبل الفهم أقبح من المستفسر عما لم يفهم [١]

ونضيف إلى هذه الآداب ، بسبب انتشار أمراض النقد عندنا :

١ — عدم ممارسة النقد احترافا . . فالفن ليس ارتزاقا واحترافا والنقد فن ، ويوم يترفع عن الاحتراف والارتزاق يكون الرزق عليه غدقا غامرا ، مع أنه كريم رفيع . .

٢ — وجوب التخصص فى لون من ألوان الفن بعينه ، تخصصاً يتهيأ للناقد به أن يمارس تلك المعاناه الفنية المشاركة لمعاناة الفنان المنقود ، المثبتة لخفايا تجربته . . والفنان بفطرته وعادته يتخصص بموهبته ، ويؤثر من الأنواع الأدبية ما تتطلع إليه هذه الموهبة ، وتواتى عليه ، فيكون التفوق أو النبوغ حسبما تسعف الشخصية . .

٣ — أن يتجنب الناقد الفقر الثقافى ، والحاجة إلى الزاد المعنوى الذى يقيم كيانه ، ويعينه على القيام بعمل يحتاج إلى فضل قوة . . وإذا كان النقد الفنى فنا ، والنقد الادبى أدبا ، فالأمر فى الناقد لا يختلف عن الأمر فى المنتج ، من حيث الحاجة إلى موهبة ، وزاد ثقافى تحيا به وتقوى [٢]

* * ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل على الناقد أن يضع بين يديه الأسئلة الآتية ، وهو يعرض للنقد ، فى أى واد من أوديته المعروفة :

١ — ما الباعث على النقد ؟

٢ — ما علاقته بالشخص المنقود ؟

٣ — ما مدى صلته بالموضوع ؟

(١) أدب البحث والمناظرة — الإدب — فبراير سنة ١٩٦٣ .
(٢) النقد الادبى — الادب — مارس سنة ١٩٦٥م .

فان صدقت وشجعت إجابة الناقد عن هذه الأسئلة فقد آذن قارئه بما يحفظ عليه شيئا من الطمأنينة ، أو نبهه إلى شيء مما يوجب الحذر ، فيقرأ واعيا يستخلص ما بين الأسطر . .

** فاذا كان ما يعرض له الناقد ترجمة من التراجم ، نظر إليها من جوانب متعددة ، هي :

١ — من أى أنواع التراجم هي ؟ أترجمة تاريخية ، أو ترجمة فنية ؟

٢ — ما مدى وضوح الصورة وجلاء ملامحها ؟ وماذا فيها من اهتزاز أو نقص خطوط أو ألوان ؟

٣ — إلى أى حد استقصى الكاتب اختبار المترجم له ؟ وهل كان نقده لهذه الأخبار شكليا أو موضوعيا ؟

٤ — ماذا منح الكاتب المصور صورته من فنه ونفسه ، حتى بث فيها حيوية وتعبيرا ؟ عن طريق فهمه النفسى والاجتماعى الصحيح السليم لأحوال هذا المصور المترجم له وتفسيرها تفسيرا دقيقا ، حتى كأنه مثال يشهده ليرسم عنه . .

٥ — ما اللمسات الشخصية من المصور لصورته صدى وانعكاسا لقوة فهمه وقوة نفسه ؟ فمنح الصورة بذلك ملاحظ من فروضه التاريخية التى تمكن منها البيئة المكانية والزمانية للشخص المؤرخ ، فتكون تلك الفروض من الكاتب تتمة للأخبار المنقولة التى فسرت وفهم جوها فأجاز ذلك لرسام الصورة أن يضيف إليها ما يطمئن إليه من نتائج هذا الفهم والاستشفاف.

وعلى الناقد الأدبى بعامة أن يأخذ نفسه بما يأتى :

١ — وصل الأديب بأدبه ، بحيث نفهم الادب بشخصية صاحبه كما يفهم شخصية الأديب بآثاره الفنية . .

---

(١) نقد كتاب (الناصر محمد بن قلاوون) — الأدب — مارس سنة ١٩٦٥ م .

٢ — جنسية الرجل ووراثته وبيئته وثقافته ومزاجه : : كل أولئك وأشباهه مما يؤثر على تناوله لمسائل المادة ، وتفكيره فى موضوتها ، ويدخل فى حياة المادة من هذا كله ، مالا بد منه لفهم سيرها ومرساها ، إلى دراك أغوار مسائلها ، ومرامى المتحدثين فيها : :

٣ — وجوب النظر إلى أدب الاديب جملة ، وعلى أن له وحدة متماسكة ليتم بعضه بعضا ، ويتهيأ لنا بتكامله فهم بعضه ببعض [١] :

٤ — تقويم الفكرة العامة فى الكتاب ، والهدف من وصفه ، تحديدا لمنزلته ، وتقديرا لبلوغه ما أريد له من هدف ، وإيضاحا لما تمثله مؤلفه من فكرة فى الموضوع الذى تناوله ، وأين تقع هذه الفكرة بين الأفكار والآراء؟ وهل هى فكرة متكاملة متماسكة أولا ؟ وأيا ما كانت ، فأين تقع بين الأفكار ؟ أتقليد هى وترديد لأشياء سبق القول بها ؟ أم هى ابتداء واختراع لجديد غير مسبوق ؟

والإجابة عن هذه الأسئلة كلها ، بل عن بعضها ، تقتضى تحقيق المبدأ القديم الجديد معا فى كل بحث ، وذلك المبدأ القديم الجديد هو قول سقراط لتلاميذه : حددوا الألفاظ التى تستعملونها ، واصطلاح النظارين فى قومنا بعبارتهم : تحرير المراد : .

(٥)

خطوة على الطريق . .

عرض الأستاذ الخولى كتاب (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح) لبهاء الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ ، فى بحثه القيم (مصر فى تاريخ البلاغة) ، سنة ١٩٣٤ ، ثم قال :

(يدفعنى ما بينته من شأن هذا الكتاب إلى أن أشير — فى غير ما عصبية ولا محاباة ، بل مع الاعتماد القوى على قواعد التقدير النزيه —

---

(١) مناهج تجديد — ص ٢٣٥

بأن يكون هذا الكتاب كتاب الدرس الموسع للبلاغة العربية ، فيكون المم
الموصل للدراسة الأدبية الناضجة ، التي نرجو بها الإنتقال التام بالبلاغة
إلى الطريقة الادبية ، انتقالا مكونا للذوق ، منعشا لمواهب الموهوبين ،
من أدباء الطلاب ، ومعينا لهم على النبوغ والتفوق فى النقد والإثمار)[١]

ذلك لان الكتاب فى جملته (خلاصة صافية ، ومزيج لبق من الأبحاث
الفلسفية الكلامية والأبحاث الادبية الذوقية، والروح الفنية الصحيحة[٢]

فالبهاء السبكى رغب عن الأصول الفلسفية ، واتجه بالبلاغة اتجاها
عمليا حين جهر بمزج قواعد هذا العلم بقواعد الأصول ، وأشار إلى تأدية
البلاغة إلى علم الأصول الشرعية ، وأن علمى الفقة والمعانى فى غاية
التداخل ، وعمل على تقوية صلة البلاغة بقواعد النحو ، ومزج البحثين
وغلب النزعة الأدبية فى تناوله وبحثه ، واعتمد على الطبع العربى ، وحكمه
ورفض التوافه الكلامية وأدرك أن الاعتماد على الذوق أجدى من درس
هذا العلم ، وأن أهل بلادنا مستغنون عن ذلك ، بما طبعهم الله تعالى عليه
من الذوق السليم والفهم المستقيم ، والأذهان التى هى أرق من النسيم ،
وألطف من ماء المحيا الوسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار بأصابعه
فظهرت عليهم هذه الطلاوة [٣]

ومع أن البهاء السبكى معاصر سعد الدين التفتازانى (٧٩٢هـ) الذى
كان من أسباب الجمو د الفكرى زمنا طويلا بكتابيه الشرح الصغير والشرح
الكبير — فقد خطا بالبلاغة العربية خطوة كبيرة فى سبيل تخليصها من الطابع
الأعجمى ، و تحرير المزاج العربى

ولا نكاد نجد — مع بعد ما بيننا وبينه — من وسع هذه الخطوة
وعمقها ، حتى كان الأستاذ الخولى ، الذى استطاع أن يضع يده على

---

(١) مناهج تجديد — ص ٢٥٢
(٢) المصدر السابق — ص ٢٥١
(٣) نفسه — ص ٢٢٩

مواطن العلة فى جهود السابقين ويتنور مستقبل البلاغة العربية من خلال دراسات الغربيين ، بلاغية وجمالية ونفسية ، وقد خص بالذكر فى (فن القول) كتابى (الأسلوب الإيطالى للاباريني) ، و (مبادئ البلاغة والعروض للويجى فالماجى) : :

قد نجد فى كلام ١ لاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده تعريفا للبلاغة بأنها علم (الأساليب) أو أن (الحد الصحيح للبلاغة فى الكلام هى أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع ، باصابته موضع الإقناع من العقل ، والوجدان من النفس) :

كما قد نجد للشيخ المرصفى فى (الوسيلة) لمحات نقدية تعبر عن حذق وذوق : :

وقد نجد تناولا للأدب العربى باسم البلاغة العربية لأحمد ضيف (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) . .

لكن الدراسة البلاغية والتأليف فيها ، لم يتجاوز شرحى التلخيص للتفتازانى على وفق ما هو كائن حتى اليوم بالأزهر ، موطن هذه الدراسة المتوارثة ، وعلى وفق ما جاء فى كتابات من تعرضوا لتاريخ البلاغة العربية مثل الدكتور بدوى طبانة ، وعلى وفق ما جاء فى (البلاغة الواضحة) لأستاذين فاضلين قالا فى مقدمتها (أملنا أن يكون لعملنا هذا شأن فى إحياء الأدب ، وتوجيه أذهان المعلمين والطلاب إلى هذه الطريقة التى ابتكرناها فى دراسة البلاغة) مع أنهما لم يزيدا على ما جاء فى كتاب (زهر الربيع) أول ما يدرس فى علم البلاغة لطلاب المعاهد الدينية ، وهو تيسير لتلخيص السعد التفتازانى . . وليس لهما من فضل إلا فى العبارة الواضحة ومزيد من الأمثلة والتمرينات بالإضافة إلى كلمة عن الأسلوب العلمى والأسلوب

---

(١) تفسير النار — جـ ١ . ص ٢٠٢

الأدبي والأسلوب الخطابي سبقهما الاستاذ الخولى إلى مثلها بخمس سنوات فى مذكرة لطلاب الآداب (ثقافة عامة وأدبيات) سنة ١٩٣٤ [١].

* * *

وقد قدم لنا الأستاذ الخولى — كما سبق أن رأينا — دراسة عميقة الجذور دانية القطوف ، واضحة المعالم ، انتقلت بالبحث البلاغى من دائرة الكلمة والجملة إلى دائرة البحث الفنى المتكامل ، من حيث الأمجاد والترتيب والتعبير . مع نظرة شاملة فى الأثر الأدبى كله . وقدم لذلك بمقدمة نفسية ، تقوم على الإحساس بالجمال والتعبير عنه. وربط العمل التعلميى بالحياة : قاموسيا ونحويا وبلاغيا ولم تصبح البلاغة فى درسه مجرد علم وقواعد جامدة ، لا حياة فيها ، بل صارت فنا ، وكل فن لا ينعزل عن بيئته ، لأنه وقع الوجود على الوجدان ، وأقرب الوجود إلينا مصر ، لذلك عمل على إبراز خصائص الذوق المصرى ، وتمييز طابع الأدب المصرى الخاص الذى يقدم إلى الأمة المصرية فى عروبتها اللسانية أدبا ونقدا ، قد تمصر ، واحتفظ بالمحبب إلى النفس البشرية ، الأثير عند المزاج المصرى فغذى بذلك الرغبة المصرية فى إيجاد أدب خاص له شخصية . ووثق الدرس البلاغى بالثروة الأدبية للغته المدروسة توثيقا لا ينتهى عند التزامهم إيراد الشاهد الفنى الادبى ، دون صنع المثل الذى يساير القاعدة ، ويجارى الضابط ، ولا ينتهى عند إكثارهم من هذه الشواهد ، بل يمضى إلى الوقفة الطويلة عند قطعة أدبية ، تورد بجملتها لينظر فيها نظرة متذوقة ، يشار عندها إلى ما لصاحب هذه القطعة من روائع أدبية أخرى فى مثل هذا الصنيع ، من تشبيه خاص ، أو صورة تعبيرية موفقة ، وكذلك يمتد القول إلى إشارات تاريخية ، تربط هذا الفن الادبى فى اللغة المدروسة بأصوله فى الادب ، أو الآداب التى كان لها تأثير واتصال بأدب تلك اللغة مع إيقاظ قوة الملاحظة الفنية ، والتنبه الوجدانى فى الدارس ، تنبها يجعله

---

(١) ارجع إلى كتابى (أمين الخولى حياته وأعماله) .

يشهد المثل الفنية والصور البارعة التى جاءت بها فطر موهوبة ، وخلقتها نفوس حساسة صافية .

ودعا إلى بحث المعانى الأدبية والفنون الأدبية والأساليب الادبية ، وإلى إزالة التداخل المضطرب فى دراسة مواد ثقافتنا على اختلافها، وتخلية الدرس من الأبحاث التى أقحمها فى البلاغة اضطراب المناهج واختلاطها وإلى وجوب تمثل المنهج الفنى تمثلا واضحا ، والتزامه فى هذا الدرس التزاما صادقا . . كما دعا إلى تحرير أنفسنا من الرجعية الفنية التى تدين بأن كل خير فى الدنيا قد تقضى ، ولا نلزم دراستنا الطابع الدينى الذى لزمها يوم كانت غايتها معرفة إعجاز القرآن .

وبهذا أصبحت البلاغة عدة الأديب الناقد ، ولم تعد مجرد تعريفات وشواهد ، بل أصبحت فنا جماليا ، وعملا وطنيا . يرقى بالمشاعر ، ويهذب النفوس ، ويعرف بالتراث ، ويرتبط بالبيئة ، ويعبر عن حاجة نفسية فى الناقد والمنقود جميعا ، بل عن حاجة اجتماعية تقوم الذوق العام ، وتثبت سلطان الرأى العام ، فيحمى القيم الفنية وغيرها ..

جهد كبير أصبح معلما من معالم الفكر المصرى ،بل العربى بعامة أتبعه صاحبه بجهود متتابعة فى التعبير بالقيم النقدية ، وبآداب النقد ، وواجبات النقاد .. ورسم خطوطا تطبيقية رائعة فى دراسات وترجمات وتوجيهات وتعقيبات ..

وصار بهذا كله صاحب المنهج دون سواه .. ذلك ، لأن الذين كتبوا فى البلاغة — جالوا جولة فى الميدان ، وقعدت بهم السبيل .

فالأستاذ مصطفى أمين وعلى الجارم — وهما من رجال البعثات إلى أوربا — قدما فى (البلاغة الواضحة) سنة ١٩٣٩ م — كما سبق القول — صورة وصفية للأساليب وخصائصها العلمية والأدبية والخطابية ،وعملا على التخفيف من سيطرة القاعدة البلاغية ، وتقريب البلاغة من الأدب عن طريق الشواهد المختارة ،ودراسة أفانين القول وضروب التعبير .. لكن وقفت الغاية التعليمية

لطبقة من التلاميذ تبتدئ فى التعرف على شىء من البلاغة — بالأستاذين الفاضلين عن أن يأتيا بشىء أبعد مما صنعا ، وإن كان ما قدماه فى أنواع الأساليب وخصائصها اعتبر سبقا فى التأليف العربى (١) ، لأن ما كتبه الأستاذ الخولى لم يكن منشورا ..

والأستاذ سلامة موسى فى (البلاغة العصرية واللغة العربية) سنة ١٩٤٥ ، دعا إلى الخلاص من لغة (الكهان التى لاتتلى إلا فى المعابد) والعمل على (أن تكون غايتنا توحيد لغتى الكلام والكتابة ، فنأخذ من العامية للكتابة أكثر مانستطيع حتى نصل إلى توحيد هما) ، ورأى أن يكون (المنطق أساس البلاغة ، وأن تكون مخاطبة العقل غاية المنشىء بدلا من مخاطبة العواطف) منحرفا بفهم طبيعة اللغة وقيمتها ، وبفهم طبيعة البلاغة وقيمتها . .

والأستاذ أحمد حسن الزيات فى (دفاع عن البلاغة) سنة ١٩٤٥ ، يرد على مثل دعوى سلامة موسى بأن البلاغة — التى تحدى بها القرآن أمراء القول فى عهد كان الأدب فيه صورة الحياة وترجمة الشعور وعبارة العقل — هى البلاغة التى لاتفصل بين الموضوع والشكل ، إذ الكلام كائن حى ، روحه المعنى ، وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفسا لايتمثل ، والجسم جمادا لايحس (٢).. وطالب بالتزود بألوان كثيرة من الثقافة ، لأن أقل مايجب على البلاغى درسه : اللغة والطبيعة والنفس فاللغة أداة القول والكتابة ، ولها عبقريتها التى تستكن فى طرق الأداء وتنوع الصور وتلاؤم الألفاظ .. والطبيعة كتاب الفنان ، يجمع منها موضوعه ومادته ، ومنها اقتباسه ووحيه ، ومنها دليله ومقاله ، وبها أخيلته وصوره فيجب أن يطيل فيها النظر ، ويشغل بها الفكر ، ويرجع فى كل مايعمل لأصولها الثابتة ، وقواعدها المقررة .. والنفس ينبوع ثر لما يزخر به الشعر والنثر من مختلف الغرائز والعواطف والأفكار والأحاسيس

(١) الدكتور بدوى طبانة فى (البيان العربى) ٢٢٦ .

(٢) اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته .. الخ قول ابن رشيق القيروانى .

وأتبع الحديث عن العواطف بالحديث عن الذوق (الخاسة المعنوية التى يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر فى أثر من آثار العاطفة أو الفكر) وعن الأسلوب (طريقة خلق الفكرة وتوليدها وإبرازها فى الصورة اللفظية المناسبة ..والجهد العظيم الذى يبذله الفنان من ذكائه ومن خياله فى فى إيجاد الدقائق والعلائق والعبارات والصور فى الأفكار والألفاظ ، أو فى الصلة بين الأفكار والألفاظ) ، أو كما يقول الأستاذ الخولى : (الأسلوب هو الشخص نفسه) .

وتكلم الأستاذ الزيات عن الخلاف بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى ، وعن خصائص الأسلوب الأدبى ، منوها بعظمة الأسلوب الأدبى وطبيعته وموطن الإجادة فيه ومايبنغى له ..

وكان جهد الكاتب الوقوف (فى مقام من يدافع ولايعلم ، ويوجه ولايقود .)

والأستاذ أحمد الشايب فى (الأسلوب) . قرر أن نصف البلاغة النظرية مفقود فى اللغة العربية ، وأكثره فى قسم الفنون الأدبية ، وباقية فى باب الأسلوب وأن شطرا من الأسلوب قد درس تحت عنوان المعانى والبيان والبديع ، وهو على خطورته يعوزه التنسيق ، وأن البلاغة العربية فى حاجة إل وضع علمى جديد يشمل هذه الأبواب والفنون ، ويصل بينها وبين الطبيعة الإنسانيه ، وملابساتها الزمانية والمكانية ، حتى يخدم الأدب ، وأن الأدباء هم أولى الناس يدرس البلاغة حتى يخلصوها من أساليب الفلاسفة ومذاهبهم وألغازهم .

وحصر الأستاذ الشايب البلاغة فى الأسلوب والفنون الأدبية ، وقسم البحث فى الأسلوب إلى :

١ — تعريف بالبلاغة وعلومها ومكانها بين العلم والفن ، وموضوع البلاغة .

٢ – تعريف بالأسلوب ، والكلام فى صوره وعناصره .

٣ – علاقة الأسلوب بالموضوع ، وتقسيم الأسلوب إلى علمى وأدبى وشعرى واختلاف أساليب الشعر وأساليب النثر .

٤ – العلاقة بين الأسلوب والأديب ، والأسلوب والشخصية ، ودلالة الأسلوب على الشخصية ، وأثر تفاوت الشخصيات فى اختلاف الأساليب

٥ – دراسة صفات الأسلوب : الموضوع والقوة فى الجمال

وبهذا (نبه إلى محاولات الدراسة البلاغية وآفاقها الرائدة التى تسمح بالتجديد) [1]. لكنه وغيره من الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع زمن صدور (فن القول) وبعده – لم يصلوا إلى حد رسم منهج متكامل كما فعل الاستاذ الخولى ، بل كان تناولهم تناولا جزئيا أو تعريفا بمسائل علم البلاغة ، وضرب الأمثلة لها ، فهم لم يزيدوا على عمل تعليمى فحسب يتناولون الفروع لا الاصول ، أما عمل الأستاذ الخولى فقوامه دراسة الأصول وتخليتها من كل غريب عليها ، وتحليتها بكل جديد يزيد فى نمائها وتطورها مع نظر فى ثمار هذا العمل ، وتأليف منهج متكامل هو نبراس لأى دراسة صحيحة . وترك ذلك كله رهن التغيير والتحديل ، وهدف التجديد والتحسين ، إيمانا منه بالحياة وقدرتها على التجدد والنماء .

وليس شأن معاصرى الاستاذ الخولى فى النقد بأخطر شأنا منهم فى البلاغة ، فاذا كان هم رجلى [2] (الديوان) الهجوم العنيف على الأدب التقليدى ورجاله والدعوة إلى وحدة القصيدة ، وتحرير الأسلوب من الأناقة اللفظية ، وإذا كان صاحب (فى الشعر الجاهلى) [3] قد استند إلى مذهب

---

(١) رجعت فى البلاغة الحديثة إلى كتاب (البيان العربى) للدكتور بدوى طبانة ط ٣ مكتبة الانجلو المصرية .

(٢) العقاد والمازنى

(٣) طه حسين

ديكارت فى الشك وهو يعالج الشعر الجاهلى ، واعتمد كل من جاء بعده مذاهب غربية فى كتاباتهم التطبيقية أوفى دعواتهم النقدية . . (فالفن الجميل مدرسة النظام ، كما هو مدرسة الحرية) كما يقول العقاد الذى (يعتمد على شخصية الأديب فى التفسير والتعليل أكثر مما يعتمد طه حسين صاحب المنهج التاريخى ، وكلاهما فيما نؤكد قد أصاب بعض الحق ، ولكنه لم يصيب كل الحق ، فالبيئة والعصر والجنس أو العنصر لا يمكن أن تفسر وحدها الإنتاج ا لادبى ، كما أن شخصية الأديب وطبعه ومزاجه لا تكفى أيضا وإنما تصل إلى ما يقارب التفسير الصحيح عندما نحاول أن نتبين طريق تفاعل شخصية الشاعر أو الأديب مع بيئته وعصره) [١] .

وكلا الرائدين طه حسين والعقاد متعصب لثقافة غربية ذات طابع معين فالأول فى هوى اللاتين والثانى فى هوى السكسون ولا يصدران إلا وظهراهما إلى حائط أجنبى ، والرافعى صاحب الثقافة العربية الأصيلة لم يقل فى النقد إلا من وحى ما كتب الجرجانى والباقلانى فى (إعجاز القرآن) إذا اعتبرنا ما كتب فى ذلك نوعا من النقد لأنه بحث فى الأسلوب القرآنى والبلاغة النبوية ، فاما ما جاء فى (تحت راية القرآن) و(على السفود) ومقالات (وحى القلم) فليس إلا مناوشات لفظية، وخصومات تكاد تكون شخصية ، وتقريظات ، وكلها بعيد عن أن يعد فى التقويم النقدى الصحيح . : ومن جاء بعدهم آخذ عنهم ، أو مهتد بهديهم ، معالج موضوعاته النقدية تحت (شعارات) منقولة عن مذاهب غربية مثل الموضوعية والذاتية والواقعية والاجتماعية والنفسية والتاريخية : الخ وكلها زوايا لمذهب نقدى له قواعده ، وآدابه وقيمه : استخلصه الأستاذ الخولى من نقد السند والمتن فى كتب الأولين ، ومن آداب البحث والمناظرة عندهم، ومن ثقافة عصرية واسعة عميقة : بحيث شمل ما تحدثوا به عن وظيفة النقد من تفسير وتقييم وتوجيه ، مبينا ما يجب نحو النص

(٤) النقد والنقاد المعاصرون للدكتور محمد مندور — ط نهضة مصر ص ١٥٢

من فحص وتفسير نفسي وإجتماعي دقيق ، ونحو الكاتب من آداب نفسية وعملية وموضوعية ، محذرا من أمراض نقدية انتشرت ، من احتراف وعدم تخصص وفقر ثقافي وإقبال على النقد على أساس شخصي ، داعيا إلى وصل الاديب بأدبه وبيئته وثقافته ومزاجه ووراثته، والنظر إلى أدب الأديب جملة ، وتقويم الفكرة على أساس من تمثل الكاتب لها ، وموقعها من الأفكار والآراء ، وتكاملها وتماسكها ، وسبقها أو تقليدها الخ :

(ومن النقد على هذا المعنى يأتلف الذوق ، أو الوجدان العام فى الحياة الأدبية الفنية ، والحياة العقلية العلمية ، بل فى الحياة العامة العملية : :

ومن النقد على هذا المعنى تسدد خطوات الرأى العام ، ويقوى سلطانه بقوة محافظة كل ذى إنسانية راغبة فى الكمال ، على حقه فى أن يقوم ويقول وشعور كل ذى عمل بالحاجه إلى معرفة واقعه وتقديره [١]) :

---

(١) النقد – الأدب – أبريل ١٩٥٦

رابعا : التجديد الأدبى

(١) منهج تجديده فى الأدب .
(٢) دراساته الأدبية .

** البيئة المادية أضبط ما تضبط به ألوان النشاط الانسانى ، سواء أكان النشاط أثر هبة فطرية ، ووراثة متلقاة من السلف ، أم كان نتيجة عمل كسبي للبشر إذ إن الوراثة مرهونة بالبيئة التى ينمو فيها الوارث المتلقى والعمل الكسبي محدود بطوق البيئة المادية ، قدر ما تهيئ ، وتعين ، وتدفع وتساعد . بل إن ما ينتقل إلى الناس بجوار أو فتح أو دعوة أو أى مؤثر خارجى ، انما يصل إليهم ، وهو كذلك مرهون بتقبل بيئتهم المادية له ، وصلاحيته للمعيشة فيها ، فهى التى تقبل منه ما تقبل وتنفى منه ماتنفى :

(مالك بن أنس)

** ينبغى أن ندرس أدباءنا جميعا دراسة نفسية ، وأن شق ذلك علينا وخفيت معالم طريقنا إليه ، لأننا بدون هذا الفهم النفسى ، والتصحيح الضرورى لمنهج درس الأدب ، لن نتذوق هذا الأدب ، ولن يصح لنا حكم ناقد ، ولن نكتب مع ذلك التاريخ الصحيح للأدب . .

(رأى فى أبى العلاء)

** لا يخرج صنع الأدب للتاريخ عن التفسير المادى له ، لأن مقياس التقويم المادى هو اللذة وإثارتها ، ولا قيمة للمادى إلا بقدر ما يحققه من هذا . وبواسطة هذا المقياس يوحد التقويم للمادى وغير المادى ، مادام وقعه على النفس الإنسانية هو كل قيمته . .

(الأدب يصنع التاريخ — محاضرة)

(١)

الإقليمية والدراسة الأدبية :

كانت دراسة الأدب العربي فى مصر جارية على الأساليب القديمة ، أى على طريقة الكامل للمبرد ، وأمالى أبى على القالى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وغيرها من كتب الأدب الجامعة لكل شىء من شعر ونثر وأخبار وفكاهات وملح ، واستمرت الحال على ذلك زمنا إلى هذه الأيام الأخيرة ، فكانت دراسة الأدب أشبه بمختار من المنظوم والمنثور مع شرحها ، وكان أكثر تدريس الآداب فى الجامع الأزهر وغيره من المعاهد الدينية يأتى عرضا لمناسبة شاهد نحوى ، أو لإثبات قاعدة بلاغية ، فجمعت الكتب فى ذلك ، وبعضها احتوى على فوائد كثيرة ، مثل معاهد التنصيص وخزانة الأدب وغيرها ، وكان المدرسون أنفسهم يشرحون ذلك دون فهم لروح الأدب ، لأن غرضهم إثبات الشاهد وروايته ، فكان إذا حفظ أحدهم شعرا حفظه لإثبات قاعدة ، أو للاستدلال بلغته وظهر كثير من الأدباء الذين همهم حفظ الأشعار وأنساب الشعراء عن ظهر قلب ، أو رواية الحوادث والأمثال ، مثل المغفور له الشيخ الشنقيطى والشيخ حمزة فتح الله .

قالوا : ولما اطلع المرحوم على مبارك باشا على طريقة الإفرنج فى آدابهم أفصح بعض الإفصاح عما يريده إلى الشيخ حمزة فتح الله ، وطلب منه تدريس ذلك فى مدرسة دار العلوم ، فابتدأ الشيخ حمزة يؤلف ويدرس كتاب (المواهب الفتحية) وكان يسمى ذلك علوم اللغة ، غير أنه لم يخرج عما كان فى الكتب القديمة ، ولم يتعد طرقها ، وفعل — مثل الشيخ حمزة فتح الله — الشيخ حسين المرصفى أثناء تدريسه الآداب فى المدرسة نفسها.

ولما عاد المرحوم الشيخ حسن توفيق من أوربا عهد إليه بتدريس الآداب بمدرسة دار العلوم، وكان رحمه الله ذكيا أديبا ، اكتسب شيئا من الأساليب الحديثة فى دراسة الآداب أثناء وجوده فى ألمانيا ، فبدأ يدرس الأدب على

الطريقة الحديثة منذ عشرين عاما ، فيما نعلم ، فهو أول من فعل ذلك فى مصر بل أول من سن هذه الطريقة الجديدة ، وجمع فى كتاب لطيف له طائفة من الشعراء مع تراجمهم بنوع خاص من الترتيب [١] .. إلا أنه لم يتعمق نهج الأوربيين ، وإنما عرف ظاهرا منه .. ثم ذهب جورجى زيدان هذا هذا المذهب نفسه ، متأثرا به ، أو مقلدا للأوربيين تقليدا مباشرا ، فألف كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) من أجزاء أربعة ، تابع فيها عصور الأدب العربى ، وحاول شيئا من التنظيم والإحصاء ، ثم لم يكد يزيد على ذلك ..

(وكانت الجامعة المصرية القديمة التى خطت الخطوة القيمة ، حين دعت أساتذة أوربيين ليلقوا محاضرات فى الأدب الانجليزى والفرنسى على منهجهم الذى عرفوه فى بلادهم ، ودعت الجامعة فى الوقت نفسه اساتذة من المستشرقين الأوربيين لإلقاء محاضرات فى تاريخ الأدب العربى .

وكان أول هؤلاء المستشرقين المستشرق العظيم أ . نياتسوجويدى ، وكان شيخا قد تقدمت به السن ، فلم يحاضر فى الجامعة إلا سنة واحدة ، لم يتعرض فيها لتاريخ الأدب العربى بالمعنى الدقيق ، وإنما ألقى محاضرات عن شىء سماه أدبيات التاريخ والجغرافيا عند العرب ، فأشعر طلابه بما يمكن أن يكون بين هذين العلمين وبين الأدب العربى ، ولكن فى غير تعمق أيضا .

ثم دعت الجامعة بعده أستاذنا الجليل كارلوتلينو ، وهو الذى خطا بدرس الأدب العربى وتاريخه أقوم خطوة ، وترك فى نفوس طلابه أعمق أثر ، وهو الذى علم قليلا من الشباب المصريين مناهج الدرس للأدب العربى وتاريخه وبين لهم صلة الأدب ببيئته وعصره ، ومايكون من تأثر الأدب بظواهر الرقى والانحطاط للحياة العقلية أولا ، وللحضارة المادية ثانيا) [٢] .

---

(١) (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) أحمد ضيف — ط ١ سنة ١٩٢١ القاهرة — حاشية ص ٢١

(٢) طه حسين فى درس الأدب وتاريخه — الأدب — أبريل ١٩٥٩

وقد يكون طه حسين أول المستفيدين من هذه الدراسة الجامعية ، إذ كان على اتصال بها منذ بدأت سنة ١٩٠٨ وطبق المنهج الجديد سنة ١٩١١ فى نقده (تاريخ آداب اللغة العربية) لجورجى زيدان ، فقال :

(مما لاشك فيه أن الحوادث السياسية والاجتماعية ليست إلا نتيجة لتغيرات فى أفكار الأمة وشئونها ، وتلك التغيرات نتيجة لتغير الأحوال الأدبية ، فيجب أن تقسم عصور الأدب تقسيما خاصا غير التقسيم السياسى ، بمعنى أن ينظر إلى الآداب من حيث هى منتجة للحوادث السياسية ، لامن حيث هى نتيجة لها .. أما هذه الخطة التى اتخذها صاحبنا وغيره من المؤلفين فى هذا الفن فهى غلطة سيئة لم ينتبه اليها الأدباء والمؤرخون ، فإن قيام دولة وسقوط أخرى لايمكن — كذا — أن يكونا متاثرين منها[١] . .

ومع تنبه طالب الأزهر الذى يحضر دروس الجامعة إلى شئ من أثر البيئة وأثر الأدب ، فإن مفهوم البيئة ومفهوم العصر — على مايبدو — لم يتم نضجهما إلا فى (ذكرى أبى العلاء) سنة ١٩١٤ . وهى أول رسالة جامعية وكان عمره إذ ذاك خمسة وعشرين عاما — وقد وضع لرسالته خطة تشدد فى اتباعها ، ، ولم يشذ عن أصل من أصولها[٢] . قوامها أن أبا العلاء (ثمرة من ثمرات عصره ، قد عمل على إنضاجها الزمان والمكان ، والحال السياسية والاجتماعية بل والحال الاقتصادية ، ولسنا نحتاج إلى ذكر الدين ، فإنه أظهر أثرا من أن نشير إليه ، ولو أن الدليل المنطقى لم ينته بنا إلى هذه النتيجة ، لكانت حال أبى العلاء نفسه منتهية بنا إليه[٣]) . وأن (حركة الحياة الأدبية وانتقالها من طور إلى طور واستبدالها شكلا بشكل ، كل ذلك يجرى خلف ستار لاتخترقه إلا أبصار الباحثين المجددين ، بينما الحوادث السياسية تظهر واضحة

---

(١) الأدب — يناير ١٩٦٣ — عن مجلة الهداية سنة ١٩١١

(٢) تجديد ذكرى ابى العلاء — طه حسين ط ٣ سنة ١٩٣٧ ص ١٢

(٣) المصدر السابق — ص ١٧

لكل باحث ، ولايخفى إلا ما انبعثت عنه من العلل والأسباب).. وأن المؤرخ السياسى إنما يوقت حادثة ظاهرة علمهامشترك بين الناس جميعا، فأما الأديب فيوقت ظاهرة خفية لايقع عليها الحس ، ولايبحث عنها إلا الأقلون عددا[١] :

ثم لما سافر الدكتور طه حسين إلى أوربا ، وعاد ليكتب (فى الأدب الجاهلى) سنة ١٩٢٦ ، أكد مرة أخرى أن المنهج الجديد لاينكر الصلة بين الأدب والسياسة :

(إنما نريد ألا نسرف فى أمر هذه الصلة ، حتى تصبح السياسة مقياسا للأدب ، ونريد ألا نأخذ السياسة على علاتها كما نأخذ الأدب على علاته. وإنما الاحتياط محتوم فى هذا ، فقد يكون الرقى السياسى مصدر الرقى الأدبى وقد يكون الانحطاط السياسى مصدر الرقى الأدبى أيضاً ، والقرن الرابع الهجرى دليل واضح على أن الصلة بين الأدب والسياسة قد تكون عكسية فى كثير من الأحيان فيرقى الأدب على حساب السياسة المنحطة[٢] :

فأنت ترى أن الحياة السياسية لا تصلح مطلقا لأن تكون مقياسا للحياة الأدبية وإنما السياسة كغيرها من المؤثرات ، كالحياة ، كالعلم ، كالفلسفة تبعث النشاط فى الأدب حينا ، وتضطره إلى الخمول والجمود حينا آخر فلا ينبغى أن يتخذ واحد من هذه الأشياء مقياسا للحياة الأدبية ، كما لا ينبغى أن يتخذ الأدب نفسه مقياسا لواحد من هذه الأشياء، إنما ينبغى أن يدرس الأدب نفسه وفى نفسه ، من حيث هو ظاهرة مستقلة[٣] يمكن أن تؤخذ من حيث هى ، وتحدد لها عصورها الأدبية الخالصة[٤]) :

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء — ص ٤٠ — ٤١ .

(٢) توضيح هذا فى(تجديد ذكرى أبى العلاء)الفصل الخاص بعصره — ص ٣٨ وما بعدها.

(٣) يوهم لفظ (مستقلة) بعزلة الأدب عن الحياة على خلاف ما قال به ، ولعله يقصد ظاهرة مستقلة بالدراسة .

(٤) فى الأدب الجاهلى — دار المعارف — ص ٣٩ — ٤٠

(٢)

وإلى هنا نجد أن التاريخ الأدبى فى بلادنا وعى حقيقة هامة باحتكاك رو ادنا بالمذاهب الأدبية الأوربية ، وبخاصة ما قال به (تين — Taine) من أن (الفرد أثر من آثار الأمة التى نشأ فيها ، أو قل من آثار الجنس الذى نشأ منه : فيه أخلاقه وعاداته ، وملكاته ، ومميزاته المختلفة وهذه الأخلاق والعادات والملكات والمميزات أثر لهذين المؤثرين العظيمين الذين يخضع لهما كل شئ فى هذه الدنيا المكان وما يتصل به من حالة الإقليمية و الجغرافية وما إلى ذلك ، والزمان وما يستتبع من هذه الأحداث المختلفة ، سياسية كانت أو اقتصادية أو علمية أو دينية . . هذه الأحداث التى تخضع كل شئ للتطور والانتقال . . الكاتب أو الشاعر إذن أثر من آثار الجنس والبيئة والزمان ، فينبغى أن يلتمس من هذه المؤثرات ، وينبغى أن يكون الغرض الصحيح من درس الأدب والبحث عن تاريخه إنما هو تحقيق هذه المؤثرات التى أحدثت الكاتب أو الشاعر ، وأرغمته على أن يصدر ما كتب أو نظم من الآثار)[١] . .

ومع ما أغفل (تين) من المواهب والملكات — إذ البيئة الواحدة تخرج العبقرى والمجنون — إلا أنه كشف عن المؤثرات فى هذه المواهب ، ومن هذه المؤثرات تعرفنا على سير التاريخ الأدبى ، لكنه تعرف ارتبط بخطأ تقسيم العصور الأدبية على أساس من الأحداث السياسية ، التى هى مجرد ظواهر لتفاعلات اجتماعية واقتصادية ونزعات جنسية أو فردية ، ما كان يصح أن ينخدع فيها المؤرخ المتفهم للفن ، الذى كان مثله مثل من يسجل دلالات المؤشر ومقروء العقارب ، دون أن يعرف حالة الجهاز الذى تعمل بواسطته هذه المؤشرات والعقارب ، كما يقول الاستاذ الخولى . .

ولا ريب فى أن هذه الحقيقة كانت فى حاجة إلى من يعمقها ، وينميها ويطبقها ، ويعطيها صفتها الإقليمية ، وطابعها الخاص ، ويدعو لها ،

(١) فى الأدب الجاهلى — ص ٤٤

ويدافع عنها ، مفرقا ما بين البيئة العامة لأبناء الإقليم والبيئة الخاصة بكل أديب . كل ذلك على أساس علمى ، وتنظيم منهجى .

وكان الاستاذ الخولى صاحب هذا الدور .

فقد بين أن المدرسة الأدبية قد حملت أخيرا على الفكرة السياسية ، ورأت من الخطأ أن يقصر تدرج الأدب على تقلبات السياسة ، وكان يجب أن تنظر إلى أبعد من ذلك المرمى ، وأوسع من ذياك الأفق ، فنتحرر من الخطأ المكانى فى تاريخ الأدب ، كما تحررنا من شىء من الخطأ الزمانى بل لعل التحرر من الخطأ المكانى كان أولى وأهم ، لأن هذه الوحدة التى يدعونها للناطقين بالعربية ، وهذا الامتزاج التام بين أقطار مترامية البعد من الشرق النائى إلى الغرب الاقصى ، وبين أمزجه متباينة الخصائص ، من آرية وسامية وغيرها ، وبين ألوان مختلفة من بيضاء وصفراء وسمراء ، وبين حضارات متفاوتة من قديمة أزلية ، قد ذهب عرقها فى أغوار الدهر ، إلى حديثة غضة ، إلى ما بين هاتين ، على درجات متغايرة . هذا الامتزاج الغريب لا يسهل قبول ادعائه ، وهذا التوحيد الشاق على الزمن نفسه ، لم يكن لينعم بمجرد أن يحكم كل أولئك بدولة واحدة ، أو ببسط سيطرة سياسية ، أو نفوذ حكومى واحد[1] . فلم يكن الحكم الأموى وحدة ألفت هذا الشتات المنتشر ولا الحكم العباسى إكسيرا صنع من هذه المتفرقات البعيدة عنصرا ذهبيا واحدا ، حتى يقال فى تاريخ الفقة ، أو تاريخ الفلسفة ، أو تاريخ الفن ، هذا عصر أموى وذاك عباسى أول ، وعباسى ثان . . الخ .

وما يمكن لأى نشاط مختلف الأجواء والأحوال والأعراف والأصول والوقائع والأفكار أن يكون شيئا واحدا فى جميع أرجاء الدنيا ، يضمه جسم واحد فى مشارق الأرض ومغاربها ، وفى عقل الأسود والأحمر ، والأبيض والأصفر ، على حد سواء .

---

(١) مناهج تجديد — ص ٢٢٢

ومن ثم : فالبيئة المادية أضبط ما تضبط به ألوان النشاط الإنسانى، سواء أكان النشاط أثر هبة فطرية ، ووراثة متلقاة من السلف ، أم كان نتيجة كسب للبشر، إذ إن الوراثة مرهونة بالبيئة التى ينمو فيها الوارث المتلقى ، والعمل الكسبى محدود بطوق البيئة المادية ، قدر ما تهيء وتعين ، وتدفع ، وتساعد ، بل إن ما ينتقل إلى الناس بجوار أو فتح أو دعوة ، أو أى مؤثر خارجى ، إنما يصل إليهم وهو كذلك مرهون بقبل بيئتهم المادية له ، وصلاحيته للمعيشة فيها ، فهى التى تقبل منه ما تقبل وتنفى منه ما تنفى[1] »

ولذلك .. يجب أن يعدل مؤرخو الأدب عن توزيع دراسة الأدب العربى الإسلامى على عصور زمنية ، وأن يقدروا الأثر القوى لكل بيئة نما فيها أدب عربى ، وأن يتتبعوا هذا الأثر بالدرس المستقل »

وحين يدرس أصحاب الأدب فى مصر بيئتهم ، ويدرس أصحاب الأدب فى الشام وفى المغرب وفى العراق تلك البيئات ، مقدرين الخصائص الفطرية التى حبتها الطبيعة إياها . ومازتها بها عن سواها ، فتأثر بها قاطنوها ، وتأثرت جوانب حياتهم المعنوية بتلك المزايا ، ثم بغيرها، من جوار ، ونقله ، واتصال وأخذ ووراثة إلى آخر تلك المؤثرات على نواحى النشاط المعنوية للجماعة الإنسانية سيدرك هؤلاء الأدباء بهذا الدرس أن اللغة من حيث هى مادة القول قد أخذت من لغات الحديث لهجاته التى خالطتها ، وكان لها معها صراع يختلف فى كل موطن ومنزل عنه فى غيره من المواطن والمنازل، باختلاف القوى الحيوية التى تسير حياة هذه الجماعة ، إذ كانت معنوية البيئة المغربية غير البيئة العراقية والمصرية ..الخ

وسيرون أن العربية بذلك قد ماتت فيها كلمات أخرى ، وحييت إلى المتكلمين كلمات غير أولئك ، وأن العربية فى مصر قد تخلفت عنها بفعل الزمن ونواميس الحياة اللغوية لغة عامية خاصة .

---

(١) مالك بن أنس ص ٣٠١ – ٣٠٦ (بتصرف) .

وسيدرك هؤلاء الأدباء أن أصحاب العربية أنفسهم قد اختلفت قبائلهم وأنسابهم فيما نزلوه من تلك المنازل ، فكانت فى مصر قبائل ، وفى الشام قبائل فغلبت بهذه الكثرة والقلة لهجات من العربية دون لهجات ، ، وكلمات دون كلمات إذ تبعت أهلها وناطقيها طبعا ..

وسيدرك هؤلاء الأدباء حين يدرسون بيئتهم الخاصة أن أساليب بعينها قد تقبلها ذوق الإقليم دون أساليب ، وأن فنونا من القول الأدبى ، شعره ونثره قد راجت دون فنون أخرى من ذلك، حين تبع هذا — ولامراء مزاج ،أهل الإقليم ، وأصحاب البيئة ،سواء فى ذلك الأوائل الأصليون ،أو من سكنوا تلك البيئة من الوافدين ..

وسيدرك هؤلاء الأدباء حين يدرسون منطقتهم فى العصر الإسلامى نفسه أن نصيبها من النشاط الدينى والعقلى والأدبى فى الإسلام قد تفاوت — ولابد — عن نصيب غيرها من الولايات أو الأقاليم الإسلامية الأخرى ، إذ كانت تلك حاضرة دولة عصراما ، وتلك لم تكن ، وكانت هذه جارة قريبة لمستقر السلطان والحكم ، حين كانت تلك جارة بعيدة نائية .. وهكذا ..

ومن هنا يمكن أن تكون الموضوعات الإنسانية والمعانى الأدبية العامة التى عرفها الأدب العربى فى تلك المنازل المتعددة موضع الدراسة المتعاونة بين أصحاب البيئات العربية الإسلامية المختلفة ، يبينها كل منهم ، ويتحدث بها من عرفها إلى غيره من بنى عمومته ، فيفهم عنه ، ويستفيد بدروسهم :

وستكون الفنون العربية الخاصة التى امتاز بها الذوق العربى الشرقى ، وآثرها الوجدان العربى ، ونمتها الطبيعة الشرقية ، وحمتها اصول الحضارة الشرقية ، وامتاز بهذا كله الشرق العربى عن غيره من الغرب أو الشرق غير العربى ، ستكون مثل هذه الفنون وموضوعاتها مادة درس يتعاون فيها الأدباء وأصحاب هذه اللغة على اختلاف دورهم ، ويتناقلون بينهم نتائجه وثمراته.

وسيكون أعلام الأدب الذين اتصلوا بأكثر من بيئة ، وتجاوبوا مع أكثر من إقليم موضوع درس بين أصحاب هذه البيئات ، يستكملون بتوزيعه

فهم هؤلاء الرجال وتحليل فنهم ، أولى من أن يتحدثوا عنهم حديثا معادا مكررا ، يعيد فيه آخرهم ما أبداه الأول ، أو ردده قبله غير واحد[1] .

وهناك عامل مشترك بين الدراسات الإقليمية العربية ، وهو (الجزيرة) من حيث هي بيئة مادية لهذه العربية ، قد تأثرت بها كما تأثر بها كل كائن عاش فيها . تكون هذه الجزيرة موضوع الدرس المادى المختلف ، من طبيعة الأرض والمناخ وماتقلبت به العهود المختلفة ، وأدوار التاريخ المتتابعة . فتدرس جغرافيا وجيولوجيا وجويا ، وما إلى ذلك ،من دراسة علمية حديثة للأقاليم .

وكذلك يكون الشعب العربى الذى استقر بها منذ الدهر الأول موضوعا مشتركا . فيجب أن يدرس تلك الدراسة العلمية الدقيقة للشعوب ، من حيث خصائصه ومزاياه ،وصلاته وقراباته ، وماضيه السحيق ،في عصور الحياة الغابرة .. الخ .

ثم كذلك الأمر فى البيئة المعنوية لهذه الجزيرة من جوانبها المختلفة ، فى نظام الحياة بها ، فى الفرد ، والأسرة ، والجماعة ، قبيلة أو شعبا ، أو أوسع من ذلك .. فى الناحية النظامية للحكم وما إليه .. والاعتقادية فى الدين ومايتصل به . والفنية فى ألوانها المختلفة ، من غير الفن القولى ، أو القولى.. والعملية فى أوضاعها المتعددة . من اقتصادية وماإليها .. ثم تدرس نواحى هذه البيئة المعنوية كافة ، كما يدرس الشعب والبيئة المادية التى حل فيها ..

ثم تدرس اللغة العربية فى هذه الجزيرة ، على تباعد الأيام ،وتطاول الأعصر واختلاف الدولات ، كما يدرس فنها الكلامى ، تدرس أصولها وقوانينها ولهجاتها وعلاقاتها بغيرها ، وعلومها الغوية المختلفة ، على أن يتخذ لذلك كله من الأهمية كل ماتسلح به إنسان اليوم الناهض الطامح ، فلا تقف تلك الدراسات المادية الطبيعية والجنسية البشرية أو اللغوية الأدبية عند

(١) فى الأدب المصرى — ص ١٢٦ — ١٢٩

المقررات المتداولة والمسلمات المتناقلة، ولاتكتفي بالخبر المنقول ، والحديث المردد . وإنما تتخذ الأهمية لذلك من الحفر والتنقيب والبحث والتحليل والجمع والتنضيد ، وتجرد لذلك كله البعوث .والجماعات والهيئات ، وتزود بكل مايلزم لذلك من عدة وعناء في غير ضنانة ، ولاتقتير ، ولا استعظام ، ولااستكثار) .

(وإذا كان ذلك الدرس المبتغي للجزيرة ، ومن فيها ومافيها ، موضوعا مشتركا بين الأمم التي عرفت العروبة ، بما دخل على وجودها منها ، فسيكون تعاونها على هذا الدرس عاملا مهيئا لنجاحه .مقويا للأمل المبتغي منه).

(ثم إذا مااشتركت مصر في هذه الدراسة العامة مع بنات تلك الأم الأولى فانها تعود بعد ذلك لتدرس من هذه الجزيرة نواحي صلتها الخاصة بها . في أساطير مشتركة، وعقائد مشتركة ، ومنافع مشتركة ،ومعارف مشتركة ، وغير ذلك من الشركة ، مما يجعل مصر تشعر يوم تصحح أسلوب دراستها أن لها بالبحر الأحمر وحضارته صلة كتلك التي تعرفها لنفسها بالبحر الأبيض[١]) .

(ولن تنال كلمة مؤرخة في وصف الحياة الأدبية لمصر الإسلامية، على نحو مانرجوه من الدرس الصادق لتاريخ الأدب إلا أن نكون قد ظفرنا بالجهد المفرد، للمصريين أنفسهم، وبذوق المصريين ذاتهم، وبجدهم ويقظتهم هم لذواتهم في ماضي حياتهم ، وفنونهم، وأدبهم ، بحيث تكون في يد كل مزاول لهذا الأدب المصري الإسلامي أكبر وأكمل مجموعة من المنشآت الأدبية للعصور المصرية السابقة كلها يحيا فيها حينا إلى جانب حياته في مصر الحديثة، فيرهف بذلك حسه ، ويدق تذوقه لهذا الأدب ، ويظفر بمفاتيح أغلاقه ، ومصابيح سراديبه من ماض بعيد قد تأثر به ولاشك حاضرنا القريب[٢]) .

---

(١) في الأدب المصري — ص ١١٩ — ١٢٣

(٢) المصدر السابق — ص ١١٤

ولاتتوفر هذه المجموعة الأدبية المصرية الإسلامية إلا (بتحقيق النص الأدبي تحقيقا علميا ناقدا ، ثم الإلمام التام بما حول المتن الأدبي من اعتبارات عملية ومعنوية ، مادية ونفسية ، فردية واجتماعية ، كالحوادث الملابسة ، والبيئة المؤثرة ، فى صورتها المادية بأوسع ماتدل عليه البيئة ، ثم فهم هذا النص بهداية تلك الأضواء الحافة به ، ومع الاعتماد على وسائط هذا الفهم من علوم العربية وفنونها الأدبية، التى لابد منها لإدراك النص الأدبي فى لغة من اللغات .:. وبذلك يتم درس الأدب فى معناه الصحيح) .

(ثم إذا مااكتمل ذلك فيما خلف من آثار ، وفيمن عرف من أشخاص أمكن التصدى بعد ذلك كله ، وعلى هيئة من الأمر ، وفى هدوء فاحص لجوانب الحياة الأخرى ، ومادون من تاريخها ، وماسجل من وصفها ، لتتبع الوشائج التى تصلها بالجانب الأدبي للحياة ، وتكشف عن تبادل التفاعل معها .. أعنى أنا كما فهمنا أثر ظواهر الحياة المختلفة على الأديب والأدب نطلع ماستطعنا على تاريخ الكل بهذه الظواهر) .

(وإذا ماتيسر لنا ذلك كله استطاع مؤرخ الآداب أن يلمح على مصور الحياة مناطق متميزة ، وفوارق واضحة ، أعتقد أنه باستبانتها قادر على تاريخ الحياة الأدبية ووصف أدوارها .. ثم هو قادر فى وصف هذه الأدوار على بيان مسالك الحياة الأدبية فيها ، وكيف سارت فأسرعت أو أبطأت أو توقفت ، واعتدلت أو انحرفت أو تذبذبت ، وارتفعت أو انحطت ، أو جمدت ، وأشباه هذه النتائج التى تستطيع الأمة بالنظر إليها أن تعرف هدفها من طريق التدرج ، وسبيل التطور فى الفن ، وأن تدرك أين يقع حاضرها من ماضيها ، وأى مستقبل فى وراء هذا كله، ينتظرها ، كما تستطيع الأمة أن تظفر بمثل ذلك فى حياتها الاقتصادية ، إذا ماأرختها أو حياتها السياسية ، إذا تتبعتها، أو غير هاتين من جوانب الحياة حين تدرسه[1]) .

---

(١) فى الأدب المصرى — ص ٩٥ — ١٠١

ولتيسير هذه الدراسة المتكاملة دعا الأستاذ الخولى إلى أن تسير الدراسة الأدبية العالية المتخصصة عندنا مع حاج الحياة ، وعلى تدرجها ، فتختلف الدراسة من جيل عن جيل ، كما كان ذلك مسايرا للحياة الأدبية فى الأمة العربية منذ عرف تاريخها فى التحضر .. أعنى أنه كان يكون لدينا (جيل أو أجيال يدرسون تحقيق النصوص، وتصحيح المتون ، ويلمون بأصول ذلك وقواعده ، ويكون هذا عماد دراستهم التاريخية الأدبية ، إلى جانب ما يأخذون به من دراسة المتون الأدبية حفظا وشرحا وتذوقا . ثم إذا ما اكتمل لنا ذلك ، كان لنا بعدهم [1] جيل أو أكثر يدرس رجال هذا الأدب ، أو وجوههم البارزين واحدا واحدا ، يلمون بأدبه ، ويدونون خصائصه بعد أن يكون قد أحصى وحقق وشرح .. ثم يكون لنا جيل أو أكثر يدرسون عوامل التأثير فى الحياة الأدبية عاملا عاملا ، يتتبعون ذلك جمعا وضبطا، ثم فحصا وتحقيقا .. ثم يكون لنا أخيرا وبعد ذلك كله من يستطيع الكلام فى العصور جملة ، وبأحكام عامة ، إذ يجد مواد هذه العصور الجزئية مجموعة، ثم محققة وممحصة، ثم مدروسة ومقدرة ، كما يجد حوالها المؤثرات فى الحياة الأدبية مجموعة ، ثم مدروسة ، ثم مؤرخة)[2].

وبحسب طلاب الثانوية (أن يقصروا على الدراسة الصحيحة للمادة الأدبية يتأثلونها ، ويتذوقونها، فيصيبون منها معونة على استعمال اللغة فى الحياة والوفاء بأغراض الحياة من فنون القول)[3] :

(٣)

قواعد هذه الدراسة :

مما سبق يتبين أن الاستاذ الخولى نظم الدراسة الأدبية على أساس:

١ — الإقليمية كعمل تنظيمى وأسلوب علمى : :

---

(١) ليس المقصود البعد الزمانى بل ترتيب مرحلة دراسية على أخرى.

(٢) فى الأدب المصرى — ص ٨٩ .

(٣) المصدر السابق — ص ٨٨

٢ — تحقيق النصوص مادة الدراسة الأدبية . .

٣ — دراسة ما حول النص من إعتبارات علمية ومعنوية ومادية ونفسية . . الخ والاهتمام بالبيئة بأوسع ما تدل عليه . .

٤ — تفسير النص على أساس الاعتبارات السابقة . .

٥ — دراسة الأعلام الأدبية من جوانبها المختلفة ، وعلى ضوء مالها من آثار . .

٦ — تاريخ الحياة الأدبية ووصف أدوارها ، وبيان مشالكها . .

(ا)

وقد تبين مما سبق جهد الأستاذ الخولى فى إرساء قواعد الدراسة الأدبية على أساس من الواقع يحياه ، وينبض وجوده بكل لحن من ألحانه . .

فالبيئة مادية ومعنوية صانعة الفرد والمجتمع ، لأن كل من فيها يتنفس بانفاسها ، ويعتاد عاداتها ، ويعتقد معتقداتها . . وتنطبع فى وجدانه أرضها وسماؤها ، وخيرها وشرها ، وعرفها ونكرها . . فاذا عبر عما يختلج فى وجدانه كان تعبيره صورة مما يختلج فى وجود هذه البيئة ، من أمانى وأحلام ، ومشكلات وآلام ، وخصوبة وجدب ، وكفاح وضياع ، وعظمة و فسولة ، وعزوذل ، وإيمان وكفر ، وعمق وضحالة ، ورقة وجزالة ، ورصانة وابتذال ، وفخامة ورطانة . . الخ .

ولما كانت البيئات مختلفة الخصائص والسمات وجب أن ينهض كل قبيل ببيئتهم ، لأنهم الأجدرون على أن يستنطقوها ، يستخرجوا مكنونها وحيواماتها ، ويجمعوا تراثها ، ويدرسوا أطوارها . . . ويشهدوا جديدها ، ويعرفوا رجالها . . الخ . .

ثم يضمون ثمرة جهودهم إلى ثمار جهود الآخرين ، فتسهل المقارنة والموازنة ، وتبين وجوه الاختلاف والاشتراك ، وتجد ميادين للدراسات

المشتركة ، من قوانين عامة ومذاهب سائدة ، ونواميس تعمل عليها فى كل مكان وزمان : .

ينهض بكل ذلك أجيال وأجيال ، ترسم لهم حدود وتخصصات ، حتى لا تتكرر الجهود من أجل غاية واحدة . .

بهذا المنطق الواقعى العملى الواضح ، خاطب الأستاذ الخولى عقولنا وقلوبنا ، حدد معالم الطريق ، حتى لا تختلط الخطا ، وتشتبك السبل ، وتضيع الجهود . .

وقدم لنا منهجا مكتملا ناضجا (فى الأدب المصرى) ليكون دليل العاملين ، فى الأقاليم المختلفة ، وليقيم الحجة على من تأخذهم الدعاوى السياسية ، فيريدون فرضها على جميع المستويات الفكرية .

والحديث فى الأدب المصرى ليس دعوة الأستاذ الخولى وحده ، وليس هو أسبق الداعين ، ولكنه هو الذى جعل هذه الدعوة منهجا ذا قواعد والتزامات واحتج لها بكل ما أوتى من قوة الدليل والبرهان ، حتى أصبحت قضية العلم التجريبى ، التى يقررها واثقا ، حينما يتحدث عن علاقة الكائن ببيئته ، وأثر تلك البيئة بنوعيها ، من طبيعية واجتماعية ، فى الحى الذى يعيش فيها ، ويختص بها . .

يقررها هذا العلم التجريبى واثقا ، حينما يرصد الفوارق الفاصلة بين البيئات ويدرك أن مصر تميزت من ذلك بميزات واضحة الفصل ، قوية التأثير فى التحديد والتميز ، من بحار وصحارى ، وبمقومات خاصة ، جعلت هذه البلاد وحدة مادية ، وبارزة المعالم ، جلية الخصائص ، ماثلة الفوارق [1] .

* * *

وعلى أساس هذا الفهم فسر الأستاذ الخولى عدم معرفة الأدب العربى للمسرح على حين علل الباحثون ذلك بعدم الاستقرار فى الحياة العربية

---

(١) فى الأدب المصرى — ص ١٧

ومخالفة المعتقد الاسلامى للوثنيات اليونانية ، وتصون المرأة وحجبها فى المجتمع الإسلامى ، والطبقية الاجتماعية ، والوضع السياسى الذى يتيسر مع التجمع والتجمهر ، وأغفلوا واقعا أدبيا ، مع أنه كان (الواقع المباشر الذى يفسر مسألة المسرح فى هذا المجتمع ، وأدبه الرسمى الفصيح :

وذلك الواقع هو مثنوية اللغة ، التى اضطر هذا الشعب إلى مواجهتها لأسباب لغوية واجتماعية فى تكوينه الذى تم فى ظل الحكم الإسلامى وتوسعه وجمعه شعوبا مختلفة الألوان والألسن . :

وبحكم الواقع بدا هذا المجتمع منذ العقود الأولى من سنين التاريخ الإسلامى ، يعيش وينشط ، ويتفنن بلغته التى نسميها اللغة العامة ، وهو فى الوقت نفسه يحكم ويتدين ، ويمارس ما يتصل بهذا ، بلغته الرسمية ، أو اللغة الفصيحة ، لغة القرآن ، كتاب الإسلام . :

وإذا كان هذا هو أصل التقسيم فقد ذهبت اللغة العامة بمطالب النشاط الوجدانى لحياة هذا المجتمع وأهله ، فغنى بها الناس فى أفراحهم ، وعددوا مفاخر موتاهم تأبينا فى حزنهم ، وأنشدوا أناشيدهم فى مناسباتها ، من زرع ، أو حصاد ، أو ما أشبه : : بل أن المواسم الدينية التى يتحتم فيها العموم والتجمع ، كالحج وموسمه ، قد غنوها بلغتهم العامة المتطور فكانت للحج أغانية الشعبية بنغمها الخاص بها : :

ومن هذه الحاجة الفنية تلك التجمعات التى تفلت قهرا من رقابة الحكام التى نظمت صلاة الجمعة بجماعتها ومساجدها ، فتكون هذه الأفراح بسوامرها ، أو رمضان بخيال ظله ، أو القصاص فى مشارب القهوة بربابته ، أو «تقاليع رابية» ، ومثلها فى الأفراح ، او الأراجوز المتجول : : كل هذه ظواهر التشخيص ، وعمل المسرح تؤديها لغة الحياة ، ويتهيأ فيها الاجتماع الذى تتطلبه ، والساحات الشعبية ، والمقاهى الغامة ، والشوارع السلطانية ، وكل أولئك يفلت من الرقابة قهرا)[1] :

---

(١) لماذا لم يعرف الأدب العربى المسرح ؟ — المجلة — مارس سنة ١٩٦٦

(ب)

وإذا كانت الدراسة الأدبية بعامة لا تنهض إلا على ما خلف الأدباء والشعراء من تراث فى الدرجة الأولى — فان الاستاذ الخولى اهتم بالنصوص الأدبية غاية الاهتمام ، وبين خطورة التهاون فى تحقيق النصوص من تبديل كلمة بكلمة[1] مما ترتب عليه جمود الدراسة اللغوية ، وفرض قيود تأباها طبيعة اللغة وقدرتها على التطور : :

ومن ثم . : بين أن التحقيق توثيق ، وشهادة على مؤلف المخطوط وثقافته ، بما يجعله مادة فى تاريخ المؤلف وعصره ، ومرجعا فى تاريخ الفن أو العلم : : و . : ألخ، مما لا يكون للمخطوط فيه قيمته إلا بعمل توثيقى يحفظ عليه صلاحيته للشهادة فى ذلك كله . .

ولا يوقى من خطر الزيف (إلا الفحص العلمى للورق وطبيعته وعصر صناعته ، والمداد ونوعه ومادته ، والجلد ومادته وعصر صناعته وزخرفته . : ألخ ، من الفحص الخارجى لمادة المخطوط فحصا لا يعتمد فيه إلا على العلوم الكيمياوية والطبيعية بخاص معناها اليوم ، كما يستفاد فيه مع ذلك بالدراسة التاريخية الفنية الدقيقة) : :

و (الفحص الداخلى يتم هذه الطمأنينة على سلامة أو صاف المخطوط ومحتوياته ، عن طريق مراجعته لمعرفة ما فى عبارات المخطوط نفسه من دليل على تاريخ وضعه ، وزمن تأليفه ، أو عصر كتابته ، وما إلى ذلك من أوصاف لعل عبارة صغيرة فى صلبه ، أو إشارة عارضة ، أو تهميشة ، أو توقيعة أو تمليكة ، تعطى عنه كلمة نافعة) . :

(وبدون إتمام هذا الفحص الداخلى بمراجعة أولى لا يحق لمحقق وصف نسخة وصفا صادقا ، والمضى للاشتغال عليها)

---

(١) راجع الكتاب بلا مؤلف — المجلة — يناير سنة ١٩٦٢ م

. (وبكل أولئك يبدو أنه لا يمكن الاعتماد فى تقويم مخطوطة على وصفها فى الفهارس إن كانت مفهرسة ، حتى لو كانت الفهرسة مفصلة كاملة دون إتمام الفحصين المذكورين ، الخارجى والداخلى . . وليكن ذلك من الصعوبة بمكان فإنه ضريبة الحق وواجب احترام الحقيقة) . .

. . (وليست الاستفادة بالنسخ قاصرة[٢] على الأصلية منها ، بل غيرها قد يخدم أصالتها ، ويهدى إلى تحريرها ، وإذا ما كان المحقق — كما دلت التجربة ، وأوجب المنهج — لابد له من أن يرجع إلى مختصر المخطوطة إن وجد ، كما يحتاج إلى أن يرجع لما هو شرح للمخطوط ، أورد عليه بكمال دقته ، وأن يرجع إلى الذين انتفعوا بهذا المخطوط ، أو أشاروا إليه ، أو ترجموه ، أو ترجموا منه . . الخ — فكيف لا تكون تحت بصره أى قطعة تعد — بحق أو بباطل — من المخطوط نفسه ؟)[٢] . .

وبعد أن ينتهى الدارس من أصالة النصوص التى بين يديه ، ومن صحتها ، (وهو متأثر بجديد ما يظهر من وسائل الدقة والتحرى والفحص العقلى والعملى لمرويات التاريخ ومواده ، وجميع المعارف البشرية النظرية العقلى والعملى لمرويات التاريخ ومواده، وجميع المعارف البشرية النظرية والعملية) ، ومن جمعها (جمعا متقصيا تاما ، لا يقف عند حد) — تكون (خطووة التفسير النفسى والاجتماعى) متأثرا (أقوى التأثر بكل ما تعرف الإنسانية كل يوم من حال هذه الدنيا المادى والعقلى) . .

وتجب مراعاة :

١ — أن الاستقصاء التام ، لا يقف عند حد ولا ينتهى بزمن . بل لا تزال هناك الفرص المواتية للعثور على روايات تاريخية ، ووثائق وشواهد سواء فى قديم التاريخ الذى لم نقم بالبحث الواجب عنه ، أم فى حديث التاريخ الذى لم تجمع له وثائق عندنا على وجه يعفى من المسئولية .

---

(١) لعل الصواب (مقصورة)
(٢) تقويم (قواعد تحقيق النصوص) — الأدب — مايو سنة ١٩٥٧

فبذلك يظل الباب مفتوحا على مصراعيه ، لتدخل منه إلى ميدان البحث مواد جديدة من أخبار التاريخ ومصادره : :

٢ — أن التفسير النفسى والاجتماعى لا يقف كذلك عند حد ولا ينتهى بزمن ، فلا تدرى نفس ماذا يكون غدا من علم الإنسان بنفسه ، كلما زاد توغله فى أنحاء الكون فجاز الفضاء ، وأمن طريقه فيه ، وعبر إلى الكواكب ، وعاش بها ، و . . و . : مما لا يقف عند غاية ، وقبل هذا البعيد قريب من الدرس النفسى والاجتماعى الدقيق ، نوعا ما ، لرجال تاريخنا المعروفين ، ولمجتمعات أسلافنا ، وما كان يضبط سيرا من سنة الحياة ، فاذا ما أضيف إلى القديم — وهو كالمجهول تماما لدينا — جديد من خبر هؤلاء الأفراد أو الجماعات فقد تهيأت أسس التفسير للتطوير والتحول المستمر الدائم[1]

(ج)

فاذا كنا بصدد صاحب النص ، وجب على الدارس أن يلتزم أولا بالآداب الآتية :

١ . لا يبحث عن شيء يريده أو يفضله ، ولكنه يبحث عن شيء يصدقه ويصححه . .

٢ — يبتغى الحقيقة كما تكون ، وكما ينتهى إليها ، وكما تجيء ، لا كما يريدها أو يتمناها ، أو يتعصب لها . .

٣ — عدم سبق الدراسة بالنتيجة ، والتقدم بالنهاية على البداءة[2] .

٤ — ليس من التاريخ ولا من العلم أن نتناول الترجمة دفاعا عن المترجم له ، وردا لهجوم الهاجمين عليه ، ولا تقديرا لعظمته التى هى كذا وكيت فى الدنيا ، ولدى الانسانية . . : فالكل ليسوا

(١) مالك — تجارب حياة — ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢) فى الأدب المصرى — ص ٤٠ — ٧٢ وما بعدها .

إلا بشرا والكل يفهم ثم يحكم عليه ، ولا شيء في الدنيا من عقيدة أو تلقين أو حجة تحل الحكم أولا ، ثم الفهم ثانيا ، في كتابة الترجمة التاريخية الآخذة بأسباب العلم[1] .

٥ — من الموضوعية العلمية أن يتميز إدراك المترجم له بعصره وبيئته وذوقه وعاداته عن شخصية كاتب الترجمة وحال قومه ومنطق عصره واتجاه رغباته ، فلا يحكم على شيء من حال المترجم مقيسا بميله ، ولا معتبرا بمثله ، ولا يسقط من نفسه على مشخصات المترجم ما يريده ما يعجب الكاتب ، ولا يقومه بما يرضيه هو[2] .

٦ — الانتفاع الدائم المتجدد بما عرف ويعرف في دوائر الدرس النفسي المجرب الدقيق لقوى الإنسان وملكاته ومشاعره ، وغرائزه ، حتى يمكن فهم الكيان النفسي للمترجم له ، وتبين سمات شخصيته . وإدراك العوامل المؤثرة في حياته وتقدير شخصيته العامة على أساس من الواقع الحسي والنفسي له دون إسراف في الفروض ، ولا ذهاب في الاعتبارات الادعائية إلى حد بعيد[3] .

٧ — وصل الأديب بأدبه ، بحيث نفهم الأدب بشخصية صاحبه ، كما نفهم شخصية الأديب بآثاره الفنية . .

٨ — وجوب نظرنا إلى الأديب جملة ، على أن له وحدة متماسكة يلتم بعضه بعضا ، ويتهيأ لنا بتكامله فهم بعضه ببعض[4] .

ثم . . يأخذ الدارس نفسه بالخطوات الآتية :

١ — جمع مواد الموضوع جمعا مستقصيا ، وقراءة كل ماقد رأت الشمس من آثار المترجم له نثرا أو نظما ، كاملا ، أو منقوصا ، وجمع

---

(١) مالك . تجارب حياة — ص ١٥

(٢) المصدر السابق — ص ١٨

(٣) رأى في أبي العلاء — ص ١٤ — ١٦

(٤) مناهج تجديد — ص ٣٣٥ .

أخبار المترجم له ، جدية كانت أو هزلية ، خلقية كانت أو انحرافية . فردية كانت أو جماعية ، يسيرة أقرب اليسر ، أو خطيرة أبعد الخطر ، بطولية كانت أو انهزامية ، لحظية كانت أو دائمة . . وعد فى صنوف هذه الأخبار كل ماتستطيع أن تعد ، لأنها خطوط — لا محالة — فى الصورة ، وأضواء تلتقط عليها الصورة الدقيقة المعبرة[1] . :

على أن يلاحظ أن (مايبقى ويؤثر عن المترجم هو بلاشك له أعظم مصادر الترجمة ، وأصدق مراجع التاريخ ، لأنه شواهد مادية على الحقائق ، ورواية عملية للأخبار ، والرجوع إلى مثل هذه البقايا الشاخصة المادية هو الأساس الثابت ، والأصل السليم ، لا تهزه تلك الخلافات الخبرية ، المرهقة للدارس المخزية للحقيقة ، فى أقاويل الناقلين وخلافات المخبرين ، ولكن لا سبيل إلى مثل هذه البقايا فى التاريخ العام أو الخاص إلا لما قرب عهده ، أو تهيأ له فى بعض القديم صون وسلامة) . . [2]

و(آثار العالم بين مصادر ترجمته لاتكون فى جملتها إلا مظهرا لمنهج التفكير وقوة التعقل ووسيلة لتقدير ذلك دون أن تكون تلك الآثار فى عامة أمرها مادة لوصف نفس العالم ، وسبيلا إلى تصوير وجوده الروحى المعنوى العاطفى ، ومايتصل بتلك الجوانب ، كما أنها لن تكون شواهد على خلقية له ، أو دوال على شىء من طريقته فى مزاولة الحياة ، وممارسة العيش إلا بما تحمل من آثار خفيفة للبيئة العملية فى أمثلتها ، أو موادها ، أو نوعها وهى أمور يسيرة) على حين (تكون آثار المترجمين من الفنيين بين مصادر ترجمتهم هى المواد الهامة الضرورية ، بل قل إن شئت هى المادة الوحيدة الصادقة الدقيقة الدلالة فى درس نفوسهم ، وتصويرها والتحدث عنها ، والتعرف بها .. ينتهى الأمر بقوة تلك الصلة إلى ماهو أكثر تداخلا وتواصلا ، بين نفس المتفنن ونتاجه الفنى ، فتكون آثاره مادة فهم نفسه كما أن نفسه

---

(١) هذا العدد منهج — الأدب — يناير سنة ١٩٦٣

(٢) مالك بن أنس ص ٤٤١

وسيلة فهم فنه ، بل الوسيلة الصحيحة لهذا القوم الفنى) .. (وإن آثار الفيلسوف أقوى دلالة عقلية عليه ، وإن كانت لها دلالتها النفسية ، فكأنها بذلك يمكن أن تأخذ من العلم والفن بطرف ، فتدل دلالة عقلية ونفسية معاً ؛ على اختلاف النسبة فيهما ، باختلاف شخصية المتفلسف ، والطابع الغالب في فلسفته) [1] ..

٢ — فحص ناقد لهذا الجمع الحاشد — من آثار وأخبار المترجم له — ينقيه من أوهام المفتونين ، وأحقاد الكارهين ، وأكاذيب الملفقين ، ولاسيما فى حياة هؤلاء العصريين ، التى تصطخب فيها الأهواء ، وتتجسم آفات المعاصرة ، وما أحوج هذا النقد إلى خبرة بالكون والناس ، تعادلها جرأة لاتعرف حياء فى علم ، ولامحاباة فى حق ، ولامجاملة لحى ولاميت . فلا تند عن تلك الخبرة لفتة إلى المؤثرات والمستويات والدوافع والخوالج والبواعث والمقاصد . .

ولاتحجم تلك الشجاعة عن تتبع خطأ ، أو آفة ، أو عادة سيئة أو سلوك منحرف ، أو زلة كانت مرة . إذ أن لذلك كله دلالة ومكانة فى كيان الشخصية على اختلاف نواحيها ..

٣ — تفسير نفسى واجتماعى دقيق — لآثار وأخبار المترجم له — يستشف التيارات الخفية ، والنوايا الباطنية ، يقدم عليها المفسر لأحداث حياة المترجم إقدام عشيرة المختلى به ، المتفرغ له ، فيرى من خفى أمره ما ربما لاينتبه هو نفسه له ، ولايشعر به الشعور الواعى ، ويجمع المتفرق المتكامل على بعد الزمن والمناسبة[2] .. مستعينا فى ذلك بالأناة الرزينة قدر اعتماده على الدقة الخبيرة بأهواء النفس ، ومسارب المشاعر ، وخفايا المقاصد ، وغامض البواعث[3] حتى يستطيع أن يضع تحت عين القارىء

---

(١) مالك بن أنس ص ٤٤٥/٤٤٨

(٢) هذا العدد منهج . الأدب يناير سنة ١٩٦٣

(٣) مالك بن أنس — ص ٣٤١

« ظواهر لتيارات خفية تصطخب بها الحياة ، تحت هدوء الروايات المتبقية وراء العرض الساذج للتاريخ »[1] وأن يضع نفسه موضع رجل من معاصرى المترجم له وأهل جيله ، (يفكر بعقله ، ويمتد بصره إلى مثل أفقه)[2] ويشعر بما تأثر به من معان واعتبارات مختلفة ، لأنه لايستطيع أن يعرف مفتاح شخصيته إلا بعد أن يعاشرها ، ويحيط بعاداتها وأساليبها وميولها ، وليس إلى ذلك سبيل مافيمن غبر ومضى إلا عن طريق التاريخ والخبر ، ولاتكون عشرة ولامعرفة يحل لصاحبها أن يفتح الشخصية ويقتحم الطوية إلا بعد إحاطة أوسع وأعمق من إحاطة العشير الحى بتصرفات عشيره يغدو أمامه ويروح ، فتغنى الرؤية والخبرة والفطنة فى إدراك تصرفاته ، وتبين أغراضه ، عن الكثير المكرر منها ، لأن بعضها يدل على بعض ، وكذلك الذاهبون الذين لاسبيل فيهم إلى رؤية ولافرصة لخبرة ، ولامجال لفطنة ، إذ تأتينا أفعالهم أخبارا بعيدة الدلالة عسيرة الإبانة ، ولامجال للاستغناء ببعضها عن بعض[3].

٤ — بالنسبة لأسلوب العرض الأدبى المتحرر من جفاف الأداء المنطقى المسامت لآفاق العرض فى القضية التاريخية ، للكاتب أن يكمل الحادث التاريخى بما يستلهم من نفسية صاحب الحادث ، وجو الحادثة ، وروح البيئة ومألوف النفس الإنسانية ، وسنة الاجتماع البشرى ، ولايكون ذلك إلا بعد تمثل تام للبيئة ، والمعيشة مع اشخاص الحادث ، والتمرس بتجارب نفسية مما عانى أصحابها ، والبصربنظام المجتمع الإنسانى الذى ينتظمهم

وفى كل أولئك فرص للتحليل الذى يسعف على تعليل الحوادث والانطلاق إلى نتائجها وأهدافها[4].

---

(١) مالك بن أنس — ص ٣٧٢

(٢) المصدر السابق — ص ٣٩٨ .

(٣) مالك تجارب حياة — ص ١٢

(٤) من مقدمة الاستاذ الخولى لكتاب (سكينة بنت الحسين) الدكتورة بنت الشاطىء

هذه هى الخطوط الرئيسية التى قدمها الأستاذ الخولى بين يدى المترجم وحذر أشد التحذير من المعاصرة — كما سبق — لأن بين المعاصرين — كما يقول الأقدمون — تغايرا (كتغاير التبوس فى الزريبة) ، (وهذا أقرب الأسباب لتأخير درس المعاصرين إلى مابعد تبدد الضجيج الصاخب لحياة العصرى فى قومه ، وما تثيره شخصيته من افتتان به ، والخداع فيه ، أو مجاملة له ، أو حقد عليه ، أو منافسة فى ميدانه ، أو صلات خاصة توجب مجاملته ، أو مجاملة من يحملون اسمه ، أو من يتعصبون له بوجهما ، وأبرز مايتجسم ذلك حين يكون مانراه حولنا ، من فتور النقد ، وغلبة الضعف على الجهر بالحق والنهوض بما لاتتصل به فائدة خاصة ، ومنفعة مباشرة ، وبين يدينا موفور الأمثلة على مايتحيف الحقائق من أهواء ، وأوهام ، تجسم فتنة المعاصرة التى اتقاها السابقون واللاحقون وهى بحيث تؤكد ماترسمه المناهج المحررة ، من تأخير درس العصريين ، وتحديد ذلك بعمر جيل أو أكثر :

ولكن هذا التأخير إن حرّر الدرس حقا ، فانه ليعرضه كذلك لخسارة حقه ، هى ضياع بعض مواد الدراسة ، على تمادى الزمن ، بل ضياع معالم الفهم للموجود من تلك المواد ، بذهاب ملابساتها ، وتغير ظروفها ، بتطور الحياة السريع ، وبصمت ألسنة كانت تقول فيها قول الشاهد المشارك ، وتسجل مارأت العين ، وسمعت الآذان من شفهى الكلام ، وأضواء الأحداث ، التى تبدد ما تنشر الأهواء حول تفسير الوقائع وتعليلها ، حتى ليبقى بدونها الحدث هيكلا عظميا أشوه ، تذهب الظنون فى تفسيره مع كل احتمال ..وإنها لخسارة بالغة أن تذهب مواد الدرس ، وتضيع شواهد الموجود من مواده ويستعجم تفسيرها ويصير إلى ظن مظنون ، لايعرف مبلغه من دقة وصواب[1]

وزاد الأستاذ الخولى فبين (الجوانب التى ينظر منها إلى عمل كاتب يكتب ترجمة لأحد رجال التاريخ ، فيقدم عملا فنيا فى نهايته ، من حيث

(١) هذا العدد منهج — الادب — يناير سنة ١٩٦٣ .

الإخراج والتقويم علميا وعمليا ، فى بدايته ، من حيث الإعداد له ، والاستيفاء لمواده ، ومايلزمها من نشاط وطاقة وتهيؤ نفسى) :

هذه الجوانب هى :

(١) من أى أنواع التراجم هو؟ أترجمته تاريخية أم فنية ؟ وأياما كان فهو رسم صورة للمترجم له ، ينظر إليها من جوانب منها :

(٢) مامدى وضوح الصورة ، وجلاء ملامحها ؟ وماذا فيها من اهتزاز أو نقص خطوط أو ألوان ، وفى كل حال لايسأل فى الصورة التاريخية والفنية على السواء :

(٣) مامقداروضوح رؤية الصورة باستيفائه عوامل ونواحى هذه الرؤية للشخص المصور عن طريق استيفاء جميع أخباره باستقصاء ، ونقدها نقدا شكليا وموضوعيا ؟ ولعل هذا السؤال ذو شقين، عن الجمع للأخبار ، ثم عن نقدها ، وبعد ذلك يجئ سؤال آخر :

(٤) ماذا منح الكاتب المصور صورته من فنه ونفسه حتى بث فيها حيوية وتعبيرا عن طريق فهمه النفسى والاجتماعى الصحيح السليم لأحوال هذا المصور المترجم له ، وتفسيرها دقيقا ، حتى كأنه مثال يشهده ليرسم منه ؟ . ثم يتلو ذلك سؤال أدنى وأخفى ، هو :

(٥) ما اللمسات الشخصية من المصور لصورته صدى، وانعكاسا لقوة فهمة وقوة نفسه ، فمنح الصورة بذلك ملاحظ من فروضه التاريخية التى تمكن منها البيئة المكانية والزمانية للشخص المؤرخ ؟ فتكون تلك الفروض من الكاتب تتمة للأخبار المنقولة التى فسرت وفهم جوها ، فأجاز ذلك لرسام الصورة أن يضيف إلهاما يطمئن إليه من نتائج هذا الفهم والاستشفاف[1]

---

(١) نقد كتاب (الناصر محمد بن قلاوون) - الأدب - مارس سنة ١٩٦٥ م .

(د)

ويأتى بعد ذلك دور التاريخ الأدبى . .

و (التاريخ اليوم هو وصف لسير الحياة بالناس ، يبين السنن الاجتماعية فى حياتهم ، والنواميس التى تحكم وجود مجتمعاتهم وأفراد هم فى هذه الجماعات وأوصاف نشاطهم فيها . .

والتاريخ اليوم درس دقيق ينفذ إلى ماوراء الأحداث المسرودة ، وماخلف الأخبار المروية ، ليستشف العوامل التى تسيرها والمؤثرات التى تتحكم فيها . .

والتاريخ لذلك لايتلقى الأخبار فى استسلام ، ولايتقبل المرويات فى تساهل ، بل يفحص ذلك كله ، ويختبره وينقده . .

ثم هو بعد ذلك يربط بين السابق منها واللاحق ، ليرد المسبب إلى سببه ويتبين المقدمة التى أدت إلى النتيجة ، ويهتدى فى ذلك بما عرف البحث الأصيل من حال الاجتماع البشرى والسنة المقررة لحياة المجتمعات الإنسانية [١] .

ومعنى هذا أن التاريخ لايفرق بين ملوك وسوقه . فيرتبط بعجلة الملوك يسجل أحداثهم ويتتبع أخبارهم ، ثم لايولى اهتمامه بالشعوب ، عادات وعلاقات واتجاهات وتضحيات وتطورات . .

أى لم يعد التاريخ حركات سياسية أو عسكرية فحسب ، لأنه وهو يسجل الحياة فى تياراتها المختلفة إنما يسجل العوامل المحركة للشعوب ، والدواعى المادية والمعنوية التى تطور وجودهم ، وتدفعهم إلى مزيد من البذل والكفاح ، أو تقف بهم دون ذلك . .

ومن ثم كان ربط التاريخ الأدبى بالتطورات السياسية والأحداث الهامة قائما على أساس الفهم الخاطئ لطبيعة الأدب الذى هو (التفسير

---

(١) من مقدمة الأستاذ الخولى لكتاب (سكينة بنت الحسين) للدكتورة بنت الشاطئ .

الوجدانى للحياة) ، و (التعبير عن الإحساس الذاتى بالجمال) ، وليس دغدغة لمشاعر الملوك والأمراء ولا أستجابة لدواعى القهر والغلب ، وإنما هو (إنسانية كاملة ، يمثل فيها الواحد الجنس ، ويلخص فيها الواحد الكل ، وتتم إنسانيته المدنية الاجتماعية، فيحس بحس الملايين ، ويترجم عما يتمثل ، فيمس شغاف القلوب ، ويهز النفوس ، ويجلى المثل الكريمة ، والغايات السامية للوجود الإنسانى الراقى ، الماضى فى سبيل التقدم) . .

ومن أجل هذا الحس الإنسانى الفنى (الذى يغرى بالنشاط والجد والبذل والإيثار فى سبيل كل ماهو وسيلة لحياة راقية سعيدة ، عالمة حق العلم ، جادة حق الجد يكون تفسير التاريخ بالأدب ، لأن الأدب يصنع الحياة ، والتاريخ صورة الحياة .

يقول الأستاذ الخولى :

(إن الأقدمين كانوا بحكم واقعهم أميل إلى التفسير الروحى المعنوى للتاريخ لأن العوامل الروحية ، دينية وغيرها ، كانت أقوى عندهم وأبين تأثيرا ، لكنا — مع ذلك كله — لانعدم الاتجاه إلى تقدير الاعتبارات العملية فى سير الحياة وبواعث الأعمال ، وهو الاتجاه الذى يبرز غير خفى فى عمل ابن خلدون ، يحدث عن أثر البيئة فى حياة الدولة والأمة ، واطراد ذلك ، حتى يستخلص السنن فيه من سوابق أحوال الجماعات . .

وإذا كان ماضينا لايبعد عن التفسير المادى للتاريخ ، وعصرنا يقيم الوزن الأكبر للعوامل المادية ، فأين مكان الأدب بعد هذا كله فى صنع التاريخ أو تفسيره ؟

والجواب القريب عن هذا السؤال : أننا بحكم عصرنا تنظر إلى هذا الأدب نظرة تكبره ، وترفع من شأنه ، وتجعل له أثرا قويا على نفوس مستمعيه وصانعيه ، حتى ليحدث فيها من الشعور بالرضا واللذة ، أو الشعور بالسخط والألم ، ضربا من ذلك قويا صادق الأثر لاينكر .

وهذه اللذه وهذا الألم هما الباعثان الوحيدان للفعل والترك فى الحياة حسبما يقرر ذلك الخلقيون . .

ومن هنا يكون إقدام المرء على ما يفعل ، وإحجامه عما يترك ، ليس لها مبعث إلا الحالة الوجدانية للفاعل أو التارك إذ يمضى فيتقدم ، ويكره فيحجم ، وتلك الحالة الوجدانية ، رضا وكرها ، وإقبالا ونفورا ، لا شئ أقدر على إثارتها من الوجدان والوجدانيات ، أى الأدب والفنون جميعا لأنها لا تكون آدابا حقة ، ولا فنونا تستحق هذا الاسم ، إلا بقدر ما لها من وجدانية وإثارة . .

ونتقدم خطوة بعد هذا لتقرر : أنه مادامت اللذة ، أو المنفعة ، والالم أو الضرر ، هما الدافعان والمانعان الأصيلان للفعل والترك ، لأن كل إنسان إنما يسعى فى الحياة إلى شيء واحد ، هو تحقيق لذته ، واتقاء ألمه — فمقياس اللذة والألم هو التقدير الصحيح الدقيق لقيم الاشياء فى نظر الإنسان ، مهما تكن هذه الأشياء المادية كلها لأن الإنسان لا يحصلها ، ولا يقتنيها ، إلا بقدر ما هى مصدر لذة ، أو سبب لدفع الألم . . وعلى تقدير ما يحدثه المادى من وحدات اللذة ، أو وحدات دفع الألم، يكون تقويمه ، ويكون طلبه ، والافتقاد له . .

وبذلك يتلخص التقويم المادى ، لأى مادى ، فى قيمة اللذية ، ويكون كل تفسير أو تقدير مادى ليس — فى حقيقته — إلا تقويما لما يستطيع المادى أن يحققه للإنسان من حال لذية ، أى حال وجدانية . . وتلك الوجدانيات كلها لا يتدخل فى إثارتها وتنشيطها إلا الفنيات ، أى الآداب وأخواته من سائر ما يسمى بالفنون . .

وبهذا الإيضاح لا يخرج صنع الأدب للتاريخ عن التفسير المادى له لأن مقياس التقويم للمادى هو اللذة وإثارتها ، ولا قيمة للمادى إلا بقدر

ما يحققه من هذا . ; وبواسطة هذا المقياس يوجد التقويم للمادى وغير المادى : مادام وقعه على النفس الإنسانية هو كل قيمته)[١] . .

وبهذا الإيضاح أيضاً يتبين لمؤرخ الأدب أن الأدب أبعد أعماقا وأوسع من التاريخ السياسى ، فلا يكون تابعا له وهو عامل فيه وفى سواه من ألوان النشاط الإنسانى ، ومن ثم يجب على المؤرخ أن يبحث عن التيارات الأدبية الخاصة ، والمسارب الخفية التى تتطوربه ، والعوامل الفعالة فى رقيه وانحطاطه ، متخذا مادته الحية من حياة الأدباء وآثارهم . .

ومن هذه العلاقة القوية بين الأدب والتاريخ ، وكون الأدب من أقوى عوامل التاريخ ، يمكن لصاحب الفن ، حين يأخذ مادته من التاريخ أن يتمتع بحريات واسعه ، فله أن يكمل الصورة بخياله ، وأن يجسم دلالة الحادث التاريخى حسبما يدركه ، فى صواب ، من نفسية الأشخاص ، وأن يجلى الشخصية التى يعرضها فى الأفق الذى يتمثله من حوادث حياتها ويضفى عليها من الأضواء والألوان ما يبرزها ، كما تراءت له . . وأن ينقد بالوسائل الفنية المختلفة ما لا يطمئن إلى صحته من الحوادث المروية وأن يقدم أسبابا للحادث قد أهملها التاريخ ، أو ضاعت عند رواته ، مادامت التجارب النفسية ، والسنن الاجتماعية ، تؤيد نظرته : . فلا تقوم تلك التصرفات الحرة إلا على معرفة دقيقة منهجية للتاريخ ، وللنواميس الاجتماعية الموجهة للحياة فى سيره ، وتدعم ذلك خبرة نفسية شفافة ، مستبطنة، مجربة ، أو دراسة تنتفع بما اكتسبه العلم من معرفة لتلك النفس.

وهو عبء كبير ، تناظر واجباته هذه الحقوق الكبرى ، ويوازن بين هذه الحقوق والواجبات التزام للواقع التاريخى ، لا يجور على صغيرة أو كبيرة منه إلا بجهد من النقد ، بعد الاطلاع الكامل ، الذى لا يحل معه للفنان أن يتمتع بهذه الحرية التى اعترف بها له ، إلا بعد أن يؤدى واجبه

---

(١) الأدب يصنع التاريخ – من محاضرات الموسم الثقافى بالكويت سنة ١٩٥٧ م .

الذى أشرت إليه . . وأى تصرف للفنان لا يعتمد على ذلك فهو جور ظالم،أحسبه يهدم كيان العمل الفنى ،ويهدم كيان الفنان نفسه[١] . .

وإذا كان (الأسلوب فى القصة التاريخية ثوب اللابس ، وبياض البناء، يلزم الكاتب أن يلازم القراءة فى أسلوب عصرها زمنا ليس بالقصير ، حتى تجرى على قلمه ألفاظ من أسماء ذلك العصر وأفعاله ، بل حتى يتأثر حواره بأسلوب العصر الذى يعيش فيه مع شخصياته) . .

و(الرمزية بموضوع ، أو شخص ، أو حادث ، إنما تقوم على مافى الموضوع أو الشخص أو الحادث أو الشئ من شفافية كافية ، وإيحاء قوى لجملة الموضوع ، أو لشخصية الشخص ، أو لظروف الحادث ، أو أحوال الشئ ، مع إمكان أن يظل الموضوع و الشخص والحادث والشئ فى وصفه مؤديا لمعنى يقصد ، ومفهوم يراد . . أما حين يكون الحادث فى القصة والمسرحية مصحوبا بالقول المبين ، والكلام الموضح ، والغرض المقصود ، والمغزى المكشوف ، فلا يسهل القول بالرمزية ، وهذا التعبير بالحادث الذى هو جوهر العمل القصصى هو الذى أسميه الدلالة الفنية ،لأن الفن إنما يفسر الحياة تفسيرا وجدانيا ، وهذا التفسير الوجدانى يكون فى القصة بأنواعها بالحادث . . لارمزا . . ثم يكون أحيانا رمزا ورمزية إذا ما كانت له هذه الشفافية ، وذلك الايحاء بعد التعبير والدلالة[٢] . .

---

(١) السلطان الحائر بين الفن والتاريخ — المجلة — مارس سنة ١٩٦٢

(٢) فى البناء المسرحى والدلالة الفنية — المجلة — أبريل سنة ١٩٦٢

(٤)
خطوة على الطريق . .

(١)

هزت الحرب العالمية الأولى العالم كله خمس سنوات ، وغيرت كثيرا من شئونه سياسيا واقتصاديا وعقليا . . وأصاب مصر من لهيبها ما حرق من العظام جذوة أضاءت قلوبا وعقولا . . وصيرت شعار (مصر للمصريين) نشيد ثورة ، وضرورة كفاح ، ودستور أمة نهضت لتريح كابوسا رهيبا ، استنزف دمها وما لها وحريتها ، وذل كبرياءها ، وتجاهل قوميتها وتاريخها وحضارتها . .

وكان على الأدب أن ترفرف له فى هذا الميدان راية ، تثير وتقود لكنه لم يقف عند حد الإثارة وإلهاب المشاعر ، بل قصد رجاله إلى إبراز الوجود المصرى ماديا ومعنويا ، وجدانا وفكرا ، آمالا وآلاما ، ملامح وشخصيات . .

وإن تكن (الجريدة) قد سبقت بهذا الشعار منذ سنة ١٩٠٧ ، فإن جريدة (السفور) تلقت الراية إبان الحرب ، ونفخت فى بوق الثورة ، معلنة إرادة الأمة بأقلام الناهضين من شبابها :

فى سبتمبر سنة ١٩١٨ نشرت (السفور) مقالين للأستاذ عبد الحميد العبادى عن (الأدب العربى المصرى ، تاريخ إهمال دارسته ، وأسباب إهمالها) : . جاء فيهما :

(لابد لمن يريد أن يفقه أمة من الأمم أن يطالع فى صحيفتها الأدبية نزوات عواطفها ، وحركات أفكارها ، كما يطالع فى صحيفتها السياسية نظام حكومتها ، وتحرك جيوشها . : من أجل ذلك نرى أن عمل (جماعة التاريخ المصرى) فى حاجه ماسة إلى جماعة أخرى تتوفر على جمع الأدب العربى المصرى ، من شعر ونثر ، ثم دراسته ووضع تاريخ له : : لقد

طال العهد على إهمال الأدب المصرى وتاريخه ، حتى أصبح أكثرنا يعتقد ألا أدب للغة العربية المصرية ، ومصدر ذلك الاعتقاد فى رأينا أن أغلب الكتب العربية والافرنجية التى وضعت فى تاريخ أدب اللغة العربية قد أغفلت الادب المصرى) . .

وفى ٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ افتتح الاستاذ أحمد ضيف محاضراته فى الجامعة المصرية (بخطبة) جاء فيها :

(نريد أن تكون لنا آداب مصرية ، تمثل حالتنا الاجتماعية ، وحركاتنا الفكرية ، والعصر الذى نعيش فيه . . تمثل الزارع فى حقله ، والتاجر فى حانوته ، والأمير فى قصره ، والعالم بين تلاميذه وكتبه ، والشيخ فى أهله ، والعابد فى مسجد وصومعته ، والشاب فى مجونه وغرامه ، أى نريد أن تكون لنا شخصية فى آدابنا ، ولا نريد بذلك أن نهجر اللغة العربية وآدابها ، لأننا إن فعلنا ذلك أصبحنا بلا لغة ولا أدب : :

إن كل مانرجوه هو أن تكون لنا آداب مصرية عربية : مصرية فى موضوعاتها ومعلوماتها . عربية فى لغتها وبلاغتها وأساليبها) [1] .

ولكن دوافع الثورة — من فرض حماية وسخرة وابتزاز وقهر وكبت الخ — كانت أقوى مما تردد فى الصحافة والجامعة . فلم تكن حدود الحرية فيهما لتمكن من التعبير عن عميق إيماننا بأرضنا ، حضارة وتاريخا ، خصوبة وعطاء ، تضحية وفداء . .

وإذا الأدباء والفنانون يحاولون التعبير عن هذه الأرض الطيبة بقدر مايستطيعون . .

(عيسى عبيد) يستوحى قصصه من البيئة والحياة المصرية ، و (محمد تيمور) ينطق مسرحياته عاداتنا وتقاليدنا وقيمنا ، و (محمد حسين هيكل)

---

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ط ١ سنة ١٩٢١ م — ص ٦

يكتب عن الفلاح .. مشكلاته وتطلعاته ، والقرية .. فقرها وبساطتها وجمالها ، و (محمود مختار) يقدم تمثال نهضة مصر إيمانا منه بستقبلها المستمد من حاضرها وماضيها ، و (سيد درويش) ينفخ فى بوقه الذهبى أناشيد بلاده و (شمسها الشموسة) ..

وتفسح (السياسة الأسبوعية) صدرها لأقلام تعمل على توكيد شخصية الأمة وتحديد كيانها ، وتصوير خصائصها ، وإبراز فضائلها ، وتعرض مشكلاتها ، وتعترف بطبقاتها العاملة ، وتجد فى بعث تراثها وفنونها الشعبية

وأدلى الأستاذ الخولى بدلوه فى هذا المجال ، فنشر بحثه عن (شخصية مصر فى التاريخ) صرخة عميقة فى وجه القائلين بأن مصر كانت مستعبدة طوال تاريخها منذ سقطت دولة الفراعنة ، وفيه بين أن (تلك الأمة التى آمنت بالخلود ، وجاهدت فى كشف أسراره ، واحتالت له ، قد صار الخلود شعارها الروحى ، حتى لتبدو قوتها المعنوية فى الأوقات العصيبة التى لاتسعفها فيها القوة المادية على دفع عدوان العادين وغارات المغيرين) لذلك كانت شخصية (مصر خالدة ، وقوميتها لاتموت)[1] .

وقد عبر الأستاذ توفيق الحكيم سنة ١٩٢٩ عن قوة الخلود المستكنة فى طبيعية مصر عبر التاريخ فى قصته الشهيرة (عودة الروح) رابطا بين الذات المصرية الخالصة التى لاتلبث أن تنفض عن نفسها غبار السنين حين يتوفر لها الزعيم القائد — وبين أسطورة (إيزيس) التى ظلت تجمع أوصال أخيها (أوزوريس) ، حتى أعادته كائنا حيا ..

وفى سنة ١٩٣٣ جرى حوار بين الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور طه حسين .. بدأه الحكيم سائلا طه حسين :

(ما هى مميزات العقلية المصرية فى الماضى والحاضر والمستقبل ؟ ماروح مصر ؟ مامصر ؟) .

---

(١) مجلة القضاء الشرعى — شعبان ورمضان سنة ١٣٤٤هـ .

وأجاب (لاريب عندى أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هى الروح ، هى السكون ، هى الاستقرار ، هى البناء ، والعرب هى المادة ، هى السرعة ، هى الظعن ، هى الزخرف ..

مقابلة عجيبة : مصر والعرب وجها الدرهم ، وعنصرا الوجود ، أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح ، إنى بما أقول يادكتور ، وأتمنى للادب المصرى الحديث هذا المصير ،زواج الروح بالمادة،والسكون بالحركة ، والاستقرار بالقلق ، والبناء بالزخرف ، تلك ينابيع فكر كامل ومدنية متزنة ، لم تعرف البشرية لها من نظير) [1] ..

وجاء فى جواب الدكتور طه أن (عناصر ثلاثة تكون منها الروح الأدبى المصرى منذ استعربت مصر : أولها العنصر المصرى الخالص الذى ورثناه عن المصريين القدماء على اتصال الأزمان بهم ، وعلى تأثرهم بالمؤثرات المختلفة التى خضعت لها حياتهم ، والذى تستمده دائما من أرض مصر ومنهائها ، ومن نيل مصر وصحرائها ، وهذا العنصر موجود دائما فى الأدب المصرى الخالص ، قد حاولت تشخيصه بعض الشىء فى أول هذا الفصل فيه شىء من التصوف .وفيه شىء من الحزن ، وفيه شىء من السماحة ، وفيه شىء من السخرية ، والعنصر الآخر هو العنصر العربى يأتينا من اللغة ومن الدين ومن الحضارة . والعنصر الثالث هو العنصر الأجنبى الذى أثر فى الحياة المصرية دائما . والذى سيؤثر فيها دائما . والذى لاسبيل لمصر إلى أن تخلص منه) [2] ..

* * *

ترك الأستاذ الخولى هذا اللون من الحوار الذى لايعمق فكرا ولا يوسع ميدانا ، وعكف على دارسة جادة ليقدم صورة (مصر فى تاريخ البلاغة) سنة ١٩٣٤ م .

---

(١) الرسالة ١ — ٦ سنة ١٩٣٣

(٢) الرسالة ١٥ — ٦ سنة ١٩٣٣

ذلك أن دراسة مصر ، وبخاصة من الناحية الأدبية ، دراسة يجب أن نتوفر عليها ، ونمنحها أكبر عنايتنا ، لاسباب ، منها .

١ — أن الاستقرار التاريخي يشهد أن نهضات الفنون على اختلافها — من أدب أو موسيقا أو تصوير ، وما إلى ذلك — تسبق جميع نهضات الأمم ، وتتقدم حركات عظمتها وتجددها . . ثم يليها غيرها من النهضات . بعد بعد أن تكون قد مهدت له . .

والحياة الأدبية دائما خير ميدان لجهاد العاملين على رفعة الشعوب . كما رأيناها أبدا هدف أعداء النهضات الساعين إلى تعويقها . .

ومصر اليوم متجددة بلا مراء . . فلا عجب أن تطلب إلى نفسها العناية بالدراسات المصرية ، حتى تستطيع أداء واجبها ، الذى تقضى به عليها منزلتها من حياة مجتمعنا ، ويقضى به ما لدراستها من الصلة والأثر فى هذا الدور من حياة مصر الناهضة . فتغذى بهذه الدراسات المصرية الخاصة حركة النهضة المصرية ، وتمدها بما ينعشها ويحييها . .

٢ — تقوم الدراسة الصحيحة على الحياة والاختبار . ويعتمد البحث الفنى الصالح على الإدراك العميق للروح الفنية ، وفهم أسرار الحس بالجمال فى البيئة المدروسة ، ونحن — بنى مصر ، ولا مشاحة — أقرب الناس إلى مصر ، وأقدر الناس على فهم مصر ، نحن نغدو فى الوادى ونروح ، تنال أيدينا وعيوننا وعقولنا مواد دراسته .

وثم سبب وراء هذا كله ، يعتمد على ملاحظة نقدية لمسلك مؤرخى الأدب العربى ، وما يحتاج إليه من تعديل وإصلاح : :

فالرأى الصائب أن يعدل مؤرخو الأدب عن توزيع دراسة الأدب العربى الإسلامى على عصور زمنية ، وأن يقدروا الأثر القوى لكل بيئة مما فيها أدب عربى وأن يتتبعوا هذا بالدرس المستقل ، وأن يدرسوا العربية فى المواطن المختلفة التى نزلتها ، موطنا موطنا ، فيكون أساس التقسيم هو

اختلاف البيئة وتغايرها ، ووحدة المؤثرات المادية والمعنوية فيها ، وإن لم يدر ذلك مع التقسيم السياسى أو المتواضع عليه للأقطار والبلدان بل تفرد كل بيئة متجانسة بدرس خاص ، لا كل قطعة من الزمن ببحث .

والعجب من أن دارسى الحياة الإسلامية الفكرية يرون اختلاف الأقاليم فى المقالات الاعتقادية والآراء الاسلامية ، ويشهدون توزع المذاهب الفقهية العملية المختلفة على تلك الأقطار ، إلى غير ذلك من مظاهر التخالف التى يقررونها فى صور متغايرة ، وألوان شتى ، ثم لا يلتمسون مثل ذلك فى الفنون الأدبية وتاريخها ، مع أنها أشد خضوعا لعوامل المغايرة وأسباب المخالفة ، من تلك الآراء الاعتقادية ، وهاتيك المذاهب العملية ، وغيرها من مناحى الفكر والعمل)[1] .

ثم : غنيت العربية سنة ١٩٤٣ بكتاب (فى الادب المصرى) الذى دعا للإقليمية (باسم المنهج التحقيقى الدقيق ، فى تصحيح البحث ، وتوجيهه ، وتوزيعه .

فلا اتصال مطلقا بين مصرية الأدب ، وفرعونية مصر ، بحيث نهدر فيها الجانب العربى أو ننكر الميراث العربى ، أو نهون من شأن هذا الدور العربى فى حياة مصر .

كلا : لن يحركنا شىء من هذا ، ولن نثير به أى قدر من النزاع حول أمثال هذه الدعاوات :

وكيف : ونحن إنما ندرس هذه المصرية الأدبية فى صورتها العربية ، ودورها الإسلامى ، أيام إذ عرفت ذلك كله ، وانحازت إليه ، وشاركت فيه ، وعملت من أجله[2] ؟

---

(١) ص ٢١٩ — ٢٢٤ مناهج تجديد .

(٢) فى الأدب المصرى — ص ٣٥

(ب)

لكن هذه الدعوة إلى الدراسة الإقليمية لم تكن لتمضى دون أن تثير خصومة وجدلا ، مع أن الاستاذ الخولى ألح فى بيان (أن هذه الإقليمية الأدبية ليست إلا ضربا مما يعمد إليه البحث العلمى ، من حل المركب إلى بسائطه ليبحثها شيئا فشيئا ، توصلا بذلك إلى معرفة المركب معرفة دقيقة تامة . . لأننا لا نهتف بالإقليمية استجابة لرغبة أو هوى ، أو ميل أو غرض ، حتى يعارض هذا شيئا من آمالهم ، أو يناوئه ، إنما ندعو للإقليمية باسم المنهج التحقيقى الدقيق فى تصحيح البحث وتوجيهه وتوزيعه)[1]

و(البيئة المادية أضبط ما تضبط به ألوان النشاط الانسانى ، سواء أكان النشاط أثر هبة فطرية ، ووراثة متلقاة من السلف ، أم كان نتيجة عمل كسبى للبشر ، إذ إن الوارثة مرهونة بالبيئة التى ينمو فيها الوارث المتلقى ، والعمل الكسبى محدود بطوق البيئة المادية ، قدرما تهيىء ، وتعين ، وتدفع ، وتساعد . . بل إن ما ينتقل إلى الناس بجوار أو فتح أو دعوة أو أى مؤثر خارجى ، إنما يصل إليهم ، وهو كذلك مرهون بتقبل بيئتهم المادية له ، وصلاحيته للمعيشة فيها ، فهى التى تقبل منه ما تقبل . وتنفى منه ما تنفى)[2] . .

طالب أولئك القوميين بأن (يتركوا المصرية تعرف نفسها حق المعرفة لتعرف كيف تتصل بغيرها ، ولتتبين أساس هذا الاتصال ، ولتقدر نواحى قوته ، وسيكون هذا — فيما أرى — أجدى على تلك الصلة ، وآكد لهذا الارتباط ، وأقوى على بقائه) . .

فان (الايمان بالشخصية المصرية عقيدة يخفق بها قلب المصرى كلما توائبت مياه النهر المقدس منسابة عن مجراه الأزلى . .

وهو روح الحياة يتنفسه المصرى كلما هبت نسمات الوادى مطيفة بمعالم المجد الأبدى فى جنباته ، حاملة مع أعطاف تلك الشخصية المصرية عبر الخلود ، الذى أخضع الدهر وقهر الزمن . .

---

(١) فى الأدب المصرى — ص ٣٥ .

(٢) مالك بن أنس — ص ٦٠٣

وإيمان الحى بنفسه هو ، فيه رغبة الحياة التى تمسك عليه كيانه ، وتحفظ وجوده ، والحى بغير هذا الإيمان لقى مضيع ، وجماد ممتهن ، وحى ميت . .

ولو كان درس الأدب المصرى عملا ينبعث عن هذه العقيدة ، وحاجة تدفع إليها الحياة الشاعرة بنفسها ، لكان هذا الأدب المصرى وحده هو مادة الدرس الأدبى فى مصر المعتدة بشخصيتها ، لاتؤثر غيره عليه ، بل لاتعرف سواه معه . .

ولوكان درس الأدب المصرى يأخذ مكانه بين بواعث النهضة المصرية ومقوماتها لكانت العناية بهذا الأدب المصرى أولى خطوات النهضة ، كما جرت بذلك سنة الحياة ، إذ تسبق نهضات الفنون سائر النهضات فى الأمم ، ثم تليها غيرها من النهضات بعد أن يكون الفن قد مهد له . .

ولوكان الأدب المصرى يأخذ مكانه بين مواد الدرس التى تلزم المناهج الصحيحة العناية بها والعكوف عليها ، لكان درس هذا الأدب المصرى ، هو مايستطيعه المصرى قبل غيره ، ودون غيره ، إذ يتولى ذلك الدرس فى بيئته التى هو صاحبها وربيبها ، وأقدر الناس على فهمها . .

ولو كان درس الأدب المصرى لونا من التجدد المساير للحياة لكان هذا الأدب المصرى هو مظهر تجدد المشاركين فى الحياة ، وأقرب سبيل إلى الاتصال بها ، لأن الحياة الوجدانية فى الأمم هى أقوى مايحس به أفراد الأمة جميعا ، أو أكثر مايكون اشتراكهم فيه جميعا . .

وهكذا . . كلما قلبت الرأى وجدت جميع الاعتبارات النفسية والوطنية والفنية تقضى بتوافر العناية بهذا الأدب ، بل تؤذن بإفراده ، وقصر الهمة عليه دون غيره ، إلا ما يكون من ذلك وسيلة إلى فهم هذا الأدب وتمثله . أوما يكون توسعا فى الدرس ورفاهية فيه ، بعد مالابد للدارس منه)[1]

---

(١) فى الأدب المصرى — ص ٩ — ١٢

وبخاصة أن (مصر تميزت بمميزات واضحة الفصل ، قويه التأثير في التحديد والتميز من بحار وصحارى ، وبمقومات خاصة ، جعلت هذه البلاد وحدة مادية بارزة المعالم ، جلية الخصائص، ماثلةالفروق)[1].

و (البيئة المصرية ، أو غيرها من البيئات ، كما تحددها الفطرة — إنما هي بوتقة تصهرفيها الطبيعة عناصر ومواد تكثر أو تقل ، تبعا لما يطرأ على تلك البيئة ، فتخرج منها يد القدر موجودا له خواصه ومميزاته . . والعربية عنصر أو مادة مما ألقت يد الله في هذه البوتقة ، فصهرته حرارة الحياة ، وقوة التحمل ، ووصلت بينه وبين غيره من عناصر أو مواد كانت في هذه البوتقة ، وسواء أغلب هذا العنصر العربي غيره مما كان في البوتقة أم لم يغلب غيره ، فانه في كل حال لم يبق على حاله التي جاء بها إلى مصر أول ماجاءها ، فكان ذلك تجددا متصلا للكائن الذى نسميه (المصرى) أو الأمة التي نسميها المصرية . .

ولن تقال كلمة مؤرخة في وصف الحياة الأدبية لمصر الإسلامية على نحو مانرجوه من الدرس الصادق لتاريخ الأدب إلا بعد أن نكون قد ظفرنا بالجهد المفرد للمصريين أنفسهم ، ويذوق المصريين ذاتهم ، وبجهدهم هم لذواتهم ، في ماضى حياتهم وفنونهم وآدابهم ، بحيث تكون في يد كل مزاول لهذا الأدب المصرى الاسلامي أكبر مجموعة من المنشآت الأدبية للعصورالمصرية السابقة كلها، يحيا فيها حينا إلىجانب حياته في مصرالحديثة، فيرهف بذلك حسه ، ويدق تذوقه لهذا الأدب ، ويظفر بمفاتيح أغلاقة ، ومصابيح سراديبه ، من ماض بعيد قد تأثر به ولاشك حاضرنا القريب)[2].

وإذا كان الدرس للبيئة ، وأصحابها هم أحق بها وأهلها ، يمارسون من ذلك ما هو في أنفسهم ومنهم ولهم ، وهم أهدى إليه سبيلا وأقوم

(١) في الأدب المصرى — ص ١٧

(٢) المصدر السابق ص ١٠٦ — ١١٤ .

قبلا ، فليدرس أصحاب الأدب فى الشام وفى المغرب وفى العراق تلك البيئات ، مقدرين الخصائص الفطرية التى حبتها الطبيعية إياها ، ومازتها بها عن سواها ، فتأثر بها قاطنوها ، وتأثرت جوانب حياتهم المعنوية بتلك المزايا . . ثم بغيرها من جوار ونقلة واتصال وأخذ ووراثة . . إلى آخر تلك المؤثرات على نواحى النشاط المعنوية للجماعة الانسانية . .

وعلى هذا تكون فكرة الاقليمية فى الأدب عاملا منظما لتوزيع الدرس وتقاسمه بين الدارسين ، فتتحد بذلك الدراسة الأدبية للتراث العربى ، وتعمق نظرات دارسيها ، كما ستكون فكرة البيئة دافعة إلى تلمس النواحى المشتركة من قرب أو بعد . بين أولئك الأقربين الذين تمتهم قرابات قريبة ، وتصلهم بالدنيا وشائج عامة ، فيتعاونون تعاونا مجديا يخصص كل نشاط بعمل ، لاتعاونا مكررا يتواردون فيه على الغرض الواحد ، ويرمون به الهدف الواحد ، فيضيعون من القوى ماكان خليقا بأن يوجه إلى جانب من الغاية ، ويبتغى طرفا من الهدف ؛ فيكون العمل أكمل ، والمعرفة أمكن .

* * *

ومن عجب أن يعرض كتاب (فى الأدب المصرى) للقضية من جميع جوانبها ، ويبسط فيه الأستاذ الخولى كل ما يمكن أن يرد من اتهام ، ويفتده بروح علمية مزودة بحجج من واقع نعيشه ، وأمس نحن مشدودون إليه ؛ وغد نعمل على تحقيق آمالنا فيه . . ومع ذلك يحاول دعاة القومية أن يكيلوا الاتهام جزافا دون أن يتبصروا حقيقة ما يدعو إليه داعيتنا . .

بل يصل الأمر بشيخ العروبة وأبى القومية (ساطع الحصرى) أن يكتب فى هذا (آراء وأحاديث فى اللغة والأدب) سنة ١٩٥٨ دون أن يشير إلى كتاب (فى الأدب المصرى) سنة ١٩٤٣ ، بينما هو ينقد ما جاء فى بحث (مصر فى تاريخ البلاغة) سنة ١٩٣٤ م ، كأنما هو يتجنب ما جاء فى الأدب

المصرى ، لأن حجته دامغة ، وليس لمنصف أن يقول فيه دون أن يجد جواب تساؤلاته ، ويقين شكوكه ، وماله إلا القناعة والتسليم .

وما أحسب أن هناك اليوم من ينكر دعوى الإقليمية فى الدراسات الأدبية ، والسوق الأدبية اليوم مليئة بالدراسات الإقليمية . . ونظرة إلى قائمة مطبوعات (معهد الدراسات العربية العالية) التابع (لجامعة الدول العربية) أقوى دليل على دلك ، بل إن صدور هذه الدراسات عن معهد تابع لجامعة القومية العربية — وفى وقت كان الأستاذ الحصرى نفسه عميدا له — مما يذكر بقول الأستاذ الخولى مقدما (الفن القصصى فى القرآن الكريم) — بعد حملة التفكير والتهديد بالويل والثبور وعظائم الأمور :

(إن ملاحدة اليوم هم قد يسو الغد ، وبدعة الحاضر هى تقوى المستقبل ، وإلافلا تقدم ولاتطور . . إن من النواميس الاجتماعية أن نعد الفكرة حينا ماكافرة تحرم ، ثم تصبح عقيدة تعتنق) . .

وحسبه أن يكون — فى التاريخ — صاحب الفكرة التى تحرم ثم تعتقد .. ويأتى اليوم الذى يرى فيه صاحب هذه الفكرة رجال الدين يدعون بدعوة الإقليمية فى الفقه . .

يقول الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر عميد كلية الشريعة بالأزهر ، مقدما كتاب (نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الفقهية الأربعة) للعلامة أحمد تيمور باشا :

(الواقع الذى لامرية فيه أن الفقه المذهبى قد تحلل فى كثير من الأحيان من تلك القيود النظرية التى كانت للفقهاء الأول إلى مناهج قد تأثرت بنفس الأقاليم التى انتشرت فيها المذاهب ، والمناطق التى استقر بها العمل فيها ، حتى اتخذ له طابعا إقليميا خاصا فى تلك البلدان والأمصار ، شأنه فيه ككل كائن يخضع لعوامل الزمان والمكان ، تبعا لذلك ..

وإنه لمن الأوفق وثوقا ، والأوثق توفيقا التفكير فى تصنيف الفقه إلى مناطق ، تمثل كل منطقة منها وحدة جغرافية اجتماعية ، تقوم على

أساس أن لكل منطقة مميزاتها في نظامها الاجتماعي والثقافي ، تبعا للعادات والملابسات النفسية والاقتصادية والسياسية وأحوالها الطبيعية والجغرافية ، كما يشير لذلك ابن خلدون في انتشار المذهب المالكي ..

فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل - لمناسبة البداوة — ولهذا لم يزل المذهب المالكي عندهم غضا ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب) [١] ..

(ج)

إذا كان الدكتور طه حسين من السابقين إلى تعرف منهج الأوربيين في التاريخ الأدبي ، وأول من نعى على أصحاب التقسيم السياسي لعصور الأدب ، وعده (غلطة سيئة لم ينتبه إليها الأدباء والمؤرخون) — فإن الدكتور طه — دون شك — هو أول من قدم للعربية دراسة جامعية تعتمد الأسس الصحيحة للترجمة الأدبية ..

ذلك أن الدكتور طه — على هدى من دراساته الأوربية — تنبه إلى أثر البيئة المادية والمعنوية في حياة الأفراد والجماعات ، فأبو العلاء (ثمرة من ثمرات عصره ، قد عمل في إنضاجها الزمان والمكان ، والحال السياسية والاجتماعية ، بل والحال الاقتصادية ، ولسنا نحتاج إلى ذكر الدين ، فإنه أظهرها أثرا من أن نشير إليه) [٢] . كما تنبه إلى أن الانتاج الأدبي تنعكس عليه ملامح البيئة بحيث يصبح شاهدا عليها ، وهي شاهدة عليه يفسر بها وتفسر به (فالحادثة التاريخية أو القصيدة الشعرية والخطبة يجيدها الخطيب ، والرسالة ينقحها الكاتب الأديب ، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية ، يخضع للبحث والتحليل ، خضوع المادة لعمل

---

(١) طبعة دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٥ — ص ٢ — ٣

(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء — ص ١٧

الكيمياء) [١] . . وتنبه كذلك إلى أن الدراسات الأدبية تتخذ المنهج العلمى سبيلا إلى التفسير والتحليل والتعليل ورد المركب إلى بسائطه ، وربط الفروع بالأصول ، بحيث يخضع النص الأدبى للبحث (خضوع المادة لعمل الكيمياء) و (كما يدرس صاحب العلم الطبيعى ، علم الحيوان والنبات) [٢] كما جاء تفصيله بعد (فى الأدب الجاهلى) . . وتنبه أيضا إلى العامل النفسى (اتخذت شخصية أبى العلاء مصدرا من مصادر البحث بعد أن وصلت إلى تعيينها وتحقيقها ، وعلى ذلك فلست فى هذا الكتاب طبعيا فحسب ، بل أنا طبعى نفسى أعتمد فيه ما تنتج المباحث الطبيعية ومباحث علم النفس معا) [٣]

ومن ثم قدم لنا فى (ذكرى أبى العلاء) — الخاضع فى أدبه وعلمه لزمانه ومكانه — (فصلا فى عصر أبى العلاء، وآخر فى بلده، ولما كانت الأسرة أشد ما يحيط بالرجل أثرا فيه، خصصنا فصلا آخر لأسرة أبى العلاء ، فإذا فرغنا من هذا كله عمدنا إلى الحياة التاريخية للرجل ففصلناها تفصيلا ، ثم انتقلنا منها إلى منزلته الأدبية ، فبينا قسمته من الشعر والنثر ، وخصائصه فيهما ، ثم إلى منزلته العلمية فشرحناها شرحا مستوفى ، ومن بعد هذا كله تناولنا فلسفته ، فأجتهدنا فى أن نكشف عنها ونجليها ، ونبين تأثرها بما قبلها ، وتأثيرها فيما بعدها ، معتنين عناية خاصة بفلسفته الإلهية والخلقة ، لكثرة ما كان فيها من اختلاف الآراء ، وافتراق الأهواء) [٤] .

وقد نجد فى التطبيق جوانب لم تستوف ، أشار الدكتور طه نفسه — فى مقدمة الطبعة الثالثة — إلى أهمها ، لكن إذا وضعنا فى الاعتبار أن هذه الترجمة أول ماظفرت به العربية من البحوث الجامعية ، وأنها لطالب فى فى الخامسة والعشرين من عمره ، أدركنا قيمة هذا العمل الكبير فى ميدان

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء — ص ٢٠

(٢) فى الأدب الجاهلى — ص ٥٧

(٣) تجديد ذكرى أبى العلاء — ص ١٣

(٤) المصدر السابق — ص ٢٢

الريادة ، وبخاصة أنها انتقلت بالنصوص الأدبية من مرحلة التذوق التى يمثل قمتها الشيخ سيد بن على المرصفى ، إلى مرحلة التحليل فى ظل اعتبارات مختلفة .. فمنهج الشيخ المرصفى يقوم على (إيثار للبدوى الجزل على الحضرى السهل ، وكلف بمناحى الإعراب فى فنون القول، ونبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع ، وانتحالهم لألوان الفلسفة والمنطق وبغض شديد لحكمة الضرورة فى الشعر، وللفظ السهل المهلهل يقع بين الألفاظ الجزلة الضخمة ، إلى غير ذلك مما هو إلى مذهب القدماء من أئمة اللغة ورواة الشعر أدنى منه إلى مذهب المحدثين من الأدباء والنقاد)[1] . .

ذلك أن الشيخ — مع صفاء ذوقه — لم يكن يربط النصوص بأصحابها وبيئتها بل كان ينظر إلى خصائص مستقلة بنفسها ، وإلى أثرها فى نفسه ، دون أى اعتبار آخر، شأن من كانوا يذكرون الشاعر ببيت أو أبيات أجادها .. على حين أخضع الدكتور طه نصوصه للتحليل ، دون أى أعتبارا ، فلتكن النتيجة ما تكون ، مادام التحليل سليما . . وبهذا المنهج الجديد فتح أمامنا آفاقا جديدة ، بل حبب إلينا شخصية لقيت من عنت التاريخ الأدبى الكثير ، فتناولها من بعده أدباء وأدباء . .

وقد ندعى أن دراسة أبى العلاء من خلال آثاره — شعره ونثره — كانت من حوافز الأستاذ العقاد ليقدم (ابن الرومى — حياته من شعره)[2] فشعر الشاعر (إهابه الموصولة بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه ، فللردئ منه مثل ما للجيد من الدلالة على نفسه والإبانة عن صحته وسقمه بل ربما كان بعض رديئه أدل عليه من بعض جيده ، وأدنى إلى التعريف به والنفاذ إليه ، لأن موضوع فنه هو موضوع حياته ، والمرء يحيا فى أحسن أوقاته ، ويحيا فى أسوأ أوقاته ، ولقد تكون حياته فى الأوقات

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء — ص ٥ — ٦٠.

(٢) كتب العقاد مقالات عن ابن الرومى فى جريدة الدستور سنة ١٩٠٧ . ولكن كتابه جاء بعد ذلك . .

السيئة أضعاف حياته فى أحسن الأوقات) . . وتمام الطبيعة الفنيه (أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا لاينفصل فيه الانسان الحى من الانسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته. فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان، ولايخفى فيها ذكر خالجة ولاهاجسة مما تتألف منه حياةالأنسان، ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل)[1] ..

ثم عاش الدكتور طه (مع المتنبى) زمنا يستوحى ديوانه ، ويحلل أخباره ليقدم دراسة أحدثت آثارا فى أقلام المادحين والقادحين ، لعل أظهرها سلسلة مقالات الأستاذمحمود محمد شاكر التى نشرها (المقتطف) فى كتاب سنة ١٩٣٦مع حرص الدكتور طه على ألا يدخل بسبب كتابه فى عراك ،إذ قال فى مقدمته ، (لاأريد أن أدرس المتنبى إذن . فالذين يقرءون هذه الفصول لاينبغى أن يقرءوها على أنها علم . ولاعلى أنها نقد . ولاينبغى أن ينتظروا منها ماينتظرون من كتب العلم والنقد . وإنما هى خواطر مرسلة، تثيرها فى نفسى قراءة المتنبى فى قرية من قرى الألب فى فرنسا)[2] وأصاب الأدباء الرواد — مع نذر الحرب العالمية الثانية . والاضطرابات السياسية والنفسية التى عاشها العالم فى الثلاثينات ، ومصر بخاصة. وهى تلتقى بأزمة الدستور وتعطيل الحياة النيابية وقضية الجلاء ومعاهدة (الشرف والاستقلال) — أصابهم نزعة دينية ، فكتب هيكل بعد جان جاك روسو (فى منزل الوحى) و(حياة محمد) (والصديق) و(الفاروق) ، وكتب طه حسين بعد (قادة الفكر) (على هامش السيرة) و(الفتنة الكبرى) و(الوعد الحق). وكتب توفيق الحكيم بعد (أهل الكهف) و(شهر زاد) (محمد) وكتب العقاد — بعد ساعات ومطالعات ومراجعات فى الكتب الغربية والشخصيات الغربية — سلسلة العبقريات الإسلامية المعروفة . .

---

(١) ابن الرومى . حياته من شعره — كتاب الهلال — ص ٩ — ١٢

(٢) مع المتنبى — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ — ص ٦

ولكل فيما كتب منهج وأسلوب يؤثره ..

الدكتور هيكل لم يأخذ سمت المترجم بقدر ما أخذ سمت المؤرخ، ومال إلى الاستطراد ووقع فى كثير تحت تأثير المستشرقين مع علمه أن (ماكتبه هؤلاء تمليه شهوة الجدل والتجريح ، مصوغا فى عبارة لاتخلو من براعة تستهوى إخوانهم فى العقيدة إلى الظن بأن البحث العلمى المجرد النزاع إلى الحقيقة وحدها، يريد أن يستشفها من وراء كل الحجب) ، وإن كان بعضهم مخلصا فى بحثه ، فإن (الخطأ يتسرب إلى بحثه لعدم دقته فى إدراك أسرار اللغة العربية تارة ، ولما يشوب نفوس طائفة من هؤلاء العلماء من الحرص على هدم مقررات دين من الأديان ، أو على هدم مقررات الأديان جميعا تارة أخرى) ، ولقد أتيح له تمحيص بعض مسائل متصلة بحياة النبى العربى على قدر ماله من علم بالرواية والرواة ، ، وبمداخل هؤلاء المستشرقين ، مستندا إلى القرآن الكريم أصدق مرجع للسيرة (فإن فيه إشارة إلى كل حادث من حياة النبى العربى ، يتخذها الباحث منارا يهتدى به . فى بحثه أو يمحص على ضيائه ماورد فى كتب السنة ، وماجاء فى كتب السيرة المختلفة) . ومعتمدا على وجوب (تمحيص ماورد فى كتب السلف ونقدها نقدا دقيقا على الطريقة العلمية) إذ (إن أقدمها كتب بعد وفاة النبى بمائة سنة أو أكثر ، وبعد ان فشت فى الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية ، كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلب فما بالك بالمتأخر مما كتب فى أشد أزمان التقلقل والاضطراب)[1] . .

وإن يكن — فيما كتب — (بحوث قيمة ليست من السيرة ، ولكنها اتصلت بها بسبب من الأسباب فى بيان أغراضها)[2] كما يقول الشيخ محمد مصطفى المراغى :

---

(١) حياة محمد ط ٣ سنة ٣٨ دار الكتب العربية ص ١٤ — ١٨ —٢٨— ٣٨ — ٤٨) .
(٢) المصدر السابق (ص س) .

والدكتور طه وجد سبيله إلى نفوس قرائه ، فقدم شخصياته — على هامش السيرة فى إطار حلوجذاب دون أن يقف طويلا عند الأخبار التى يقدمها ، وهمه أن ينتهى — فى الثوب القصصى الذى يقدمه — إلى وجدان قارئه ، يملؤه بمعانى الخير والحب والتضحية .

(هذه صحف لم تكتب للعلماء ولاللمؤرخين ، لأنى لم أردها إلى العلم ، ولم أقصد بها إلى التاريخ) . .

(هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ، ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمى ، فان فى قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ما يحبب إليهم هذه الأخبار . ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة) . .

(وسعت على نفسى فى القصص ، ومنحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث مالم أجد به بأسا إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبى أو بنحو من أنحاء الدين ، فانى لم أبح لنفسى فى ذلك حرية ولاسعة ، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث ورجال الرواية وعلماء الدين) [1] . .

أما فى (الفتنة الكبرى) فقد حلل الروايات التاريخية ، وقارن بينها واستنتج ، وقدم لنا دراسة رائعة تحتذى : (أنظر إلى هذه القضية نظرة خالصة مجردة ، لاتصدر عن عاطفة ولاهوى ، ولاتتأثر بالايمان ولابالدين ، وإنما هى نظرة المؤرخ الذى يجرد نفسه تجريدا كاملا من النزعات والعواطف والأهواء ، مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها) [2] . .

والحكيم بأسلوبه الفنى المسرحى يقف وحدة بعيدا عن هذا المجال الدراسى ،

---

(١) مقدمة على هامش السيرة — دار المعارف سنة ١٩٣٣ .
(٢) الفتنة الكبرى — عثمان — دار المعارف سنة ١٩٤٧ — ص

أما العقاد فقد قدم سلسلة من العبقريات حازت إعجاب الكثيرين ، واعتمد فيها منهجا أدبيا لايسترعيه من الخبر إلا دلالته النفسية ، ولا يقدم من جوانب الشخصية إلا جانب القدوة والمثل ، متخذا مما يفعل الأوربيون بأبطالهم حجة على من يأخذون عليه هذا المأخذ . . فترجمة العبقرى (صورة نفسية ، تعرفنا وتجلولنا خلائقه ، وبواعث أعماله ، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين ، فلا تعنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ماتؤدى أداءها فى هذا المقصد الذى لامقصد لنا غيره ، وهى قد تكبر أو تصغر ، فلا يهمنا منها الكبر أو الصغر إلا بذلك المقدار ، ونعل حادثا صغيرا يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته ، ولمحة مصورة أظهر من لمحته ، بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التى تجئ عرضا فى بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها فى مقياس التاريخ . .

ومن همنا أن تكون الصورة صادقة كل الصدق فى جملتها وتفصيلها فليس من غرضنا التجميل الذى يخرج بالصورة عن حقيقتها ، ولسنا نريد أن يطلع القارئ على تلك الصورة فلا يعرفها ولايعرف — المترجم له — منها ، ولكن تجميل الصورة شئ وتوقير صاحبها شئ آخر ، فليس لنا أن نثبت جمالا غير ثابت ، ولكن لنا — بل علينا — متى أثبتنا الجمال فى مكانه أن نرفع الصورة إلى مقام التوقير)[1] . .

* * *

ودخل الأستاذ الحوفى هذا الميدان وبين يديه هذا الرصيد من الدراسات الأدبية فضلا عن (حياة الرافعى) لمحمد سعيد العريان وهى استعراض طولى لحياة أستاذ صديق ، و (جبران خليل جبران) لميخائيل نعيمة ، وهى عمل فنى روائى لحياة صديق طالت معاشرته ، وغير ذلك كثير مما يقترب من هذه الصورة أو تلك : : هذا إلى ما كان بين يديه من دراسات غربية لاميل لود فيج واستيفان زفايج وأندريه موروا وغيرهم كثير . .

(١) عبقرية الصديق — دار المعارف — ص ٣ — ٤ — ٧

وقد استفاد الأستاذ الخولى من عثرات سابقيه دون شك، كما استفاد من سديد خطاهم ، وقدم لنا فى دراسة نصوص أبى العلاء رأيا لم يسبق إليه ، لأنه لجأ فى تحليل النصوص إلى طريقته فى تفسير القرآن بالقرآن ، كما استعان بأخباره بعد أن أخضعها لمنهج الأقدمين فى نقد متن الحديث وسنده ، وكذلك فعل وهو يقدم لنا ترجمته المحررة لمالك بن أنس فى ثلاثة أجزاء أفرغ لها جهدا كبيرا خلال عشر سنوات ، فحلل آلاف الروايات وناقشها ، وقرن بعضها ، وفسرها على هدى من دراسة مطولة للبيئة مادية ومعنوية ليقدم دراسة أبرأها (من آفات التراجم عند القدماء والمحدثين) ، لأن (من كتاب التراجم عندنا من أخلوا بجوهره — التاريخ — إخلالا منع تراجم كتبوها من أن تكون تاريخا ، خليقا بهذا الاسم ، حين يتحدث العلماء عن إمكان عد التاريخ علما . . أو تكون عملا فنيا ، خليقا بهذا الاسم ، حين يطمع الفن فى أن يعد نفسه عملا ذا حرمة بين أعمال العصر)[1] .. وقد أراد بترجمته أن تكون (مثالا للمنهج وأصلا فيه) وقد بين لنا أن (فن كاتب الترجمة يتمثل الأمانة ، ويرتفع على التحيز والتعصب ، ويتحرر من التقليد ، ويخلص من الاستهواء ، ويلتزم المراجع والوثائق المحررة ، ولا يستمد إلا من التحقيق الدقيق ، والتفسير العالم . . ومن هنا كانت منقبية الأقدمين فتنة ، كما كان ارتزاق المحدثين محنة ، وهوى السياسة وما إليها بلية..وكانت الشجاعة الأدبية أوجب وجوبا،والثقة بالنفس ألزم لزوما . . وإنما يوقى التراجم من سوء هذا كله فهم صحيح لمعنى الفن ومهمته فى الحياة، ومكانه بين ألوان المعارف الإنسانية ، فما دام الفن ليس إلا وقع الوجود على الوجدان ، ومادام هو بين صنوف النشاط الفردى والجماعى واحدا منها ، يحاول من رفع مستوى حياة الفرد والجمع ما يحاول النشاط العقلى والعلمى ، ومادام هو فى المعارف تفسيرا وجدانيا للكون ، فلن يعترف مع ذلك كله بشىء من اللعب بالألفاظ ، ولن يكون فيه مجال لصناعة

---

(١) ص ح مالك بن أنس .

تافهة تفسد المعانى، ولن يقر التزين المفرق . . ولن . . ولن . . بل سيكون أداء أمينا لما فى النفس ، وإخراجا صادقا لما أجن الوجدان ، ولن يمدح مجازفا ، ولن يذم متساهلا ، ولن يعجب فى خفة ، ولن يعيب فى غير شعور بالتبعية) [١] . .

ومن خلال ترجمته (المثالية) لمالك بن أنس، والتزامه بالقواعدالتى رسمها للترجمة ، فى (الجمع المستقصى لمواد الموضوع . . ثم النقد الفاحص لها . . يعقبه التفسير المبين لمرامى هذه الروايات، الكاشف عن دلالتها . . فالعرض المعبر ، فى صورة مجلوة وضيئة) [٢] — اهتدينا إلى خط واضح متميز للمنهجية العلمية فى هذا المجال ..

وحين ننظر فيما بذلت الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى تحقيق (رسالة الغفران) وفى دراستها المتأنية الواعية للنص القرآنى وأقوال المفسرين فى (التفسير البيانى) ، وفى مناقشتها للأستاذ العلايلى والدكتور زكى مبارك والدكتور طه حسين فيما أخذوا من أخبار المجتمع الاسلامى فى عصر (سكينة بنت الحسين) . . وإذا نظرنا فيما قدمت من حوار متتابع مع الأخبار والآراء فى (قيم جديدة للأدب العربى) وفى غيرها مما قدمت هذه (الأمينة) كمثال، فضلا عما قدم الدكتور خلف الله فى ترجماته لصاحب الأغانى والشدياق والكواكبى وعلى مبارك ، والدكتور عبد الحميد يونس فى (الهلالية) و (الأسس الفنية للنقد الأدبى) والدكتور الأهوانى فى الأدب الأندلسى والدكتور شكرى عياد فى بلاغة أرسطو والدكتور عبد القادر القط فى الأدب المعاصر والدكتور عز الدين اسماعيل فى (الأسس الجمالية) . . وغيرهم كثير . . كثير — إذا نظرنا فى ذلك كله، استطعنا أن نضع أيدينا على مدرسة أدبية متكاملة ، اتخذت من جهود الأستاذ الخولى منطلقا إلى دراسات عديدة متنوعة . .

---

(١) ص ت مالك بن أنس .

(٢) ص ط المصدر نفسه .

منهج متكامل

يقول الأستاذ الخولى : (لا ضمير ولا أمانة ، إلا إن كانت حقيقة الرجل أكبر من ظاهره) .

فهل تجلت حقيقة هذا المفكر الكبير من خلال تناولى إياه؛ حتى يمكن الحكم له ، أو عليه ؟

هل استطعت الكشف عن جميع جوانبه الفكرية ، والانسانية العامة حتى تبدو الصورة الكاملة لرجل شغل مكانا رائدا فى حياتنا الثقافية المتوثبة أكثر من ثلث قرن من الزمان ؟

أحسب أنى لا أجرؤ على هذا الزعم ، بحيث يتوفر للقارئ أن يزن الرجل اليوم بميزان صدق ، فيعرف ما إذا كانت جذوره تضرب فى أعماق أبعد مما ارتفعت إليه ذراه أم لا .. ذلك أن الأستاذ الخولى سيظل موضع دراسة زمنا طويلا حتى يتأتى للتاريخ أن يقول فيه كلمة أقرب إلى الحقيقة .. فمع حرصى الشديد على أن تكون الصورة التى قدمتها هى صورة الرجل ، فان تناولى يختلف عن تناول الآخرين ، وفهمى يختلف عن فهمهم .. لأنى أقدمه من خلال ذاتى ، مهما أقل عن الروح العلمية التى عملت على تمثلها جهدى ، حتى كدت أكون مغاليا فى تقديم الرجل بلسانه ، إذ كلما أمكنت كلمته آثرتها على كلمتى لتكون أكثر دلالة عليه ..

ومن خلال العرض الذى قدمته يمكن أن نقول إن الأستاذ الخولى كان ظاهرة لافتة بكل ما للظواهر من حدود متميزة ..

فمنذ أخذ طريقة إلى حياتنا الثقافية وهو يجول فى دائرة ، محيطها اللغة ، وقطرها الدين ، ومحورها كتاب الله ..

وقد رسم هذه الدائرة ، أو رسمت له — باعتبارها قدره — على أساس علمى صحيح ، يبرز أثر البيئة المتطورة النامية ، فى كل من المفكر وفكره ،

تطورا ونموا ، ومادام المفكر ثمرة تكوين نفسى خاص ، فلا بد من أن تقوم الدراسة على أسس نفسية بلى على أحدث ماوصل إليه العلم من خفايا النفس ، شعورا ولاشعورا ، عواطف وانفعالات ، خيالات وأحلاما ، وكل دواعى الحس والإثارة ، حسنا وقبحا ، وعجبا وإعجابا ، وحزنا وسرورا ، ويأسا وطمعا .. الخ .. الخ

فاللغة ظاهرة اجتماعية ، تحيا بحياة المجتمع ، وتستمد عوامل قوتها وضعفها من قوته وضعفه ، لأنها لسان أهله ، ووحى بيئته المادية والمعنوية ومن ثم لاتعبر لغة قوم عن حال آخرين ، ولالغة حاضر عن ماض .. ولهذا كان من الضرورى أن يكون لكل بيئة معجمها ، ولكل زمن معجمه ..

* * *

وقد نادى الأستاذ الخولى بمعجم قرآنى تكون دلالة ألفاظه من واقع أولئك الذين نزل عليهم القرآن ، حتى لاتحمل على كتاب الله معانى لم يقصد إليها ، وليست فى طبيعته ، لأنها إن تكن بسبيل أهداف علمية أو مذهبية أو فلسفية أو بلاغية أو غيرها ، فانها لاتلبث أن تخضع القرآن لمفاهيم ضيقة بضيق فكر أصحابها ، مما يقف به عند حدود مكانية وزمانية واحتياجات قاصرة ، ولا يتسع لمقتضيات الحياة الإنسانية على امتدادها طولا وعرضا ، مع قدراتها الكشفية والاختراعية ، والفكرية والنفسية ، والمادية والعضوية ، المتجددة المتطورة ، ومع عاداتها وتقاليدها ، وقيمها ومثلها ، والتزاماتها الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية ، وعلاقاتها الإقليمية والعالمية على جميع المستويات ، اقصاديا وسياسيا وعسكريا ..

وهذا المعجم القرآنى يحتاج إلى مسح لغوى لما خلف الجاهليون ورجال الصدر الإسلامى ، مع دراسة موسعة لحياة هؤلاء الناس والمؤثرات الفاعلة فى هذه الحياة .. مظاهر نشاطها ، وجوانبها الثقافية ، ومتطلباتها

القريبة والبعيدة ، لما لهذا كله من تأثير فى دلالة الكلمة ، وموقع الكلمة من الجملة . .

على أن يكون هذا العمل الكبير عونا على الاهتداء إلى المعنى القرآنى ، من خلال جمع اللفظ القرآنى فى مواضعه المختلفة ، والاسترشاد بالمعنى المشترك فى هذه المواضع ، لتكون على بينة ، ولا نبعد عن الغاية . .

ويمكننا أن نستعين بالمعاجم العربية ، على أساس من دراسة دقيقة لما أصاب اللفظ من تغيير بتغير البيئة والزمن . . ولأن معاجمنا لاتتناول الدلالة اللفظية فليس أمامنا إلا أن تتبين حس العربية ، والأصل المشترك ، ماديا ثم معنويا . .

وقد اشترك الأستاذ الخولى فى هذا العمل المعجمى ، فقدم للعربية جزءا من المعجم القرآنى يضم الحروف (س — ع) . . وقد دعا إلى معجم لتلاميذ المرحلة الأولى ، بجمع الألفاظ القريبة التناول ، مما هو عربى أصلا ، ومما طبعته العامية بطابعها ، أو أكسبته دلالات جديدة ، مع أصالة العربية ، حتى لايحس متعلمو اللغة أنهم غرباء عنها ، وحتى لاتتسع الهوة بين لغة المدرسة ولغة البيت والشارع . . فإذا سهل جريان اللفظ العربى على ألسنة الناشئة أمكن تزويدهم بما يثرى هذه اللغة شيئا فشيئا دون مشقة ، بل تكون هذه السهولة عونا على استعمالها خارج المدرسة ، مما يساعد على تقريب مابين العامية والفصيحة ، ثم على توحيدهما . .

* * *

والعامية إحدى مشكلات الفصيحة ، إن لم تكن أخطرها . . تأخذ عليها طريقها وتكسب كل يوم المزيد من أرضها ، وتقتات حياتها ، بما أوتيت من قدرة على النماء والتطور ، وعلى أن تلبس لكل حالة لبوسها . . ولا حيلة أمام العربية إلا أن تتحرر من حراسها الذين شدوا إلى حوائط أثرية ، فلم تعد لهم قدرة على الحركة ، وأن تدرس خصائص العامية ووسائلها

ا الخصبة المرنة الطيعة ، فتأخذ منها ما يخالف طبيعتها وتقيم علاقات طيبة معها ، لا تلبث أن تنتهى إلى وحدة . . وليكن لها من معامى العربية ، لامن كهنتها ، أكبر العون . . ولتحس الأمة بمسئوليتها الكاملة نحو لغتها التى تعبر عن وجودها وعن تاريخها وأمجادها ومستقبلها القومى ، وتتخذ لذلك كل ما وسعت من إمكانيات ، فى المدارس والمعاهد والجامعات ووسائل الإعلام ، والمؤسسات و . . و . . حتى يتهيأ لهذه اللغة أن تعبر عن احتياجاتنا ، وتؤلف بينها وبين مشاعرنا وأذواقنا ومعارفنا ، فنصلح بها ، وتصلح بنا ، ولا تمزقنا الثنائية ، فنكون مجرد صور باهتة ، لا طعم لها ، فى حياتنا الرسمية ، وصور أخرى زاهية الألوان ، مختلفة الطعوم فى حياتنا العامة ، مما يدعو الكثيرين إلى أن يفكروا بالعامية ، ثم يترجموا إلى الفصيحة ، فيكون الابتذال والضعف والإحالة التى تكثر فى أدبنا الحديث . .

ودارس اللغة لابد أن يصدم بعقبة كبرى ، هى عقبة (النحو)

وقد جرت محاولات لوجود وسيلة تيسر على الناشئة اقتحام هذه العقبة ، دون رضوض ودون أن يموت أصحابها وفى نفوسهم شئ من حتى . .

لكن المحاولات أصابتها رهبة التراث ، وعقدة التاريخ ، ولعنة الماضى ، فلم تزد على أن تصنع لافتة جديدة مكان لافتة قديمة . . وظلت الشكوى على حالها ، من الصغار والكبار على السواء . .

ورأى الأستاذ الخولى أن الحلول يجب أن تكون جذرية ، لأن المشكلة مشكلة الأمة ، قبل أن تكون مشكلة التلاميذ ، فما لم يسهل على أبنائنا دراسة لغتنا انفضوا عنها ، وشغلوا أنفسهم بسواها ، وتحول انتماؤهم إلى ثقافة غير ثقافتنا ، كما حدث بالنسبة لأولئك الذين أجادوا غير لغتنا ، وكان همهم الطعن عليها وعلينا . .

وقد وضع أمام الجميع صورة مما فعل رجال الدين، وهم فى موضع لايحسدون عليه ، لشدة حساسية مايبحثون . . لكنه العلاج، ولاخيار ، ولا نقول الدواء آخره الكى ، ولكن نقول، لنفعل مثل مافعل أصحاب الفقه . .

ولن نستطيع أن نتعرف إلى صنيعهم إلا بالمسح اللغوى الذى أشرنا إليه، ولكنه مسح الجملة لامسح الكلمة، من قبل أن يصيب اللغة أصحاب الفلسفة والعلل المنطقية من النحاة . . ولنا أن نأخذ من آراء النحاة مايقضى حاجتنا ، وييسر قواعد لغتنا . .

ولاريب فى أننا سنجد الكثير مما لايزال يحيا فى عاميتنا ، التى نشأت عن انتقال الفصيحة إلى بيئة جديدة . .

وسنجد الكثير مما يساعد على الإقلال من أخطائنا ، لأنها صواب فى لسان عربى فصيح ، أخذته القواعد مأخذ الشذوذ أو الضرورة الشعرية

ولما كانت حاجتنا إلى تنشئة أجيالنا على حب لغتنا وتذوقها . . فإن الشعر أو السجع ليس أحوج إلى مخالفة البصريين أو الكوفيين من وجود أمة تفقد يوما بعد يوم جزءا عزيزا من روحها التى هى لغتها .. وأنى لابنائنا فى لغة هى لغة الشعراء والمتأنقين فى صناعة الكلام .

وبهذه الدراسة المزدوجة فى الفصيحة والعامية يمكن أن نصهر إحداهما إلى الأخرى فى نظم الكلام، كما نفعل فى الكلمة، ومن ثم تكون خطوة أخرى فى سبيل التقريب والقضاء على الثنائية ، أو على ظاهرة التمزق الفكرى والوجدانى فى حياتنا ..

* * *

لكن اللغة ليست مجرد كلمة أو كلمات ، لأنها قدرة على تأليف هذه الكلمات ، للتعبير عن عقل يفكر ، ونفس تجيش ، وروح تحس ، وعاطفة تهيج ، ولكل درجات ، قوة وضعفا، ولينا وشدة ، ورقة وعنفا ،

وعمقا وضحاله، وقربا وبعدا . وعسرا ويسرا .. ولهذا اختلفت أساليب التعبير باختلاف قدرة المعبرين على اختيار الكلمة ، وتذوقها ، وحسن تنسيق الجملة ، والتفنن فى تأليفها ..

وإذا كان لجملة الشعر مذاق غير جملة النثر ، ولجملة القصة غير جملة الخطبة وجملة المقال . فقد وجب العلم بفنون وعلوم أخرى تعين على معرفة ذلك .. فالشاعر أو الكاتب لايكتب الجملة فحسب ، وإنما يكتب فنونا من القول . كل فن له وسائله وغاياته ، له آدابه ونماذجه . التى تختلف من جيل إلى جيل ..

وإذا كنا نكتب لغيرنا ، لأننا نريد أن نشركهم فى معاناتنا ، أو نرى انفعالاتنا على وجوههم ، أو نجرب قدرتنا على التأثير فيهم ، و توجيههم إلى غاية نرجوها ، أو تحدث فى نفوسهم حزنا أو بهجة، رضى أوسخطا، أملا أو يأسا ، حبا أو كرها ، شجاعة أو خوفا .. إلى آخر هذه الحالات التى نقصد إلى تأريث وقودها ؛ أو تخفيف حدتها — فلابد من أن نعيش بوجدان من نكتب إليهم ، أو نتحدث فيهم ، وأن نتذوق فنونهم الشعبية وبلاغة عاميتهم . لنكون أقرب مدخلا إليهم وأيسر .. ونحن بهذا السبيل إنما نربط فن القول بعاملين : عامل البيئة ، وعامل النفس الإنسانية ..

وشأن الناقد شأن الكاتب . فالنقد فن ، كما أن الكتابة فن ، والنقد معاناة كما أن الكتابة معاناة ، ومن هنا كان على الناقد أن يكون الكاتب ، زائدا العدالة والضبط .. العدالة فى الحكم ، والضبط فيما ينقل عن المنقود ، أو عن غيره ، ممن يستند إلى قولهم ، فلا يزيف حكما لقرب من المنقود أو بعد ، ولحب أو كره ، ولا يحرف كلام المنقود أو كلام غيره فى سبيل هذا التزييف ..

وثمة آداب كثيرة حول دراية بالنفس الإنسانية ، وجمع شامل لآثار المنقود ، ودراسة البيئة التى نشأته ، وصلته بالكتب .. الخ — وضعها الأستاذ الخولى بين يدى الناقد ، لتكون عونه على أن ينهض بتبعته ، ويؤدى

دوره موجها ومبدعا ، فلا يكون همه تسلق سيقان الآخرين ، أو امتصاص رحيقهم ، بل يضيف ساقا إلى أخرى ، ورحيقا إلى رحيق . .

هذا إلى مافى دراسة النصوص — نهجا وتطبيقا — من جمع واستقصاء وتحقيق وفحص ناقد ، وتفسير نفسى واجتماعى دقيق .. الخ .. وفى دراسة صاحب النصوص ، على أساس وصله بأدبه ، على أن له وحدة متماسكة ، مرتبطة بالبيئة ، ماديا ومعنويا ، أخذا وعطاء ، فى موضوعية عامية ، تميز (إدراك المترجم له بعصره وبيئته وذوقه وعاداته ، عن شخصية كاتب الترجمة وحال قومه ومنطق عصره واتجاه رغباته) مع (الانتفاع الدائم المتجدد بما عرف ويعرف فى دوائر الدرس النفسى المجرب الدقيق لقوى الإنسان وملكاته ومشاعره وغرائزه ، حتى يمكن فهم الكيان النفسى للمترجم له وتبين سمات شخصيته ، وإدراك العوامل المؤثرة فى حياته ، وتقدير شخصيته العامة على أساس من الواقع الجسمى والنفسى له ، دون إسراف فى الفروض ولاذهاب فى الاعتبارات الادعائية إلى حد بعيد) . .

* * *

وإذا كان على دارس الأدب والنقد أن يتخذ البيئة سبيله إلى تيسير هذه الدراسة—فمما لاشك فيه أن التوزيع الإقليمى للدراسة الأدبية سيعود بخير كثير ، لأنه يقوم على أسس عامية صحيحة ، إذ يختص الدارسون بأبناء بيئتهم التى هم أعرف بها ، وأقدر على تبين آثارها فى آثارهم . . وهذا الاختصاص سيكون عوننا على معرفة أنفسنا ، فنصلح من شأننا ونستر من عوارنا ، ونتمسك بمثلنا ، ونفخر بكفاحنا ، وتزداد قدرة على الحياة . .

وتكون الدراسة الإقليمية قاعدة لدراسة أخرى مشتركة بين الأقاليم المختلفة لأنها جميعا تمضى إلى غاية مشتركة ، وتحدث بلغة مشتركة وثمرة هذه الدراسة الكشف عن الروابط الوجدانية والفكرية بين مختلف الأقاليم ، وعوامل الأخذ والعطاء بينها ، ومظاهر هذا كله ،

والفنون الخاصة أو العامة ، ولماذا اختص إقليم بفن ، ولم اشتركت الأقاليم فى آخر ؟ إلى آخر ما يستتبعه البحث اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وسياسيا .. الخ ..

ثم تكون دراسة بيئة (الجزيرة) ، الوطن الأول للغتنا المشتركة ، بكل ماتضم هذه البيئة من جماد وحيوان وإنسان ، وعادات وتقاليد ومعتقدات ونظم للحكم وفنون للأدب ، ودروب للمعرفة ..الخ الخ ، لنتبين ما أصاب هذا كله من عوامل ومظاهر الحياة والموت . والتجدد والجمود مما يثرى معرفتنا ، ويخصب دراستنا .

ولما كانت الدراسة — على هذه السعة — تتطلب تنقيبا وبحثا ، وجمعا واستقصاء ، وتحقيقا وتقييما ، وتفسيرا وتعديلا ، واستنتاج قوانين وظواهر وسمات — فقد وجب أن نرسم لهذا كله ونخطط ، بحيث لايكون عملنا معادا مكرورا فيختص جيل بعد آخر بجانب من هذه الدراسة يهيأ له أحسن التهيئة ، ويزود بكل ماتحتاج الدراسة من إمكانيات . .

وبهذا يمكننا أن نخدم لغتنا وعروبتنا ، وتاريخنا ، بل وديننا ، خدمة منهجية سليمة ..

* * *

وإذا كان الحديث عن الدين ، فإنما نعنى الظاهرة الاجتماعية الثانية، وجودا وفعالية بعد اللغة ..

ذلك أن اللغة إن كانت وسيلة إثبات وجودنا ، فإن الدين وسيلة تقويم هذا الوجود ، واتخاذ هدف له ، نحيا دهرنا نتطلع إليه ، ونرسم له ، ونعمل من أجله ..

والأديان كلها — وإن تعددت مناهجها — فإن أصولها واحدة ، وغاياتها واحدة ، وماجاء الاختلاف — كما يقرر الأستاذ الخولى — إلا من عوامل بيئية ونفسية خاصة ، سواء أخذت شكلا سياسيا

أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو عنصريا .. أو .. الخ ومافسدت الأديان إلا بفساد أصحابها .. ولو صلحت النفوس وخلصت النوايا لأسلم دين إلى آخر ، لأن المتأخر يحدث بما حدث به المتقدم ، مضافا إليه احتياجات التطور الاجتماعى بكل مظاهره .. ولكن دواعى الشر أكثر من دواعى الخير ، ورجال الدين أكثر رجال الدنيا حرصا على مكاسبها مالا ونفوذا ، ولذلك اشتغلوا بالسياسة شركاء وعملاء ، وأنستهم أنفسهم أن اللادينين بسطوا نفوذهم على أكثر من نصف الأرض، فان لم يكفوا عن الصراع بينهم أضاعوا أنفسهم ، وأضاعوا ما يتاجرون به ، ولم تعد للدين كلمة .. هذا الدين الذى يدعو إلى السلام والرحمة والمحبة والخير يصبح مجرد تاريخ . بل تصبح الإنسانية كلها مجرد تاريخ . هذه الإنسانية التى كرمها ربها، فخلقها من نفس واحدة، فى أحسن تقويم ، وسجد لها الملائكة ، ودانت لها الأرض بما رحبت ، وامتدت قدراتها عبر الفضاء – لاتجد سلامها وأمنها إلا فى أخوتها ، وتعارفها ، وتآلفها ، وتعاونها على إخصاب الحياة وإسعادها .. والخصوبة والسعادة فى تعاليم السماء ، التى أخضعها رجال الدين لأهواء الساسة ، وأفسدوا فيها باسم الدفاع عنها ، أو إكسابها معانى جديدة مما ليس من طبيعتها ،ولا ماهو هدفها .. ولم يحاولوا تطوير وسيلة الدعوة، وإلباسها ثوب العصر . .

ولهذا كانت دعوة الأستاذ الخولى إلى فهم جديد للدين أساسه كتاب الله .

ولا يتأتى فهم هذا الكتاب إلا على أساس من الدراسة النفسية والأدبية ، لأنه ليس مجرد كتاب تعاليم وأخبار عن السماء ، أوكتاب تاريخ وقصص عن الأولين، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه) فى أسلوب أعجز أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله، ومن ثم لايتوفر فهم قيمه إلا من خلال أسلوبه : ولما كان الأسلوب على غير مثال وجب أن يفسر القرآن بالقرآن وأن يتناول موضوعا موضوعا ، تجمع له آياته المفرقة بين السور .. وعلى أساس من معرفة الدلالة اللفظية زمن نزوله ، ومعرفة أسباب النزول ، وأحوال من نزل عليهم ، والسياق الذى

وردت فيه الكلمة أو الجملة ،والخبر أو القصة — يمكننا أن نقول شيئا لايبعد عما فهمه المسلمون الأول ..

وبذلك نجنب أنفسنا سموم الاسرائيليات ، والتواءات الباطنية والمعتزلة والمتصوفة ، وشطط من ركبوا للعلم مركبا صعبا، ووهموا أن كل الصيد فى جوف الفرا ، فتأولوا ، وحملوا اللفظ القرآنى من جديد العلم ماهو برئ منه ، لأنه فى غنى عنه ..

وبهذه النظرة إلى القرآن يمكننا أن نجد — بالفهم النفسى والأدبى للقرآن — سبيلا إلى المشتبهات وغير المشتبهات . وإلى القصص والأساطير ، دون أن نمس عظمة القرآن من قريب أو بعيد.. بل نستطيع أن ندل على مواطن الإعجاز ، دون حاجة إلى أخبار الغيب ، وعلم الدنيا . وقصص الأولين والصرفة ، وماأشبه ذلك .. كما نستطيع أن نجد حلولا لمشكلات الإنسانية فى كل زمان ومكان ، لأن طبيعة تعاليم القرآن كلية . تترك التفصيلات لمتطلبات الحياة واحتياجات المجتمع . فهى لاتتعارض مع التطور ومع كل جديد من أمور الناس ..

وإذا استطعنا أن نتخذ من القرآن مثالا يحتذى لغة ونحوا وبلاغة وأدبا . تمكن من لامعجم له من معجم ثرى خصب . . وتيسر على أبنائنا — بوجوه القراءات — ماأشكل عليهم من قواعد النحو . . وتحررت البلاغة من ذهنية الأعاجم ، وتخريجات الفلاسفة والمتكللمين وتعليلاتهم . وصارت فن القول . دراسة أدبية تخاطب العقل والعاطفة . وتعنى بتربية الذوق والوجدان .. وارتبط الأدب بالحياة ربطا وثيقا . يعبر عنها . ويحياها . ويخطط لها . ويدافع عنها ، ويغنى لها ، ويكون الحياة الحرة القوية المنتصرة الغنية الباسمة .

وإذا استطعنا أن نتخذ من القرآن دستور حياتنا ، جددنا ديننا بجديد دنيانا ، وأخصبنا دنيانا بفضائل ديننا، وصيرنا الدين والدنيا سبيلا وغاية، وأمكن لناأن نتحرر ونقوى ونعتز ، وأن نمكن للسلام والعدل فى الأرض.

من خلال هذه الدائرة الواسعة ظل كفاح الأستاذ الخولى — حياته — قويا حارا .. يخاصم رجال الدين الذين لايتحررون ، ويبين لهم كيف يصلحون أنفسهم ، ويصلحون الناس .. ويخاصم رجال اللغة الذين اتخذوا اللغة صنما طافوا من حوله . واصطنعوا له المسوح والطقوس . ورتلوا التراتيل، وانعزلوا بها عن الحياة ..

وكان منطلقه إلى هذا كله قتل القديم بحثا وفهما ، بعد جمع شامل مستقص وفحص دقيق ، وتشخيص واف ، يتبين به عوامل القوة وعوامل الضعف . فيطرح عوامل الضعف . ويتخذ من عوامل القوة سبيلا للبناء والتجديد ، مستعينا بكل ماوصلت إليه الإنسانية من جديد العلم والحياة . . فى النفس والاجتماع والاقتصاد والفلسفة والأخلاق والتاريخ والأساطير ... و... و... إلى آخر مايكون للعلم فيه مجال ....

وربط ذلك كله بالبيئة ذات الأثر الكبير فى الإنسان ومايتنتجه ، وقدم بهذا كله (منهجا . . كاملا غير منقوص ، واضحا غير مشتبه ، منسقا غير مضطرب .. أدبيا لاشية فيه من علم ولافلسفة ولا كلام ولاغبار عليه مما عدا الوجدانيات المتحكمة . والذوق المسيطر .. فنيا بارئا من تداخل المناهج واختلاطها ، متخلصا مما خلف الصراع بينها من آثار فى الفنية لا خير فى بقائها. [1] .. دينيا بعيدا عن الجمود والعصبيةوالمذهبيةوالإدعاء .. إنسانيا يدعو بالوحدة الدينية ، وسلام البشرية ..علميا قاعدة وتطبيقا ..

وبذلك أقام المنار، ونصب الأعلام ، لينال من هذا العمل كل مادفعته الأقدار إليه ، بما استطاع من نصيب ، وترك الحصاة والمدرة التى اجتمعت من جهاده ، لتنضاف إليها مدرة أخرى فأخرى . حتى يدمجها الزمن فى صخرة تصنعها يده فى صرح الحياة الإنسانية الأدبية ، أوحياتها العلمية أو الفلسفية التى يسخر فيها الملايين من العملة الدائبين دأب الليل والنهار [1]

---

(١) فن القول — ص ١٤٢ .

(٢) مناهج تجديد ص ٩٠ — ٩١

رحمه الله رحمة واسعة .. (فقد كان أمة وحده، أمة فى قوله ،يدلى بالكلمة ، فتحفظ عنه ، وتعزى إليه ، ويرسل الجملة فتصير مثلا ، تحيا بحياة الأحداث ، وتتردد فى شتى المناسبات..

وكان أمة فى علمه ، له ملكه الخاص . وطريقته المستقلة .. عرف بزيه كما عرف بمنحاه فى الحياة ، يأبى التقليد والمحاكاة ، ويمقت المجاملة فى غير اقتناع ..

وكان أولا وأخيرا أمة فى رأيه ، يخرج به على المألوف ، ويعارض الشائع والمشهور . يعتد به، ويدافع عنه وما أبلغ حجته، وما أعظم إقناعه)[1]..

---

(١) من كلمة الدكتور ابراهيم مدكور فى حفل تأبين المجمع اللغوى لفقيده – مجلة المجمع ج ٢٢ ص ٢٣٩

فهرست

كتب للمؤلف

١ ـ المنهج البيانى فى التفسير الحديث للقرآن الكريم

٢ ـ أمين الخولى . . حياته وأعماله

٣ ـ هذا الكتاب المقدس (دراسة فى التوراة والإنجيل)

٤ ـ اليهود . . تاريخا وعقيدة

٥ ـ معركة الفن القصصى فى القرآن الكريم

٦ ـ التفاضل والتكامل بين ظاهر الشريعة وباطنها . .
(دراسة فى الفكر الإسلامى)

٧ ـ فى مرقص الضلال (ديوان شعر)

٨ ـ حتى تعود الابتسامة (ديوان شعر)

٩ ـ الأرض لا تنبت أغصانا جافة (ديوان شعر)

١٠ ـ قبل أن تفيض الكأس (رواية)

١١ ـ حتى مطلع الفجر (رواية)

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٧/٤٩١٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٤١٣٤ س ١٩٧٧ - ١٠٠٠

جمهورية مصر العربية

مطبوعات

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

— ٢١٢ —

القاهرة

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م



Bibliotheca Alexandrina
0360949